http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج
المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلى
الموضوع : فقهى و تحليلى
القرن : الخامس عشر
الناشر : دار الفكر المعاصر
مكان الطبع : بيروت دمشق
سنة الطبع : ١٤١٨ ق
تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

فقالتا : ما شأنكم ؟ ومن أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع كذا نريد هذه القرية ، قالتا : فإن أهلها أصحاب الفواحش فقالوا : أبها من يضيفنا ؟ قالتا : نعم! هذا الشيخ ، وأشارتا إلى لوط فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم.

٢- كان مجيء القوم مسرعين بقصد ارتكاب الفاحشة دليلا ماديا محسوسا للملائكة وغيرهم على استحقاقهم العذاب الأليم والعقاب السريع. وكان سبب إسراعهم ما روي أن امرأة لوط الكافرة ، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إنّ لوطا قد أضاف الليلة فتية ، ما رئي مثلهم جمالا وكذا وكذا ، فحينئذ جاؤوا يهرعون إليه.

ويذكر أن الرّسل لما وصلوا إلى بلد لوط ، وجدوا لوطا في حرث (بستان) له. وقيل : وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سدوم .. إلخ ما ذكر سابقا.

٣- كان قوم لوط يعملون السّيئات ، أي كانت عادتهم إتيان الرّجال ، فلما جاؤوا إلى لوط ، وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعا ، وقال : هؤلاء بناتي ، أي أرشدهم إلى التّزوج بالنّساء ، وإيثار البنات على الأضياف وقيل : ندبهم في هذه الحالة إلى النّكاح ، وكانت سنّتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة وقد كان هذا في أول الإسلام جائزا ثم نسخ فزوّج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم بنتا له من عقبة بن أبي لهب ، والأخرى من أبي العاص بن الرّبيع قبل البعثة والوحي ، وكانا كافرين.

وقال جماعة من المفسّرين كمجاهد وسعيد بن جبير : أشار بقوله :

بَناتِي إلى النّساء جملة إذ نبيّ القوم أب لهم ، ويؤيّد هذا أن في قراءة ابن مسعود : « النّبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، وهو أب لهم » ، والظاهر أن هذا هو أمثل الآراء وأقربها إلى

الصحة.

ج ١٢ ، ص : ١١٩

٤- إن الكريم الشّهم الأبي هو الذي يحافظ على كرامة ضيوفه ، لذا قال لوط : فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أي لا تهينوني ولا تذلّوني.

(١٢٢/١٢)

ثم وبّخهم بقوله : أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ؟ أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، أو ذو رشد ، أو راشد أو مرشد أي صالح أو مصلح. والرّشد والرّشاد : الهدي والاستقامة.

٥- من ألف الفساد والفحش بعد عن الصّلاح والطّهر ، لذا قال قوم لوط :

لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ أي ليس لنا إلى بناتك رغبة ولا هنّ نقصد ، ولا لنا عادة نطلب ذلك ، فإن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا أو طريقنا الذي نحن عليه ، ولا حاجة لنا بالبنات ، أو لأنك لا ترى مناكحتنا ، وما هو إلا عرض لا جدّية فيه ، فقوله : مِنْ حَقٍّ أي مالنا في بناتك من حاجة ولا شهوة.

ثم أعلنوا عن شهوتهم فقالوا : وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ إشارة إلى الأضياف ، والرّغبة في إتيان الذّكور ، وما لهم فيه من الشّهوة.

٦- لم يجد لوط عليه السّلام سبيلا للرّدع والإرهاب إلا التّهديد وإظهار الغضب والضّجر من موقف قومه ، واستمرارهم في غيّهم ، وضعفه عنهم وعجزه عن دفعهم ، فتمنى لو وجد عونا على ردّهم ، وقال على جهة التّفجع والاستكانة :

لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أي أنصارا وأعوانا ، لرددت أهل الفساد ، وحلت بينهم وبين ما يريدون ، أو لو أجد ملجأ ألجأ وأنضوي إليه من قبيلة أو عشيرة تؤازرني ضدّ البغي والبغاة ، والظّلم والظّالمين ، والفسق والفاسقين. وهو دليل على أن لوطا كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على ما يوجب الفضيحة في حقّ أضيافه.

ج ١٢ ، ص : ١٢٠

٧- لما رأت الملائكة حزن لوط عليه السّلام واضطرابه ومدافعته ، عرّفوه بأنفسهم : قالُوا : يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ فلما علم أنهم رسل ، مكّن قومه من الدّخول ، فأمر جبريل عليه السّلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفّت.

(١٢٣/١٢)

و طمأنوه بقولهم : لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بمكروه ، وكان كلام الملائكة متضمّنا أنواعا خمسة من البشارات هي : أنهم رسل اللّه ، وأن الكفار لن يصلوا إلى ما همّوا به ، وأنه تعالى يهلكهم ، وأنه تعالى ينجيه مع أهله من ذلك العذاب ، وأن ركنه شديد ، وأن ناصره هو اللّه تعالى.

٨- اقتضت رحمة اللّه تعالى وعدله إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ، وتلك معجزة للنّبي وتكريم لمن آمن معه ، وردع للظّالمين وإرهاب للكافرين. فأنقذ اللّه لوطا وأهله وهم بنتاه إلا امرأته ، وأهلك قومه.

٩- كان إهلاك قوم لوط ما بين طلوع الفجر إلى شروق الشمس بقلب جبريل عليه السّلام قرى قوم لوط وجعل عاليها سافلها ، وهي خمس : سدوم (و هي القرية العظمى) وعامورا ، ودادوما ، وضعوة ، وقتم.

أي أن العذاب له وصفان : الأول : قوله تعالى : جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها ، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض ، والثاني قوله تعالى :

وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ.

وكان هذا العمل معجزة قاهرة من وجهين :

أحدهما- أن قلع الأرض وإصعادها إلى قريب من السماء فعل خارق للعادة.

والثاني- أن ضربها من ذلك البعد البعيد على الأرض ، بحيث لم تتحرك

ج ١٢ ، ص : ١٢١

سائر القرى المحيطة بها بتاتا أمر عجيب.

ثم إن عدم وصول الآفة إلى لوط عليه السّلام وأهله ، مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضا.

١٠- وصف اللّه تعالى الحجارة التي رمي بها قوم لوط بصفات ثلاث هي :

الأولى- كونها من سجّيل ، أي الشّديد الكثير ، أو الطين المتحجّر.

الثانية- قوله تعالى : مَنْضُودٍ أي متتابع ، أو مصفوف بعضه على بعض ، أو مرصوص.

الثالثة- مُسَوَّمَةً أي معلّمة ، من السّيما وهي العلامة ، أي كان عليها أمثال الخواتيم.

وقوله تعالى : عِنْدَ رَبِّكَ قال الحسن : دليل على أنها ليست من حجارة الأرض.

و قوله تعالى : وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ يعني قوم لوط أي لم تكن تخطئهم ، وهي أيضا عبرة لكلّ ظالم من أهل مكة وغيرهم.

روي عن النّبي صلى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرّجال ،

ونساؤهم بالنّساء ، فإذا كان ذلك ، فارتقبوا عذاب قوم لوط ، أن يرسل اللّه عليهم حجارة من سجّيل » ، ثم تلا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ.

١١- دلّ قوله تعالى : وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ على أن من فعل فعل قوم لوط ، حكمه الرّجم ، كما تقدّم في سورة الأعراف.

ج ١٢ ، ص : ١٢٢

قصة شعيب عليه السّلام [سورة هود (١١) : الآيات ٨٤ الى ٩٥]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)

وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (٩١) قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)

وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

ج ١٢ ، ص : ١٢٣

الإعراب :

مُفْسِدِينَ حال مؤكدة لمعنى عاملها : تَعْثَوْا.

أَنْ نَفْعَلَ في موضع نصب ، معطوف على نَتْرُكَ أي : أن نترك عبادة آبائنا وفعل ما نشاء في أموالنا.

لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي فاعل ، والضمير مفعول أول ، والثاني : أَنْ يُصِيبَكُمْ.

ضَعِيفاً حال من كاف لَنَراكَ لأنه من رؤية العين ، ولو كان من رؤية القلب لكان مفعولا ثانيا.
مَنْ يَأْتِيهِ اسم موصول بمعنى الذي في موضع نصب بتعلمون.

(١٢٦/١٢)

وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ جاء بالتاء هنا على الأصل ، ولم يعتد بالفصل بالمفعول به بين الفعل والفاعل ، وقد جاء القرآن بالوجهين ، وكأنه جيء بالتاء هاهنا طلبا للمشاكلة لأن بعدها : كما بعدت ثمود ، وأنث الفعل على لفظ الصيحة ، وذكر في قصة صالح على معنى الصياح.
البلاغة :
عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ مجاز عقلي ، أسند الإحاطة للزمان الذي هو اليوم ، مع أنه ليس بجسم والعذاب فيه.
وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا فيه استعارة تمثيلية كالشيء الذي يلقى وراء الظهر.
ج ١٢ ، ص : ١٢٤
المفردات اللغوية :
وَإِلى مَدْيَنَ أي وأرسلنا إلى مدين. والمراد أهل مدين ، وهو بلد بناه مدين بن إبراهيم عليه السّلام ، فسمي باسمه. اعْبُدُوا اللَّهَ وحدوه. إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ بثروة ، وسعة في الرزق ، ونعمة تغنيكم عن التطفيف ، أو أراكم بنعمة من اللّه تعالى ، حقها أن تقابل بغير ما تفعلون ، أو أراكم بخير ، فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه. وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ إن لم تؤمنوا عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ بكم ، لا يشذ منه أحد منكم ، يهلككم ، ووصف اليوم به مجاز ، لوقوعه فيه.
أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ أوفوهما بالعدل ، أمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيها على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف ، بل يلزمهم السعي في الإيفاء ، ولو بزيادة لا يتأتى دونها. وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ لا تنقصوا من حقهم شيئا. وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ أي تفسدوا ، بنقص الحق أو القتل أو غيره كالسرقة والغارة ، وكل من الجملتين الأخيرتين تعميم بعد تخصيص ، فقوله : لا تَبْخَسُوا أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره. وقوله :
لا تَعْثَوْا يعمّ العثو تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد.

(١٢٧/١٢)

بَقِيَّتُ اللَّهِ رزقه الباقي لكم بعد إيفاء الكيل والوزن ، أو ما أبقاه اللّه لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم خَيْرٌ لَكُمْ من البخس ومما تجمعون بالتطفيف إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بشرط أن تؤمنوا ، فإن ثواب الفعل الصالح والنجاة مشروط بالإيمان وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أحفظكم عن القبائح ، أو رقيب أحفظ عليكم أعمالكم ، فأجازيكم عليها ، وإنما أنا نذير ناصح مبلّغ ، وقد أعذرت حين أنذرت.

قالُوا : يا شُعَيْبُ قالوا له استهزاء. أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا من الأصنام ، أجابوا به بعد أن أمرهم بالتوحيد. أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا معطوف على ما ، أي : وأن نترك فعلنا ما نشاء بأموالنا ، والمعنى : هذا أمر باطل لا يدعو إليه داع بخير ، وقصدوا الاستهزاء بصلاته ، وكان شعيب كثير الصلوات ، فخصوا الصلاة بالذكر ، وقالوا : إن دعوتك لا يؤيدها داع عقلي ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه من الصلاة. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قالوا ذلك استهزاء ، وتهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك. والحليم : العاقل المتأني ، والرشيد : المستقيم على الهداية الراسخ فيها.

قالَ : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي إشارة إلى ما آتاه اللّه من العلم والنبوة.

وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ضمير مِنْهُ عائد إلى اللّه ، وذلك إشارة إلى ما آتاه اللّه من الحلال ، فهل أشوبه بالحرام ، من البخس والتطفيف. وجواب الشرط محذوف تقديره : فهل يعقل لي مع هذه السعادة الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره ونهيه ؟ ! وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء. إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ أذهب إلى ما نهيتكم

عنه فأرتكبه. إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ أي ما أريد إلا أن أصلحكم بالعدل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ أي وما قدرتي على ذلك وغيره من الطاعات ، وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فوضت أمري إليه ، فإنه القادر المتمكن من كل شيء ، وما عداه عاجز في ذاته ، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار ، وفيه إشارة إلى محض التوحيد. وَإِلَيْهِ أُنِيبُ أرجع ، إشارة إلى معرفة المعاد ، وهو أيضا يفيد الحصر ، بتقديم الصلة على الفعل.

وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق من اللّه تعالى ، والاستعانة به في أموره كلها ، والإقبال عليه ، وحسم أطماع الكفار ، وعدم المبالاة بمعاداتهم ، وتهديهم بالرجوع إلى اللّه للجزاء.

لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي لا يكسبنكم خلافي الشديد معكم ومعاداتي. ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ من الغرق أَوْ قَوْمَ هُودٍ من الريح أَوْ قَوْمَ صالِحٍ من الرجفة وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ أي منازلهم أو زمن هلاكهم ، أي

مكانا أو زمانا ، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم ، فاعتبروا بهم. وإفراد بِبَعِيدٍ إما لأن المراد : وما إهلاكهم ببعيد ، أو ما هم بشيء بعيد ، أو بزمان أو مكان بعيد.

إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ بالمؤمنين ، عظيم الرحمة بالتائبين. وَدُودٌ محب لهم ، فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل الصادق الود بمن يوده ، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

قالُوا إيذانا بقلة المبالاة. ما نَفْقَهُ ما نفهم ، والفقه : الفهم الدقيق المتعمق. مِمَّا تَقُولُ من التوحيد.

ضَعِيفاً ذليلا رَهْطُكَ عشيرتك وقومك ، والرهط : من الثلاثة إلى العشرة. لَرَجَمْناكَ بالحجارة. بِعَزِيزٍ أي كريم عن الرجم. وهذا ديدن السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد.

(١٢/١٢٩)

أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ فتتركوا قتلي لأجلهم ، ولا تحفظوني للّه. وَاتَّخَذْتُمُوهُ أي اللّه. وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا جعلتموه بشرككم كالشيء الملقى خلف الظهر ، لا تراقبونه ، أو كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به وإهانة رسوله. مُحِيطٌ علما بما تعملون ، فيجازيكم لأنه لا يخفى عليه شيء منها.

عَلى مَكانَتِكُمْ حالتكم وتمكنكم في قوتكم. إِنِّي عامِلٌ على حالتي. سَوْفَ تَعْلَمُونَ الذي يعذبه اللّه تعالى. وَارْتَقِبُوا انتظروا عاقبة أمركم. رَقِيبٌ منتظر. وقد سبق مثله في سورة الأنعام بالفاء : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [الأنعام ٦/ ١٣٥ ومواضع أخرى] والفاء للتصريح بان الإصرار على الكفر سبب للعذاب ، وحذفها هاهنا لأنه جواب سائل قال : فما ذا يكون بعد ذلك ؟

فهو أبلغ في التهويل.

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا بإهلاكهم. الصَّيْحَةُ صاح بهم جبريل فهلكوا. جاثِمِينَ

ج ١٢ ، ص : ١٢٦

باركين على الرّكب ميتين. كَأَنْ مخففة أي كأنهم لَمْ يَغْنَوْا يقيموا. كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ شبههم بهم لأن عذابهم أيضا كان بالصيحة ، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم ، وصيحة مدين كانت من فوقهم.

المناسبة :

هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وقد تقدم ذكر هذه القصة في سورة الأعراف ، وجيء بها في كل موضع لعظة وعبرة وأحكام مختلفة ، مع اختلاف في الأسلوب والنظم.

وتضمنت القصة هنا تبليغ شعيب عليه السّلام دعوته ، ومناقشة قومه له وردّه عليهم ، وإنذار شعيب لهم بالعذاب ، ثم وقوعه بالفعل ، ونجاة المؤمنين.

ومدين : اسم مدينة بين الحجاز والشام قرب (معان) بناها مدين بن إبراهيم عليه السّلام.

التفسير والبيان :

و لقد أرسلنا إلى مدين أخاهم في القبيلة شعيبا الذي كان من أشرفهم نسبا ، فقال : يا قوم اعبدوا اللّه وحده لا شريك له ، فهذا أمر بالتوحيد الذي هو أصل الإيمان ، ثم نهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان فقال : وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ أي لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان ، كما قال تعالى :

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [المطففين ٨٣/ ١- ٣] والمطففون : المنقصون ، ويُخْسِرُونَ : ينقصون.

إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ أي إني أراكم بثروة وسعة في الرزق ورفاه في المعيشة ، تغنيكم عن الطمع والدناءة في بخس الناس حقوقهم ، وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم اللّه تعالى ، وإني أخشى عليكم عذاب يوم يحيط بكم جميعا ،

ج ١٢ ، ص : ١٢٧

فلا يترك أحدا منكم ، وهو إما عذاب الاستئصال في الدنيا ، وإما عذاب الآخرة في جهنم.

ويا قوم وفّوا الكيل والوزن بالعدل ، آخذين ومعطين ، وهو أمر بالإيفاء بعد النهي عن البخس ، للتأكيد والتنبيه على أنه لا يكفي الامتناع عن تعمد التطفيف ، بل يلزمهم الإيفاء ولو بزيادة قليلة.

ثم نهاهم عن النقص في كل الأشياء ، فقال : وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ والبخس : النقص في كل الأشياء ، أي إياكم والظلم أو الجور في حقوق الناس.

وَلا تَعْثَوْا .. العثو : الفساد التام ، أي لا تفسدوا شيئا من مصالح الدين والدنيا ، وقد كانوا يقطعون الطريق ، وأنتم تتعمدون الإفساد ، فقوله تعالى :

وَلا تَعْثَوْا يشمل إنقاص الحقوق وغيره من أنواع الفساد الدنيوية والدينية ، وقوله بعدها مُفْسِدِينَ معناه : حالة كونكم قاصدين الإفساد ، فلا إثم في حال الخطأ أو إرادة الإصلاح.

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ .. أي ما يبقى لكم من الربح الحلال بعد إيفاء المكيال والميزان خير لكم من الحرام ، وأكثر بركة وأرجى عاقبة مما تأخذونه بطريق الحرام ، بشرط أن تكونوا مؤمنين لأن جعل البقية خيرا لهم إنما هو متحقق في حال الإيمان ، وأما مع الكفر فلا خير لهم في شيء من الأعمال ، ثم إن الإيمان حافز باعث على الطاعة ، فإنهم إن كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب ، عملوا على تحصيل ما يؤدي إلى الثواب والنجاة من العقاب ، وذلك خير من مسعاهم في أخذ الزائد القليل من الحرام في

أثناء الكيل والوزن.

وما أنا عليكم برقيب على أعمالكم ، ولا مستطيع منعكم من القبائح ، وإنما أنا ناصح أمين ، فافعلوا الحلال والواجب بدافع من أنفسكم للّه عز وجل ، ولا تفعلوه ليراكم الناس ، ما علي إلا البلاغ ، وعلى اللّه حساب الأقوال والأفعال.

ج ١٢ ، ص : ١٢٨

ثم ذكر اللّه تعالى ردّ أهل مدين على شعيب عليه السّلام في الأمر بعبادة اللّه وحده ، وترك البخس أو عدم نقص الكيل والميزان.

(١٣٢/١٢)

أما الردّ على الأول وهو العبادة للّه فقالوا : يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ... أي هل صلاتك (أي الأعمال المخصوصة)- وكان شعيب كثير الصلاة- تأمرك بترك عبادة الآباء والأجداد وهي عبادة الأوثان والأصنام ؟ ! قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وأعلنوا التمسك بطريقة التقليد في التدين والإيمان ، كما يقال اليوم لعالم الدين المصلح : هل علمك أو مشيختك دافع لك إلى ترك ما نحن عليه ؟ ! وأما الرّد على الأمر الثاني وهو ترك البخس فقالوا : أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا .. أي وهل صلاتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نريد فعله ؟ والمقصود بيان أنهم أحرار في أموالهم يتصرفون فيها بما هو مصلحة لهم ، ولا يؤدون الزكاة ، ولا ينفقون منها شيئا في سبيل الخير ، وإنما يزيدونها بمختلف الوسائل ، فما أمرتنا به من ترك التطفيف والبخس ، والاقتناع بالحلال القليل ، وأنه خير من الحرام الكثير ، مناف لسياسة تنمية المال وتكثيره ، وما ذلك إلا حجر على حريتنا الاقتصادية.

والخلاصة : أن ردهم على شعيب في الأمرين تضمن إمعانهم في التمسك بالتقليد ، وفي الطمع المادي الذي لا يبالي فيه صاحبه بالحلال والحرام.

ثم أكدوا سخريتهم وهزءهم بقولهم : إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ أي إنك لصاحب الحلم والأناة والعقل والتروي ، والرشد والاستقامة! وأرادوا وصفه بضد ذلك من الجهالة والطيش وسفاهة الرأي ، وغواية الفعل ، فعكسوا ليتهكموا به.

ثم حسم أطماع الكفر فقال : يا قَوْمِ ، أَرَأَيْتُمْ .. أي أخبروني يا قوم إن كنت على بصيرة من ربي فيما أدعو إليه ، ويقين تام وحجة واضحة فيما آمركم به

ج ١٢ ، ص : ١٢٩

(١٣٣/١٢)

و أنهاكم عنه ، ورزقني من لدنه رزقا طيبا من النبوة والحكمة ، أو رزقا حسنا حلالا طيبا من غير بخس ولا تطفيف ، أخبروني إن كنت على يقين من ربي ، وكنت نبيا على الحقيقة ، أيصح لي ألا آمركم بترك عبادة الأوثان ، والكف عن المعاصي ، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك ، فجواب الكلام محذوف.

وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ أي لا أنهاكم عن الشيء ، وأخالف أنا في السر ، فأفعله خفية عنكم ، والمراد لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ، بل أنا متمسك به.

ثم أكد مهمته : إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ ... أي ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي ، وأمري بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، مدة استطاعتي للإصلاح ، لا آلو جهدا في ذلك. وفيه إيماء إلى إثبات عقله ورشده ، وإبطال تهكمكم.

وما توفيقي في إصابة الحق فيما أريده إلا باللّه وهدايته وعونه ، عليه توكلت في جميع أموري ، ومنها تبليغ رسالتي ، وإليه أنيب أي أرجع. وهذا يعني ثباته على المبدأ والدعوة ، دون أن يخشى منهم سوءا.

ويا قوم ، لا يحملنكم خلافي معكم ، ولا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم ما أصاب غيركم وأمثالكم من العذاب والنقمة ، مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق ، أو قوم هود من الريح الصرصر العاتية ، أو قوم صالح من الرجفة.

وما حدث بقوم لوط من العذاب ليس ببعيد زمانا ولا مكانا ، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم ، فاعتبروا بهم.

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .. أي اطلبوا المغفرة من ربكم على سالف الذنوب من

عبادة الأوثان ونجس المكيال والميزان ، ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ، وارجعوا إلى طاعته ، فإن ربي رحيم بمن تاب إليه وأناب ، كثير الود والمحبة ، يحب من تاب ، فهو عظيم الرحمة للتائبين ، كثير المودة فاعل بهم ما يفعل البليغ المودّة بمن يودّه من الإحسان. وهذا دليل على أن الاستغفار والتوبة عن الذنوب يسقطها ، ويكون سببا لخيري الدنيا والآخرة.

وبعد أن فشلت المحاورات والمجادلات ، لجأ القوم إلى الإهانة والتهديد وإلصاق التهم الباطلة بشعيب عليه السّلام ، وعدم المبالاة به.

قالُوا : يا شُعَيْبُ ، ما نَفْقَهُ .. قال أهل مدين : يا شعيب ما نفهم كثيرا من قولك ، مع أنه كما قال الثوري : كان يقال له خطيب الأنبياء ، وأنت واحد ضعيف ، لا حول لك ولا قوة ولا قدرة على شيء من النفع والضر ، ولولا جماعتك وعشيرتك الأقربون ومعزتهم علينا ، لرجمناك بالحجارة ، وليس عندنا لك معزة ولا تكريم ، ولا حرمة ولا منزلة في الصدور. والرهط : من الثلاثة إلى العشرة ، ورهط الرجل :

عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم. والمعنى أنك لما لم تكن علينا عزيزا ، سهل علينا الإقدام على قتلك وإيذائك.

وكل ما ذكروه لا يبطل ما قرره شعيب عليه السّلام من الدلائل ، بل هو مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة.

فوبخهم شعيب على سفاهتهم : قالَ : يا قَوْمِ ، أَرَهْطِي ... أي يا قومي وأهلي ، أرهطي أعز وأكرم عليكم من اللّه ، أتتركوني لأجل قومي ؟

ولا تتركوني لأجل اللّه ، واللّه تعالى أولى أن يتبع أمره ، وقد اتخذتم جانب اللّه وراءكم ظهريا ، أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ، ولا تخافون بأسه وعقابه إن أقدمتم على الإساءة لنبيه ورسوله.

إن ربي محيط علمه بعملكم ، عالم بأحوالكم ، فلا يخفى عليه شيء منها ، وسيجازيكم. وذلك تحذير وتهديد ووعيد.

ج ١٢ ، ص : ١٣١

(١٣٥/١٢)

و لما يئس شعيب عليه السّلام من استجابتهم لدعوته أعلن موقف الحسم والفصل فيما بينه وبينهم :

وَيا قَوْمِ ، اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ .. أي يا قوم اعملوا على طريقتكم ، واعملوا كل ما في وسعكم وطاقتكم على إلحاق الشر بي ، فإني أيضا عامل على طريقتي بما آتاني اللّه من القدرة ، أي أنتم باقون على الكفر والضلال ، وأنا ثابت على الدعوة والثقة بقدرة اللّه تعالى ، وهذا تهديد شديد.

سوف تعلمون من ينزل به عذاب يخزيه ويذله في الدنيا والآخرة ، ومن هو كاذب في قوله مني ومنكم ، وانتظروا ما أقول لكم من إيقاع العذاب ، إني معكم رقيب منتظر. وهذا تصريح منه بالوعيد ، بعد الترك على ما هم عليه.

ثم جاء ما يؤيد صدقه : وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا ... أي ولما جاء أمرنا بعذابهم ، ونفذ قضاؤنا فيهم ، نجينا رسولنا شعيبا والمؤمنين معه ، برحمة خاصة بهم ، وأخذت الظالمين بظلمهم الصيحة : وهي صوت من السماء شديد مهلك مرجف ، وفي سورة الأعراف : هي الرجفة ، وفي الشعراء : عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة ، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، فأصبحوا قعودا ميتين لا يتحركون ، وقد اختلف التعبير في كل سورة بما يناسب الإساءة ، ففي الأعراف هددوا بإخراج شعيب ومن معه من قريتهم ، فذكر هناك الرجفة ، وهنا أساؤوا الأدب في مقالتهم مع نبيهم فذكر الصيحة التي أخمدتهم ، وفي الشعراء طلبوا إسقاط كسف من السماء عليهم ، فأخذهم عذاب يوم الظلة.

كأنهم لم يقيموا في بلادهم طويلا في رغد عيش ، ولم يعيشوا فيها قبل ذلك ، ألا بعدا من رحمة اللّه ،

وهلاكا لهم ، كما بعدت وهلكت من قبلهم ثمود ، وكانوا جيرانهم قريبا منهم في الدار ، وشبيها بهم في الكفر وقطع الطريق ، وكانوا عربا مثلهم.

فكان عذابهم واحدا وهو الصاعقة ذات الصوت الشديد ، التي زلزلت الأرض

ج ١٢ ، ص : ١٣٢

(١٣٦/١٢)

من شدتها ورجفت ، فخروا ميتين. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : لم يعذب اللّه تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح ، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت قصة شعيب مع قومه على ما يأتي ، ومجملة : إيقاع العذاب بعد الإعراض عن رسالة السماء :

١- اشتملت دعوة شعيب على جانبين : إصلاح العقيدة وإصلاح الحياة الاجتماعية ، ففي الجانب الأول : دعاهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، وفي الجانب الثاني : أمرهم بإيفاء الكيل والميزان وترك البخس والنقص أو التطفيف ، فإنهم كانوا مع كفرهم أهل بخس ونقص في حقوق الناس كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام ، أخذوا بكيل زائد ، واستوفوا بغاية ما يقدرون عليه وظلموا وإن جاءهم مشتر للطعام باعوه بكيل ناقص ، وشحوا عليه بما يقدرون ، فأمروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك ، وبالوفاء بالحق التام الكامل نهيا عن التطفيف ، علما بأنهم كانوا بخير وفي سعة من الرزق وكثرة النعم ، لكن الطمع والشره المادي أرادهم وجعل سمعتهم سيئة بين الناس.

٢- كان عذاب أهل مدين عذاب استئصال في الدنيا ، ودمار عام لقوله تعالى : وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وصف اليوم بالإحاطة ، أي الإحاطة بهم ، فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم ، فقد أحاط العذاب بهم ، وهو كقولك : يوم شديد أي شديد حره. وقيل : هو عذاب النار في الآخرة. جاء في الحديث الذي رواه الطبراني عن ابن عباس عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم : « ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ابتلاهم اللّه بالقحط والغلاء » .

ج ١٢ ، ص : ١٣٣

(١٣٧/١٢)

٣- اكتفى شعيب بمرة واحدة بالدعوة إلى توحيد الإله ، ولكنه كرر وأكد النهي عن بخس الحقوق بألوان مختلفة ، فأمر بالإيفاء (أي الإتمام) بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا ، ووصف الإيفاء بالقسط أي بالعدل والحق ، لكي يصل كل ذي حق إلى حقه ، وأراد ألا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود ، وكذا الصّنجات ، ثم عمم بعد التخصيص عن بخس الناس أشياءهم ، أي لا تنقصوهم مما استحقوه شيئا ، ثم نهى عن الإفساد في مصالح الدنيا والآخرة : وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ أي أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض.

وذكر أن البخس بطر وترف وطمع ، فلم يكونوا بحاجة ، وإنما كانوا بخير :

إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ أي سعة في الرزق والمعيشة ، وقال : بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ أي ما يبقيه اللّه لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة ، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبر والظلم. وشرط للاستقامة وجود الإيمان :

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة كون بقية اللّه خيرا إن كانوا مؤمنين.

وجعل رقابة اللّه في السر والعلن على كل تاجر هي الأساس والباعث على الخشية والطاعة وأداء الحقوق : وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أي رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم ، فلا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق.

٤- كانت ردود القوم المحجوجين بالأدلة والبينات في غاية الجهالة والسفاهة ، فأعلنوا تمسكهم بالتقليد في عبادة الأوثان والأصنام ، وادعاء حريتهم التجارية التي لا تقوم على العدل والحق ، وسخروا من صلاته وعبادته التي كان يكثر منها ، ونالوا من صفاته ، فقالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية :

أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ! أي أنت ذو سفاهة

و طيش ، وغواية وضلال ، لا لشيء إلا لأن شعيبا عليه السّلام أمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم!! وإنما أقروا له بذلك لأنه كان مشهورا فيما بين الناس بصفة الحلم والرشد.

٥- كان من قبائحهم قرض الدراهم لتنقيص قدرها ، وكسرها لإفساد وصفها ، قال المفسرون : كان مما ينهاهم عنه ، وعذّبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم ، كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القراضة ، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدّا ، وعلى المقروضة وزنا ، وكانوا يبخسون في الوزن.

وتلك معاص ومفاسد تستحق العقاب ، وتوجب ردّ الشهادة.

٦- حسم شعيب عليه السّلام أطماع الكفار ، سواء في العقيدة أو في صلاح التعامل ، وأعلن ثباته

على مبدئه بقوله : إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ أي ما أريد إلا فعل الصلاح وإزالة الفساد ، وهو أن تصلحوا دنياكم بالعدل ، وآخرتكم بالعبادة ، ولم يتزحزح عن موقفه في توحيد اللّه تعالى : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وثقته به وتفويض أمره إليه ورجوعه إليه في جميع النوائب ، واعتماده في الرشد والتوفيق عليه : وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

وإذا كانت هذه صفاتي فاعلموا أن أمري بالتوحيد وترك إيذاء الناس هو دين حق ، وأن مهمتي هي الإبلاغ والإنذار ، وأما الإجبار على الطاعة فلا أقدر عليه.

ولم يتردد شعيب عليه السّلام لحظة واحدة في إيفاء الحقوق وإتمام الكيل والميزان : وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً أي واسعا حلالا ، وكان شعيب عليه السّلام كثير المال وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ أي ليس

ج ١٢ ، ص : ١٣٥

أنهاكم عن شيء وأرتكبه ، كما لا أترك ما أمرتكم به. وهكذا فإن فعل النبي مطابق لقوله لأنه الأسوة الحسنة ، ولا يعقل غير ذلك.

(١٣٩/١٢)

و الخلاصة : إنه تعالى لما آتاني جميع السعادات الروحانية والجسمانية ، وهي المال والرزق الحسن ، فهل يسعني مع هذا الإنعام العظيم أن أخون في وحيه ، وأن أخالفه في أمره ونهيه.

٧- دلّ قوله : وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً على أن ذلك الرزق إنما حصل من عند اللّه تعالى وبإعانته ، وأنه لا مدخل للكسب فيه ، وفيه تنبيه على أن الإعزاز من اللّه تعالى ، والإذلال من اللّه تعالى ، وإذا كان الكل من اللّه فإن شعيبا أراد القول لهم : فأنا لا أبالي بمخالفتكم ، ولا أفرح بموافقتكم ، وإنما أقرر دين اللّه ، وأوضح شرائعه.

٨- التهديد والإنذار بالعذاب قبل وقوعه رحمة بالناس ولطف بهم ، لعلهم يرعوون ويرجعون من قريب إلى اللّه تعالى وإلى طاعته ، وإلى توحيده ، والتخلص من الشرك والوثنية. وقد أنذر شعيب عليه السّلام قومه أهل مدين بقوله : لا يكسبنكم معاداتي أن يصيبكم عذاب الاستئصال في الدنيا ، مثل ما حصل لقوم نوح عليه السّلام من الغرق ، ولقوم هود من الريح العقيم ، ولقوم صالح من الرجفة ، ولقوم لوط من الخسف ، وكانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط.

٩- الاستغفار والتوبة من الذنوب الماضية والتصميم على عدم العود إلى مثلها في المستقبل طريق النجاة والأمن من العذاب لأن اللّه عظيم الرحمة كثير الودّ والمحبة لعباده لينقذهم من العقاب.

روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال : « ذاك خطيب الأنبياء » .

١٠- بعد أن يئس الكفار أهل مدين من تحقيق مآربهم عن طريق التهكم

ج ١٢ ، ص : ١٣٦

و الاستهزاء والسخرية من شعيب عليه السّلام ، لجؤوا إلى التهديد والوعيد مظهرين أنه ضعيف لا سند له ، وأنهم أعزة أقوياء ، ولولا مجاملة عشيرته لقتلوه رجما بالحجارة ، وما هو بعزيز عليهم ولا كريم ، ولا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع.

(١٤٠/١٢)

و هذا شأن الكفار عادة ، يعتمدون على القوة المادية ، ويهملون النظر إلى تدبير اللّه وقوته وقهره وقدرته ، لذا أراد شعيب أن يلفت نظرهم إلى ضرورة رعاية جانب اللّه تعالى ، وليس مجرد رعاية جانب قومه ، فقال : أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلي إكراما لرهطي ، واللّه تعالى أولى أن يتبع أمره.

١١- قابلهم شعيب عليه السّلام بتهديد ووعيد أشد وآكد وأوقع وأصدق ، وقال لهم : اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ سوف تعلمون الصادق من الكاذب ، وسوف ترون من يأتيه عذاب يخزيه ويهلكه. وانتظروا العذاب والسخط ، فإني منتظر النصر والرحمة.

١٢- كان عذاب أهل مدين كثمود بالصيحة ، قيل : صاح بهم جبريل صيحة ، فخرجت أرواحهم من أجسادهم ، وصاروا ميتين ، كأن لم يعيشوا في دارهم.

١٣- ينضم إلى العذاب الدعاء على الكفار وإعلان الطرد من رحمة اللّه تعالى : أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ أي هلاكا لهم وبعدا عن رحمة اللّه ، كما هلكت قبلهم ثمود ، وبعدت من رحمة اللّه تعالى.

١٤- من فضل اللّه ورحمته أنه نجى شعيبا ومن معه من المؤمنين ، وهو تنبيه على أن كل ما يصل إلى العبد ، لا يكون إلا بفضل اللّه ورحمته ، وأن الخلاص والنجاة والإيمان والطاعة والأعمال الصالحة لا تحصل إلا بتوفيق اللّه تعالى.

ج ١٢ ، ص : ١٣٧

قصة موسى عليه السّلام مع فرعون وملئه [سورة هود (١١) : الآيات ٩٦ الى ٩٩]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

البلاغة :

(١٤١/١٢)

فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ استعارة مكنية ، شبه النار بماء يورد ، وحذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو الورود ، وشبه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ، للري من العطش.
وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ تأكيد لما سبق لأن الورد يكون عادة لتسكين العطش ، وفي النار إلهاب للعطش.
المفردات اللغوية :
بِآياتِنا أي بالمعجزات ، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الإسراء [الآية ١٠١] وسورة النمل [الآية ١٢] والمفصّلة في سورة الأعراف [الآية ١٣٣]. وَسُلْطانٍ مُبِينٍ السلطان : الدلائل والحجج القوية الظاهرة ، والمبين : الظاهر الجلي. والفرق بين هذه الكلمات الثلاث : أن الآيات : اسم للقدر المشترك بين العلامات التي تفيد الظن ، وبين الدلائل التي تفيد اليقين. وأما السلطان : فهو اسم لما يفيد القطع واليقين ، لكنه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التي تؤكد بالحس ، وبين الدلائل التي لم تتأكد بالحس. والسلطان المبين : هو الدليل القاطع الذي تأكد بالحس. ولما كانت معجزات موسى عليه السّلام هكذا ، وصفها اللّه بأنها سلطان مبين.
وَمَلَائِهِ الملأ : أشراف القوم وزعماؤهم. وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ أي وما شأنه وتصرفه بمرشد أو سديد أو بذي رشد وهدى ، وإنما هو غيّ محض وضلال صريح.
ج ١٢ ، ص : ١٣٨

(١٤٢/١٢)

يَقْدُمُ قَوْمَهُ أي يتقدمهم يوم القيامة إلى النار ، كما كان يتقدمهم في الدنيا إلى الضلال ويتبعونه في الحالين ، يقال : قدم بمعنى تقدم. فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ أدخلهم فيها ، ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ، ونزل النار لهم منزلة الماء ، فسمي إتيانها موردا. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ هي ، أي بئس المورد الذي وردوه ، فإن المورد يراد عادة لتبريد الأكباد وتسكين العطش ، والنار بالضد من ذلك. والآية كالدليل على قوله : وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ فإن من هذه عاقبته لم يكن في أمره رشيدا.
وَأُتْبِعُوا ألحقوا فِي هذِهِ الدنيا لَعْنَةً طردا من رحمة اللّه وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أي يلعنون في الدنيا والآخرة بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ أي بئس العون المعان ، أو العطاء المعطى.
والمخصوص بالذم محذوف ، أي رفدهم وهو اللعنة في الدارين.
المناسبة :
هذه هي القصة السابعة من القصص التي ذكرها اللّه تعالى في هذه السورة ، وهي آخر قصة في هذه السورة ، وقد ذكرت قصة موسى عليه السّلام مع فرعون وملئه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ،

فذكرت في سورة الأعراف [١٠٤- ١٠٥] وفي سورة الشعراء [١٧- ٢٨] وفي سورة طه [٤٨- ٥٥] وفي سورة القصص [٣٨] وفي سورة غافر [٣٦- ٣٧].

والعبرة منها واضحة وهي نجاة موسى ومن آمن معه ، وهلاك فرعون وأشراف قومه ، واللعنة عليهم في الدنيا والآخرة ، مثل كفار أولئك الأقوام الظالمين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائهم ، كما تقدم ، ولكن عذاب فرعون وملئه وهو الغرق في البحر لم يعمّ جميع قومه.

التفسير والبيان :

تاللّه لقد أرسلنا موسى بآياتنا التسع ودلالاتنا الباهرة الدالة على توحيد اللّه إلى فرعون ملك القبط وملئه ، وفيها السلطان الواضح الجلي أي الدلالة القاطعة المؤيدة بالحس المشاهد ، على صدق نبوته.

ج ١٢ ، ص : ١٣٩

(١٤٣/١٢)

و قيل : المراد من الآيات : التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام.

وقيل : المراد بها الآيات التسع البينات وهي المعجزات ، وهي العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونقص من الثمرات والأنفس. ومنهم من أبدل بنقص الثمرات والأنفس إضلال الجبل ، وفلق البحر.

وفي هذه الآيات سلطان مبين لموسى على صدق نبوته.

فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ أي تبع الملأ منهج فرعون ومسلكه وطريقته في الغيّ والضلال ، من الكفر بموسى ، وظلم بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم. وإنما خصّ الملأ بالذكر لأنهم القادة والرؤساء المستشارون والمنفذون وغيرهم تبع لهم.

وَما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ أي وما شأنه وتصرفه ومنهجه بصالح معقول ، فليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال ، وكفر وعناد ، وظلم وفساد وجزاؤهم في الآخرة : يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ أي يتقدم فرعون كبير قومه وقائدهم إلى نار جهنم يوم القيامة ، فيدخلهم فيها لأنه كما اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدم يوم القيامة إلى النار ، فأوردهم إياها ، وله فيها الحظ الأوفر من العذاب الأكبر ، كما قال تعالى :

فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ، فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا [المزمل ٧٣/ ١٦] وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة ، كما قال تعالى : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ [الأعراف ٧/ ٣٨] وأخبر تعالى عن الكفرة أنهم يقولون في النار : رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً [الأحزاب ٣٣/ ٦٨]

و روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار » .

(١٢/١٤٤)

و ورد في القرآن أن آل فرعون يعرضون على النار منذ ماتوا صباحا ومساء

ج ١٢ ، ص : ١٤٠

كل يوم ، كما قال تعالى : وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ [غافر ٤٠/ ٤٥- ٤٦].

وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ أي وبئس المورد الذي يردونه النار وبئس المدخل المدخول فيه وهو النار لأن وارد الماء يرده للتبريد وإطفاء حرّ الظمأ ، ووارد النار يزداد احتراقا بلهبها ويتلظى بسعيرها. والورد قد يكون بمعنى الورود مصدرا ، وقد يكون بمعنى الوارد ، والمورود : الماء الذي يورد ، والموضع الذي يورد.

وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أي ألحق اللّه بهم زيادة على عذاب النار لعنة عظيمة في الدنيا من الأمم الآتية بعدهم ، وكذلك يوم القيامة يلعنهم أهل الموقف جميعا ، وهم من المقبوحين ، فعليهم لعنتان في الدنيا والآخرة فوق عذابهم ، كما قال تعالى : وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ [القصص ٢٨/ ٤٢] قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة ، فتلك لعنتان.

بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ أي بئس العون المعان والعطاء المعطى هذه اللعنة اللاحقة بهم في الدنيا والآخرة ، فقد سميت اللعنات رفدا تهكما بهم ، والرفد : هو العطية. قال ابن عباس عن هذه الجملة : هو اللعنة بعد اللعنة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات المذكورة من قصة موسى مع فرعون وقومه إلى العظات التالية :

(١٢/١٤٥)

١- تتابعت آيات اللّه من التوراة وما فيها من شرائع وأحكام ، ومن المعجزات الدالة على وحدانية اللّه تعالى ، إلى فرعون وقومه ، فما أفادتهم الآيات ، وعصوها ، واتبعوا منهج فرعون ومسلكه في الغي والضلال.

ج ١٢ ، ص : ١٤١

٢- ليس مسلك فرعون وغيره من الفراعنة المتألهين بسديد يؤدي إلى الصواب ، ولا بمرشد إلى خير ،

وإنما هو غيّ وضلال ، وكفر وفساد.

٣- كل قائد إلى الضلال في الدنيا قائد إلى النار يوم القيامة ، وله عذاب مضاعف.

٤- لفرعون وآله فوق عذاب جهنم لعنتان : في الدنيا والآخرة ، وهم معذبون في قبورهم عذابا شديدا ، ويعرضون فيها على النار صباحا ومساء.

٥- بئست عاقبة الكافرين ، وبئس العطاء المعطى لهم وهو نار جهنم ، الموصوفة في قوله تعالى : فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ، وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ، كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ [الحج ٢٢/ ١٩- ٢٢].

العبرة من قصص الأمم الظالمة في الدنيا [سورة هود (١١) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)

الإعراب :

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ مبتدأ وخبر ، أو على إضمار مبتدأ أي الأمر ذلك ، وذلك : يشار به إلى الواحد والاثنين والجماعة. نَقُصُّهُ عَلَيْكَ خبر بعد خبر ، أي ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك.

مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ جملة مستأنفة لا محل لها ، أي بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزرع القائم على ساقه والذي حصد.

ج ١٢ ، ص : ١٤٢

وَ هِيَ ظالِمَةٌ حال من القرى.

البلاغة :

مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ استعارة مكنية ، شبه الباقي من آثار القرى بعد تدميرها بالزرع القائم على ساقه ، وشبه ما دمّر مع أهله بالزرع المحصود.

وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بينهما طباق السلب.

إِذا أَخَذَ الْقُرى مجاز مرسل ، أطلق المحل وأراد الحالّ وهو أهل القرى.

المفردات اللغوية :

ذلِكَ النبأ المذكور سابقا. مِنْ أَنْباءِ الْقُرى المهلكة. نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مقصوص عليك يا محمد. مِنْها أي من

تلك القرى. قائِمٌ باق كالزرع القائم ، وهلك أهله دونه.
وَحَصِيدٌ أي ومن القرى زال أثره وهلك بأهله ، فلا أثر له كالزرع المحصود بالمناجل.
وَما ظَلَمْناهُمْ بإهلاكهم بغير ذنب. وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالشرك الذي عرضوها به للعذاب. فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ فما نفعتهم ولا قدرت أن تدفع عنهم ، بل ضرتهم. آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ التي يعبدون. مِنْ دُونِ اللَّهِ أي غيره. مِنْ شَيْءٍ من صلة زائدة. لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ حين جاءهم عذابه ونقمته. وَما زادُوهُمْ بعبادتهم لها. غَيْرَ تَتْبِيبٍ غير هلاك أو تخسير.
وَكَذلِكَ ومثل ذلك الأخذ. إذا أَخَذَ الْقُرى أي أهلها. وَهِيَ ظالِمَةٌ بالذنوب ، فلا يغني عنهم من أخذهم شي. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ووجيع غير مرجوّ الخلاص منه ، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.
المناسبة :

(١٤٧/١٢)

المناسبة ظاهرة بين هذه الآيات وما قبلها من الآيات ، فبعد أن ذكر اللّه تعالى قصص الأنبياء مع الأمم السابقة (و هي سبع قصة نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى عليه السّلام) قال منبها إلى ما فيها من العظة والعبرة : ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ.
فيتعلم منها الإنسان أسلوب الجدال ومقارعة الحجة بالحجة ، وتأييد الأدلة
ج ١٢ ، ص : ١٤٣
العقلية بالقصص الواقعية ، ويتهيأ السامع والقارئ للاستفادة من عبرها وعظاتها ، فيلين قلبه ، وترق نفسه ، وتخشع جوارحه لذكر اللّه ويرهب عذابه للعصاة ، ويعلم أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل فيها ، والثواب الجزيل في الآخرة ، وأن الكافر يخرج من الدنيا مع اللعن فيها ، والعقاب في الآخرة.
وهي دليل على صدق نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، لإخباره عن تلك القصص من غير مطالعة كتب ، ولا مدارسة مع معلم ، ولا تلمذة لأحد ، وهي معجزة عظيمة تدل على النبوة ، كما قال تعالى : ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ، وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ .. [يوسف ١٢/ ١١١] « ١ » .
التفسير والبيان :
لما أخبر اللّه تعالى عن الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ، وكيف أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين قال : ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى أي ذلك النبأ المذكور بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك يا محمد ، لتخبر به الناس ، ويتلوه المؤمنون إلى يوم القيامة تبليغا عنك. وقوله ذلِكَ إشارة إلى الغائب ، والمراد به هنا الإشارة إلى القصص المتقدمة ، وهي حاضرة ، كما في قوله : ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ [البقرة ٢/

.[٢]

من تلك القرى ما له أثر باق كالزرع القائم على ساقه ، كقوم صالح ، ومنها ما عفا أثره ودرس حتى لم يعد له أثر كالزرع المحصود ، مثل قرى قوم لوط.

و ما ظلمناهم بإهلاكهم من غير ذنب ، ولكن ظلموا أنفسهم بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ، وشركهم وإفسادهم في الأرض ، وثقتهم أن آلهتهم المزعومة تدفع عنهم

---

(١) تفسير الرازي : ١٨/ ٥٥ [.....]

ج ١٢ ، ص : ١٤٤

المخاوف والمخاطر والمحاذير. فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ .. فما نفعتهم شيئا ولا دفعت عنهم بأس اللّه ، بل ضرتهم أوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها من دون اللّه أو غيره ، فما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم. وفي قوله تعالى : الَّتِي يَدْعُونَ حذف ، أي التي كانوا يدعون أي يعبدون. وقوله : وَما زادُوهُمْ فيه إضمار ومضاف محذوف أي ما زادتهم عبادة الأصنام.

وما زادوهم غير تخسير وهلاك لأن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فخسروا الدنيا والآخرة.

ومثل ذلك الأخذ بالعذاب ، وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا ، كذلك نفعل بأشباههم ، فنأخذ القرى ونهلكها وهي في حالة الظلم الشديد ، إن أخذه وجيع شديد لا يرجى منه الخلاص.

وهو إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظلم. وفي قوله : وَهِيَ ظالِمَةٌ مضاف محذوف أي وأهلها ظالمون ، مثل وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ [يوسف ١٢/ ٨٢]. ومعنى : إن أخذه أليم شديد أي عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة.

ورد في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « إن اللّه ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه ، لم يفلته ، ثم قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ الآية » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- فائدة القصص القرآني العظة والاعتبار ، فإن كل من يشاهد آثار تلك القرى المهلكة ، أو يعلم بما حدث لها من غير وجود أثر ظاهر ، يأخذه الخوف والوجل والرهبة ، ويخشى أن يتعرض لما تعرض له الأقدمون من عذاب مخيف.

ج ١٢ ، ص : ١٤٥

٢- إن اللّه تعالى كما أخذ الأمم المتقدمة كقوم نوح ، وعاد وثمود ، يأخذ جميع الظالمين على النحو ذاته ، كما أفاده قوله : وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ... ثم زاده تأكيدا وتقوية بقوله : إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ فوصف العذاب بالإيلام والشدة ، والألم وشدته سبب المنغصة في الدنيا والآخرة. والآية تفيد أن كل من شارك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي ، فلا بد وأن يشاركهم في الأخذ الأليم ٣- لم يكن عقاب تلك الأمم الظالمة إلا بما بدر منهم من ظلم وهو الكفر والمعاصي ، وكان عقابهم عدلا وحكمة.

٤- كل من أقدم على ظلم ، يجب عليه أن يتدارك ظلمه بالتوبة والإنابة ، لئلا يقع في الأخذ الذي وصفه اللّه تعالى بأنه أليم شديد.

٥- لم تنفع المشركين والكافرين آلهتهم المزعومة بل أضرت بهم ، وما زادتهم عبادة الأصنام إلا خسارة ثواب الآخرة.

العبرة في قصص القرآن بجزاء الآخرة [سورة هود (١١) : الآيات ١٠٣ الى ١٠٩]

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (١٠٧)

وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)

ج ١٢ ، ص : ١٤٦

الإعراب :

مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ مَجْمُوعٌ خبر المبتدأ أو نعت ليوم ، وقوله : ذلِكَ يَوْمٌ مبتدأ وخبر ، والنَّاسُ مرفوع لمجموع ، أي يجمع له الناس ، لأن اسم المفعول بمنزلة اسم الفاعل في العمل لشبه الفعل.

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ ابتداء وخبر.

يَوْمَ يَأْتِ فيه ضمير يعود إلى قوله : يَوْمٌ مَشْهُودٌ. ولا تَكَلَّمُ إما صفة ليوم ، أي يوم يأتي لا تكلّم نفس فيه ، كقوله تعالى : يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ [البقرة ٢/ ٤٨] أي فيه ، وإما حال من ضمير يَأْتِ أي يوم يأتي اليوم المشهود غير متكلم فيه نفس ، وتكلم : حذف منه إحدى التاءين. ويوم : منصوب بما دل عليه قوله تعالى : فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ أي شقي حينئذ من شقي ، وسعد من سعد.

ما دامَتِ السَّماواتُ .. ما ظرفية زمانية مصدرية في موضع نصب ، تقديره : مدة دوام السموات والأرض.

إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ما في موضع نصب لأنه استثناء منقطع.

عَطاءً .. منصوب على المصدر المؤكد ، أي أعطوا عطاء ، أو منصوب على الحال من الْجَنَّةِ.

غَيْرَ مَنْقُوصٍ حال من النصيب.

البلاغة :

شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ بينهما طباق.

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فيه لف ونشر مرتب.

المفردات اللغوية :

إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور من القصص أو ما نزل بالأمم الهالكة. لَآيَةً لعبرة لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ أي يعتبر بتلك القصص من خاف العذاب الأخروي ، لعلمه بأن ما نزل بتلك الأقوام أنموذج مما أعد اللّه للمجرمين في الآخرة. ذلِكَ يَوْمٌ أي يوم القيامة ، دل عليه عذاب الآخرة. يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ أي يجمع له الناس ، واستعمل صيغة مَجْمُوعٌ للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه من شأنه لا محالة ، وأن الناس لا ينفكون عنه ، فهو أبلغ من قوله :

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ [التغابن ٦٤/ ٩] ومعنى الجمع له : الجمع لما فيه من الحساب والجزاء.

ج ١٢ ، ص : ١٤٧

وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ يشهده جميع الخلائق ، والمعنى الأدق : مشهود فيه أهل السموات والأرضين ، ولو جعل اليوم مشهودا في نفسه ، لبطل المقصود من تعظيم اليوم وتمييزه ، فإن سائر الأيام كذلك.

وَما نُؤَخِّرُهُ أي اليوم. إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أي لوقت معلوم عند اللّه ، فهو على حذف مضاف ، أي إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية. يَوْمَ يَأْتِ ذلك اليوم والجزاء. إِلَّا بِإِذْنِهِ بإذن اللّه تعالى. فَمِنْهُمْ أي من الخلق أهل الموقف. شَقِيٌّ وجبت له النار بمقتضى الوعيد ، فالشقي : من استحق النار لإساءته. وَسَعِيدٌ وجبت له الجنة ، بموجب الوعد ، والسعيد : من استحق الجنة لعمله مع فضل اللّه ورحمته فَأَمَّا الَّذِينَ

شَقُوا في علم اللّه تعالى.
زَفِيرٌ صوت شديد. وَشَهِيقٌ صوت ضعيف ، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم.
وأصل الزفير : إخراج النّفس ، الشهيق : إدخال النفس مع السرعة والجهد.
خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أي مدة دوامهما في الدنيا ، وليس المراد ارتباط دوامهم في النار بدوام السموات والأرض ، فإن النصوص دالة على تأبيد دوامهم ، وانقطاع دوامهما.

(١٥٢/١٢)

و المقصود التعبير عن التأبيد بما كانت العرب يعبرون به على سبيل التمثيل. والمفهوم لا يقاوم المنطوق. إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ غير ما شاء اللّه من الزيادة على مدتها ، مما لا منتهى له ، والمعنى : خالدين فيها أبدا. أو أن هذا استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فسّاق الموحدين يخرجون منها.
والخلاصة : إن خلود أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ثابت بنصوص القرآن العديدة ، وأما الاستثناء بالمشيئة هنا ، فيراد به الدلالة على الثبوت والاستمرار ، وعبر بذلك لبيان أن هذه القضايا بمشيئة اللّه تعالى إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ أي من غير اعتراض أحد.
عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ غير مقطوع ، وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع.
فَلا تَكُ يا محمد. فِي مِرْيَةٍ شك. مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ من الأصنام ، إنا نعذبهم ، كما عذبنا من قبلهم ، وهذا تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلّم. كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ أي كعبادتهم ، والاستثناء بقوله : إِلَّا كَما يَعْبُدُ معناه تعليل النهي عن المرية ، أي هم وآباؤهم سواء في الشرك. نَصِيبَهُمْ حظهم من العذاب. غَيْرَ مَنْقُوصٍ أي تاما.
المناسبة :
الآيات متصلة بما قبلها من أجل بيان العبرة من قصص الأمم الظالمة ، فبعد أن ذكر اللّه تعالى العبرة من إهلاك الأمم الظالمة في الدنيا ، ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسعداء ، وهي إقامة الدليل على صدق الأنبياء وصدق
ج ١٢ ، ص : ١٤٨
وعد اللّه في الآخرة ، والترهيب من عصيان اللّه والكفر به ، لئلا يكون الإنسان من الأشقياء الذين يصلون النار ، والترغيب بالإيمان وطاعة اللّه ليصير المؤمن الطائع مع السعداء الذين يتمتعون بالجنة.
التفسير والبيان :

(١٥٣/١٢)

إن في ذلك القصص المتقدم المتضمن إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين لدليلا واضحا وحجة قوية على صدق وعد اللّه في الآخرة ، لمن يؤمن بها ويخاف عذابها ، فيتقي الكفر والظلم والعصيان في الدنيا لأنه يعلم أن ما أخبر به الأنبياء من البعث والجزاء صدق لا شك فيه ، وأن من عذب الظالمين في الدنيا قادر أن يعذبهم في الآخرة ، وأن ما أصاب المجرمين في الدنيا ما هو إلا أنموذج لعذاب الآخرة.

قال الزمخشري : قوله : إِنَّ فِي ذلِكَ إشارة إلى ما قص اللّه من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم وقوله : لَآيَةً أي لعبرة لمن خاف عذاب الآخرة لأنه ينظر إلى ما أحل اللّه بالمجرمين في الدنيا ، وما هو إلا أنموذج مما أعدّ لهم في الآخرة ، فإذا رأى عظمه وشدته ، اعتبر به عظم العذاب الموعود ، فيكون له عبرة وعظة ولطفا في زيادة التقوى والخشية من اللّه تعالى ، ونحوه : إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى [النازعات ٧٩/ ٢٦] « ١ » .

ذلك اليوم يوم عذاب الآخرة يجمع فيه الناس جميعا أولهم عن آخرهم ، ليحاسبوا على أعمالهم ، ثم يجازوا عليها ، كقوله تعالى : وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً [الكهف ١٨/ ٤٧] وذلك يوم مشهود ، أي عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها.

---

(١) الكشاف : ٢/ ١١٥

و التصرف في الخلائق ، سواء في الدنيا بإهلاك تلك الأمم وأمثالها ، أو في الآخرة ، إنما هو بإرادة اللّه واختياره لتربية الأمم ، لا بالطبيعة كما يزعم الماديون الذين قالوا : إن الطوفان أو الغرق ، والصاعقة ، وخسف الأرض أو الزلازل أمور طبيعية غير إلهية. وأبسط رد عليهم أن تلك العقوبات حدثت بعد إنذار الرسل لأقوامهم ، وحددوا لهم وقتا معلوما ، كما قال صالح عليه السّلام : تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ [هود ١١/ ٦٥] وقال لوط : إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ [هود ١١/ ٨١].

ثم أخبر اللّه تعالى عن تأخير يوم القيامة وعذابه إلى أجل معين : وَما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أي ما نؤخر إقامة القيامة إلا لانتهاء مدة محدودة في علمنا ، لا يزاد عليها ولا ينقص منها ، وهي عمر الدنيا ، لإعطاء الفرصة الكافية للناس لإصلاح أعمالهم ، وتصحيح عقيدتهم ، كقوله تعالى : وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا ، لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ، لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا

[الكهف ١٨/ ٥٨].

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ .. أي يوم يأتي يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن اللّه تعالى ، فهو صاحب الأمر والنهي ، ولا يملك أحد فيه قولا ولا فعلا إلا بإذنه ، كقوله تعالى : يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا ، لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ ، وَقالَ صَواباً [النبأ ٧٨/ ٣٨] وقوله سبحانه : يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ ، فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً [طه ٢٠/ ١٠٨].

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ .. أي فمن أهل الجمع من الناس في ذلك اليوم شقي معذّب لكفره وعصيانه ، ومنهم سعيد منعّم في الجنان لإيمانه واستقامته ، كما أخبر تعالى :

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ [الشورى ٤٢/ ٧] فمن أريد له الشر فعمل

الشر فهو من أهل الشقاوة ، ومن أريد له الخير فعمل الخير ، فهو من أهل السعادة ، وكل ميسر لما خلق له.

روى الترمذي والحافظ أبو يعلى في مسنده عن عمر قال : لما نزلت :

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ سألت النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقلت : يا رسول اللّه ، علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه ، أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال : « على شيء قد فرغ منه يا عمر ، وجرت به الأقلام ، ولكن كل ميسّر لما خلق له ، وقرأ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى [الليل ٩٢/ ٥- ١٠].

ثم بيّن اللّه تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال عن الفريق الأول :

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا .. أي فأما الأشقياء فهم في جهنم مستقرهم ومثواهم ، بسبب اعتقادهم الفاسد وعملهم السيء ، لهم من الهم والكرب وضيق الصدر زفير وشهيق ، تنفسهم زفير ، وإخراجهم النّفس ، وشهيق ، لما هم فيه من العذاب ، كما ذكر ابن كثير ، مع أن الزفير في العادة هو إخراج النّفس ، والشهيق : ردّه.

خالِدِينَ فِيها .. أي ماكثين فيها على الدوام ، مدة بقاء السموات والأرض ، والمراد التأبيد ونفي الانقطاع ، على سبيل التمثيل وقول العرب :

أفعل كذا أو لا أفعله ما أقام ثبير ، وما لاح كوكب ، وما تغنّت حمامة. ويجوز أن يكون المراد سماء الآخرة وأرضها ، وهي دائمة مخلوقة للأبد ، والدليل على أن للآخرة سموات (ما هو فوق الخلائق)

وأرض (ما هم مستقرون عليه) وقوله :
تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ [إبراهيم ١٤/ ٤٨] وقوله :

(١٥٦/١٢)

وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ [الزمر ٣٩/ ٧٤] ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلّهم ويظلهم ، وكل ما أظلك فهو سماء. قال ابن عباس : لكل جنة أرض وسماء.
ج ١٢ ، ص : ١٥١
إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ يراد بهذا الاستثناء الدلالة على الثبوت والاستمرار لأنه ثبت خلود أهل الجنة والنار فيهما إلى الأبد من غير استثناء ، والمقصود بذلك بيان أن الخلود بمشيئة اللّه تعالى ، ولا يخرج شيء في الدنيا والآخرة عن المشيئة الإلهية. وهو كقوله تعالى : النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعام ٦/ ١٢٨] وقوله : قُلْ : لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ [الأعراف ٧/ ١٨٨] وقوله : سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ [الأعلى ٨٧/ ٦- ٧] والمراد بذلك كله تقييد الأحكام بمشيئة اللّه تعالى فقط ، لا لإفادة عدم عمومها.
وهذا هو الظاهر الراجح. قال ابن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدا قالت : هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليل والنهار.
وللعلماء المفسرين أحد عشر قولا ذكرها القرطبي « ١ » ، قال الزمخشري : هو استثناء من الخلود في عذاب النار ، ومن الخلود في نعيم الجنة ، وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده ، بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار ، بما هو أغلظ منها كلها ، وهو سخط اللّه عليهم وإهانته إياهم. وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها ، وأجلّ موقعا منهم وهو رضوان اللّه ، ولهم ما يتفضل اللّه به عليهم سوى ثواب الجنة ، مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله : عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ « ٢ » .

(١٥٧/١٢)

أي أنهم خالدون في كل من الجنة والنار إلا ما شاء ربك من تغيير هذا

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ٩٩ وما بعدها ، تفسير الرازي : ١٨/ ٦٥ وما بعدها.
(٢) الكشاف : ٢/ ١١٦

ج ١٢ ، ص : ١٥٢

النظام المعدّ ، أو الإضافة أو النقص منه ، ويكون المراد أن كل شيء في قبضته وتحت تصرفه ، إن شاء أبقاه وإن شاء منعه.

وقال أبو حيان : والظاهر أن قوله إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ استثناء من الزمان الدال عليه قوله : خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ والمعنى إلا الزمان الذي شاءه اللّه تعالى ، فلا يكون في النار ولا في الجنة ، ويمكن أن يكون هذا الزمان المستثنى هو الزمان الذي يفصل اللّه بين الخلق يوم القيامة ، إذا كان الاستثناء من الكون في النار والجنة لأنه زمان يخلو فيه الشقي والسعيد من دخول النار أو الجنة.

وأما إن كان الاستثناء من الخلود ، فيمكن ذلك بالنسبة إلى أهل النار ، ويكون الزمان المستثنى هو الزمان الذي فات أهل النار العصاة من المؤمنين الذين يخرجون من النار ، ويدخلون الجنة ، فليسوا خالدين في النار إذ قد أخرجوا منها ، وصاروا في الجنة. وأما بالنسبة إلى أهل الجنة فلا يتأتى منهم ما تأتى في أهل النار إذ ليس منهم من يدخل الجنة ، ثم لا يخلد فيها « ١ » .

إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ أي يفعل ما يشاء ، على وفق علمه ومقتضى حكمته ، فهو يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له.

(١٥٨/١٢)

ثم ذكر اللّه تعالى جزاء الفريق الثاني وهم السعداء : وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا أي وأما أهل السعادة وهم أتباع الرسل ، فمأواهم الجنة ، خالدين فيها ، أي ماكثين فيها أبدا ، مدة دوام السماء والأرض ، بمشيئة اللّه تعالى ، عطاء غير منقطع ولا ممنوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية ، كقوله تعالى : لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [الانشقاق ٨٤/ ٢٥].

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ٢٦٣

ج ١٢ ، ص : ١٥٣

قال ابن كثير : معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة اللّه تعالى ، فله المنة عليهم دائما ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد ، كما يلهمون النّفس »

.

فكل من جزائي أهل النار وأهل الجنة دائم بمشيئة اللّه تعالى ، فعذاب أهل النار في النار دائما مردود إلى مشيئته تعالى ، وأنه بعدله وحكمته موافق لأعمالهم ، وثواب أهل الجنة في الجنة بحسب مشيئته

تعالى أيضا جزاء بما كانوا يعملون ، إلا أنه تعالى أورد فرقا في ختام آية كل من الفريقين ، فقال عقب بيان حال الأشقياء : إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ كما قال : لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ [الأنبياء ٢١/ ٢٣] وقال عقب بيان حال السعداء : عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ لتطييب القلوب ، والإشارة إلى أن جزاء المؤمنين هبة منه تعالى وإحسان دائم ،

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم فيما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟

قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمته » .

وجاء في الصحيحين : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت »

و

في الصحيح أيضا : « فيقال : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تيأسوا أبدا » .

وبعد ذكر أحوال الأشقياء والسعداء ، أنذر اللّه تعالى أعداء النبي صلى اللّه عليه وسلّم بتعذيبهم كما عذب الأمم المهلكة المتقدمة ، فقال : فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ أي إذا علمت يا محمد كل ما ذكر ، وعرفت سنة اللّه في عباده ، فلا تك في شك في عاقبة

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٦٠

ما يعبد المشركون ، وفي نهايتهم ، فكل ما يعبدون باطل وجهل وضلال ، وعذابهم محقق لا شك فيه ، وفي هذا تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلّم ووعيد لقومه.

إنهم يعبدون الأوثان والأصنام مثلما يعبد آباؤهم ، فهم مثلهم في الجهل ، وهم مقلدون لهم ، فليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات ، وسيجزيهم اللّه على ذلك أتم الجزاء ، فيعذبهم عذابا لا يعذبه أحدا ، أما حسنات أعمالهم في الدنيا فقد وفاهم اللّه إياها في الدنيا قبل الآخرة تماما غير منقوص ، فإذا كانوا محسنين فيها كبّر الوالدين وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الفقراء ، وفعل الخير ، فإن اللّه تعالى يوفيهم جزاءهم عليها في الدنيا بسعة الرزق والصحة ، والسرور ، ودفع الضرر ، وهو جزاء عاجل زائل ، وتمام غير نقص بمقتضى العدل الإلهي ، فلا يغترن أحد بما يراه في الكفار

أحيانا من نعمة ورخاء في الدنيا ، فإن لهم الدنيا فقط ، ويحرمون من نعيم الآخرة ، وليس لهم فيها إلا العذاب الشديد بسبب كفرهم باللّه تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

(١٢/١٦٠)

١- الأنبياء على صدق تام فيما أخبروا به من أخبار الماضين ، ومغيبات المستقبل ، سواء في عالم الدنيا ، أو في عالم الآخرة ، من وقوع العذاب والعقاب ، والحشر والحساب : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ أي لعبرة وموعظة لمن يخشى عذاب القيامة. وقوله : مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ يدل على إثبات الحشر ، فالجمع : الحشر ، أي يحشرون ليوم القيامة. وهو يوم يشهده البر والفاجر ، ويشهده أهل السماء.

٢- البعث حق ، ولكن اقتضت حكمة اللّه تأخير يومه لأجل معلوم معدود سبق به قضاؤه.

ج ١٢ ، ص : ١٥٥

٣- السلطان المطلق في يوم القيامة للّه عز وجل ، فلا يتكلم فيه أحد بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه تعالى. قال قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف ، في بعضها يمنعون من الكلام ، وفي بعضها يطلق لهم الكلام. وهذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه.

٤- الناس يوم القيامة صنفان : شقي وسعيد ، الأشقياء في النار ، والسعداء في الجنة ، وكلاهما خالد مخلد فيما هم فيه ، من العذاب أو الثواب ، بمشيئة اللّه وإرادته.

وهذا الحكم من اللّه لا يتغير ولا يتبدل ، فمن حكم اللّه عليه بحكم ، وعلم منه عمله وأمره ، امتنع أن يصير بخلافه ، وإلا لزم أن يصير خبر اللّه تعالى كذبا ، وعلمه جهلا ، وذلك محال ، فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيا ، وأن الشقي لا ينقلب سعيدا.

(١٢/١٦١)

٥- اتفق الجمهور الأعظم من الأمة على أن عذاب الكافر دائم لأن الخلود المذكور في الآية المرتبط بدوام السموات والأرض يقصد به الدوام ، على نحو تعبير العرب الذين يعبرون عن الدوام والأبد بقولهم : ما دامت السموات والأرض ، وقولهم : ما اختلف الليل والنهار ، وما طما البحر ، وما أقام الجبل. أو أن المراد سموات الآخرة وأرضها ، وفي الآخرة سماء وأرض ، بدليل قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ

الْأَرْضِ ، وَالسَّماواتُ [إبراهيم ١٤/ ٤٨] وقوله : وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ [الزمر ٣٦/ ٧٤] وأيضا لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم ، وذلك هو الأرض والسموات.

٦- قوله تعالى : إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ يدل على أن خلود أهل النار فيها وخلود أهل الجنة فيها حاصل بمشيئة اللّه تعالى ، ولا يخرج شيء في الدنيا والآخرة عن المشيئة الإلهية ، والمراد بالآية الدلالة على الثبوت والاستمرار. واستدل الرازي

ج ١٢ ، ص : ١٥٦

بالآية على أنه تعالى يخرج الفساق المؤمنين من أهل الصلاة من النار ، وهو المراد بهذا الاستثناء في ترجيحه المشابه له ترجيح أبي حيان ، فالآية استثناء من الخلود ، وهي في الذين زال حكم الخلود عنهم وهم عصاة المؤمنين.

وأما الاستثناء بالنسبة لأهل السعادة فيراد به في وجه ذكره الرازي رفع المنازل ، فقد يرفع اللّه من الجنة إلى العرش ، وإلى المنازل الرفيعة التي لا يعلمها إلا اللّه تعالى ، قال سبحانه : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، خالِدِينَ فِيها ، وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ [التوبة ٩/ ٧٢].

(١٢/١٦٢)

٧- نعيم أهل الجنة دائم غير منقطع ولا ممنوع ، لقوله تعالى : عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ وقوله : لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ [الواقعة ٥٦/ ٣٣].

٨- إن عبادة المشركين أوثانهم وأصنامهم لا دليل عليها من العقل والمنطق ، وإنما صادرة عن محض الجهل وتقليد الآباء والأسلاف ، كما قال تعالى : فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ .. الآية ، أي فلا تك في شك من حال ما يعبدون في أنها لا تضر ولا تنفع ، وأن اللّه عز وجل ما أمرهم بعبادتها ، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليدا لهم.

٩- اللّه تعالى عادل أيضا في حق الكفار ، فيوفيهم ثواب أعمالهم الحسنة ، في الدنيا ، ولا يكون لهم ثواب عليها في الآخرة لأن قبول الأعمال حينئذ منوط بالإيمان ، ولقوله تعالى : وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ أي أنهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق فإنا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية. ويحتمل أن يكون المراد : ما وعدوا به من خير أو شر ، كما قال ابن عباس رضي اللّه عنهما ، ويحتمل أيضا إرادة أنه يوفيهم نصيبهم من العذاب ، وربما كان الكل مرادا.

ج ١٢ ، ص : ١٥٧

أهداف القصة في القرآن :

قد يتكرر إيراد القصة الواحدة في القرآن بأساليب مختلفة ، لمناسبات متعددة ، وتأثير نفسي متفاوت ، وإيحاء متنوع الهدف. ويظهر لنا من بيان قصص الأمم السابقة في هذه السورة وغيرها من السور المكية غالبا أنها تهدف إلى تحقيق أغراض معينة أهمها ما يأتي :

١- الإخبار عن تواريخ بعض الأمم الماضية ، وإلقاء الأضواء على حوادث غيبية مهمة جدا ، لم يكن يدري بها النبي صلى اللّه عليه وسلّم ولا أحد من قومه ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ، وَهُمْ يَمْكُرُونَ [يوسف ١٢/ ١٠٢] ، فيكون ذلك دليلا على صدق نبوته ، وأن هذا القرآن من عند اللّه ، وليس افتراء منه ، كما زعم المشركون إذ قالوا كما حكى القرآن الكريم : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ ، وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً. وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ « ١ » اكْتَتَبَها ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً [الفرقان ٢٥/ ٤- ٦].

٢- إخبار الناس جميعا عن جهود الأنبياء والرسل في سبيل نشر دعوتهم ، وصراعهم مع أقوامهم ، ومجادلاتهم ومناقشاتهم السديدة المتنوعة لإظهار الحق وإبطال الباطل ، ومدى استجابة أقوامهم لهم وإعراضهم عنهم ، وتسلية لنبيا صلى اللّه عليه وسلّم عما كان يؤلمه من صدود الناس عن الإيمان برسالته ، كما قال تعالى : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ ، وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ [هود ١١/ ١٢٠] وفيها بيان كونهم الأسوة الحسنة للجهاد والصبر

---

(١) أساطير الأولين : القصص والأكاذيب القديمة ، وكانت العرب لجهلها تزعم ذلك.

الشديد على الدعوة : فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ [الأحقاف ٤٦/ ٣٥].

٣- إظهار كون الأنبياء متفقين في أصول رسالتهم ، وتأييد بعضهم بعضا في الدعوة إلى توحيد اللّه ، والإيمان بالبعث والجزاء واليوم الآخر ، وتبيان أصول الخير المشترك من الفضائل والأخلاق والقيم العليا : لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ، ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ، وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [يوسف ١٢/ ١١١].

٤- القصة عنصر مشوق ، جذاب محبب ، مرغوب فيه في التربية والتعليم وإثبات البراهين العقلية بالوقائع الحسية ، لا يختلف في التأثير بأسلوبها وحكاية عناصرها الكبار والشباب ، والنساء والفتيات ، وذلك يؤدي إلى غرس بذور الإيمان ، والترغيب في الطاعة ، والترهيب من المعصية ، مما يجعل القصة مدرسة إلهية للمؤمنين ، أساتذتها الأنبياء ، وواقعها الأقوام ، وتاريخها قديم عريق ، وموضوعها إهلاك الظالمين ، وغايتها التهذيب والإصلاح والتربية الحسنة.

٥- تهدف القصة القرآنية في المرتبة الأولى إلى إثبات توحيد اللّه وتقرير وجوده ، وإثبات النبوة ، والبعث ، ويتخللها أحكام تشريعية هادفة مفيدة للفرد والجماعة ، وللأمة والدولة ، ولكل الشعوب والحكام.

٦- تبين القصة أن مهمة النبي مجرد تبليغ الوحي ، وإعلام الناس بالإنذارات الإلهية بوقوع العذاب قريبا أم بعيدا ، دون أن يكون لديه سلطان ما في التأخير والتغيير ، والنفع والضر.

٧- تظهر القصة أيضا مدى التماثل في طباع البشر ، ومدى استعدادهم للإيمان والكفر ، والخير والشر.

ج ١٢ ، ص : ١٥٩

٨- في القصة إظهار سلطان اللّه وقدرته وقوته القاهرة في تعجيل العذاب ، الذي هو أنموذج عن عذاب الآخرة.

(١٢/١٦٥)

٩- تتضمن القصة التأييد الإلهي للرسل ، وإظهار آيات اللّه ومعجزاته وحججه على الناس ، مما يحمل على الإقناع بصحة الدعوة الإلهية ، والإيمان بأصحابها الرسل.

١٠- كان لكل قصة مواعظ وعبر خاصة ، تختلف باختلاف أصحابها ، فقصة قوم نوح مثلا تمثل الغرور المستحكم والإصرار على الوثنية ، وقصة قوم عاد تظهر مدى الاعتداد بالبطش والقوة والتجبر والعتو ، وقصة قوم لوط تدل على انحطاط المستوى الإنساني ، والشذوذ الجنسي ، والفحش الأخلاقي ، وقصة قوم شعيب مظهر من مظاهر الانحراف الاجتماعي أو الظلم الاجتماعي وأخذ حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل ، وقصة قوم فرعون مثل بارز للاعتماد على السلطان والثروة والجاه ، تهز عروش وكيان المتفرعنين الجبابرة في كل زمان ومكان ، وجميع تلك القصص لمقاومة الوثنية والفوضى في نظام المجتمع ، فإن كل أولئك الأمم كانوا وثنيين عبدة أصنام ، وكانت جهود الأنبياء المكثفة مركزة على

تخليص الناس من عبادة الأوثان والأصنام.

١١- القصة في الجملة عظة وعبرة ، وعلاج للنفوس ، واعتبار بما حل بالعصاة والكفار المتمردين ، مما يذهل العقل ، ويشيب الرأس ، ويقطّع نياط القلب ، ويجعل الإنسان في دهشة وخوف ورعب.

١٢- إن إخبار نبي أمي غير كاتب ولا قارئ ، ولا راو ولا حافظ ، وهو نبينا عليه الصلاة والسلام ، عن تلك القصص ، دليل قاطع على نبوته ، وسمو رسالته ، وحرصه على نشر العلوم والمعارف ، وخفق ألوية الهدى والرشاد ، ودليل قبل كل شيء على أن هذا القرآن كلام اللّه ودستوره لبني البشر إلى يوم القيامة.

ج ١٢ ، ص : ١٦٠

١٣- تضمنت القصص صلابة كل نبي على مبدئه ودعوته ، وإن تعرض للإساءة وتسفيه الرأي ، والتصميم أحيانا على قتله أو إبعاده ، والأمثلة كثيرة ، منها : ما حكاه القرآن عن نوح عليه السّلام : قالَ : يا قَوْمِ ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ، أَنُلْزِمُكُمُوها ، وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ [هود ١١/ ٢٨] وتكرر مثل ذلك على لسان شعيب [هود ١١/ ٨٨] وغيره من الأنبياء.

ومنها ما حكاه عن هود : قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ. قالَ : يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ [الأعراف ٧/ ٦٦- ٦٧].

ومنها ما قال قوم شعيب : قالُوا : يا شُعَيْبُ ، ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ، وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً ، وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ ، وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ [هود ١١/ ٩١].

١٤- تكرار القصة الواحدة في سور القرآن أكثر من مرة إنما هو لتحقيق مقاصد وأهداف ومعان كثيرة ، لتكون ماثلة أمام الأعين في كل جيل. ولكن تكرارها لم يكن مملا وإنما كان بأساليب متنوعة تجتذب الأنظار ، وتنبه العقول ، وتطرد السامة والملل من نفس القارئ والسامع.

التذكير بعاقبة الاختلاف في التوراة [سورة هود (١١) : الآيات ١١٠ الى ١١١]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

ج ١٢ ، ص : ١٦١

الإعراب :

وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا .. إن بالتشديد هو الأصل فيها ، وكُلًّا : اسمها المنصوب. ومن قرأ إِنَّ بالتخفيف ، أعمل إن المخففة ، كما أعملها مشددة ، كما يعمل الفعل تاما ومخففا. وأما لَمَّا بالتشديد فهو مشكل ، إذ ليست هنا بمعنى الزمان ، ولا بمعنى إلا ، ولا بمعنى لم ، وقيل فيها بأوجه منها : أن الأصل فيها « لمن ما » ثم أدغم النون في الميم ، فاجتمع ثلاث ميمات ، فحذفت الميم المكسورة ، وتقديره : وإن كلا لمن خلق ليوفينهم. ومنها : أن تكون « ما » زائدة ، وتحذف إحدى الميمات ، وتقديره : لخلق ليوفينهم. ومن خفف الميم من « لما » جعل « ما » زائدة ، أتى بها ليفصل بين اللام التي في خبر إِنَّ ولام القسم التي في لَيُوَفِّيَنَّهُمْ. وقال الزمخشري : وَإِنَّ كُلًّا التنوين عوض من المضاف إليه ، يعني وإن كلهم ، وإن جميع المختلفين فيه. ولَيُوَفِّيَنَّهُمْ جواب قسم محذوف واللام في لَمَّا موطئة للقسم ، وما : مزيدة للفصل ، والمعنى : وإن جميعهم واللّه ليوفينهم ، ولام لَيُوَفِّيَنَّهُمْ للتأكيد.

البلاغة :

وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ الكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر.

المفردات اللغوية :

الْكِتابَ التوراة فَاخْتُلِفَ فِيهِ بالتصديق والتكذيب فآمن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف مشركو مكة في القرآن وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ بتأخير الحساب والجزاء للخلائق يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ في الدنيا فيما اختلفوا فيه ، بإنزال ما يستحقه المبطل ، ليتميز به عن المحق وَإِنَّهُمْ وإن كفار مكة ، أو المكذبين بالتوراة لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ لفي شك في القرآن أو في التوراة ، موقع في الريبة.

(١٢/١٦٨)

وَ إِنَّ كُلًّا إن بالتشديد والتخفيف ، أي وإن كل المختلفين ، المؤمنين منهم والكافرين ، والتنوين : بدل المضاف إليه لَمَّا ما : زائدة ، واللام موطئة لقسم محذوف مقدر ، واللام الثانية التي في لَيُوَفِّيَنَّهُمْ للتأكيد ، أو بالعكس ، وما : مزيدة للفصل بين اللامين. لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ أي جزاءها إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ عالم ببواطن العمل كظواهره.

المناسبة :

بعد أن ذكّر اللّه تعالى مشركي مكة بمصير الأمم الهالكة لكفرهم ، ذكّرهم هنا

ج ١٢ ، ص : ١٦٢

أيضا بقوم موسى الذين اختلفوا في التوراة ، بين مؤمن وكافر ، فعاقبهم اللّه وجازاهم بسوء أعمالهم. وهو يدل على أن سيرة الكفار الفاسدة مع كل الأنبياء واحدة ، فكما أنكر كفار مكة التوحيد ، أنكروا أيضا نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، وكذبوا بكتابه ، شأنهم في ذلك شأن وعادة الكفار من قبلهم.

التفسير والبيان :

واللّه لقد آتينا موسى الكتاب الذي هو التوراة ، فاختلف فيه بنو إسرائيل من بعده ، ظلما وبغيا ، وتنازعا على الزعامة والمصالح المادية ، فآمن به قوم وكفر به آخرون ، مع أن الكتاب نزل لتوحيد الكلمة وجمع الناس على منهج واحد ، فلا تبال يا محمد باختلاف قومك في القرآن ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك أسوة ، فلا تجزع لتكذيبهم.

ولو لا كلمة من ربك أي لولا سبق القضاء والقدر بتأخير العذاب إلى أجل مسمى ، لقضي بينهم في الدنيا ، بإهلاك العصاة ، وإنجاء المؤمنين ، كما حدث لأمم آخرين.

(١٢/١٦٩)

و إن المكذبين لفي شك موقع في الريبة والقلق ، والظاهر عود الضمير في قوله : وَإِنَّهُمْ وقوله : بَيْنَهُمْ على قوم موسى عليه السّلام إذ هم المختلفون في الكتاب ، الشاكون في التوراة ، كما قال تعالى : وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ [الشورى ٤٢/ ١٤] والذين أورثوا الكتاب : هم اليهود والنصارى ، والتوراة قد فقدت مع إحراق البابليين لهيكل سليمان ، وقيل : يعود الضمير على المختلفين في الرسول من معاصريه. قال ابن عطية : وأن يعمهم اللفظ أحسن عندي. وهذه الجملة من جملة تسليته صلى اللّه عليه وسلّم « ١ » .

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان : ٥/ ٢٦٦

و إن كلا من المؤمنين والكافرين المختلفين في كتاب اللّه ليوفينهم اللّه جزاء أعمالهم ، وما وعدوا به من خير أو شر لأنه خبير بتلك الأعمال كلها ، ولا يخفى عليه شيء منها. وهذا أيضا تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وتهديد ووعيد لقومه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيتين ما يأتي :

١- عادة الناس واحدة مع كل الأنبياء ، فمنهم من يقبل دعوتهم ، ويؤمن برسالتهم ، ومنهم من ينكرها ، وكفار قوم موسى وغيرهم أنكروا التوحيد ، وأصروا على إنكار النبوات ، والتكذيب بالكتب السماوية ، وكذلك كفار مكة وغيرهم من قوم محمد صلى اللّه عليه وسلّم وغيرهم مثل من تقدمهم فيما ذكر ، فيكون جزاؤهم واحدا.

٢- الاختلاف في الكتاب الإلهي كالتوراة والقرآن ، بأن يؤمن به بعضهم ويكفر به بعضهم الآخر ، موجب للعقاب والعذاب في الآخرة.

(١٢/١٧٠)

٣- حكم اللّه عز وجل أن يؤخر عقاب الكافرين كبني إسرائيل لانقسامهم بالنسبة للتوراة بين مكذب بها ومصدّق بها ، إلى يوم القيامة ، لما علم في حكم التأخير من الصلاح ولولا التأخير ، لقضي بينهم أجلهم ، بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر ، وينزل عذاب الاستئصال عليهم ، لكن المتقدم من قضاء اللّه أخر العذاب عنهم في دنياهم.

٤- إن أولئك المختلفين في التوراة من اليهود لفي شك من كتاب موسى ، وهم في شك أيضا من القرآن.

٥- إن كل الأمم والأفراد ، المؤمن منهم والكافر ، يرون في الآخرة جزاء أعمالهم ، سواء من أقوام الأنبياء السابقين أو من قوم محمد عليهم السلام ، فمن

ج ١٢ ، ص : ١٦٤

عجلت عقوبته ومن أخّرت ، ومن صدّق الرسل ومن كذب ، حالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة ، وهو مأخوذ من الآية لَيُوَفِّيَنَّهُمْ التي جمعت بين الوعد والوعيد ، فإن إيفاء جزاء الطاعات وعد عظيم ، وإيفاء جزاء المعاصي وعيد عظيم.

وتأكد الوعد والوعيد بقوله تعالى : إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لأنه تعالى لما كان عالما بجميع المعلومات ، كان عالما بمقادير الطاعات والمعاصي ، وعالما بالقدر المناسب لكل عمل من الجزاء ، فلا يضيع شيء عنده من الحقوق والجزاءات.

(١٢/١٧١)

و أكد اللّه تعالى توفية الجزاءات على المستحقين في الآية المذكورة : وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ بسبعة أنواع من المؤكدات : وهي إنّ ، وكل ، والام الداخلة على خبر إن ، وحرف « ما » إذا جعلناه على قول الفراء موصولا ، والقسم المضمر ، فإن تقدير الكلام : وإن جميعهم واللّه ليوفينهم ، واللام الثانية الداخلة على جواب القسم ، والنون المؤكدة في قوله : لَيُوَفِّيَنَّهُمْ فكل هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد ، تدل على أن أمر الربوبية والعبودية لا يتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ، ثم أردفه بقوله : إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ كما تقدم ، وهو من أعظم المؤكدات « ١ » .

الاستقامة على أوامر اللّه تعالى [سورة هود (١١) : الآيات ١١٢ الى ١١٣]

فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (١١٣)

---

(١) تفسير الرازي : ١٨/ ٧٠

ج ١٢ ، ص : ١٦٥

الإعراب :

وَمَنْ تابَ مَعَكَ مرفوع بالعطف على ضمير فَاسْتَقِمْ وجاز العطف على الضمير المرفوع لأن الفصل بالظرف ، وهو قوله تعالى : كَما أُمِرْتَ ينزّل منزلة التأكيد ، فجاز العطف. ويجوز أن يكون وَمَنْ تابَ في موضع نصب لأنه مفعول معه.

وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ الواو للحال.

المفردات اللغوية :

فَاسْتَقِمْ على العمل بأمر ربّك والدّعاء إليه ، والاستقامة شاملة للاستقامة في العقائد والأعمال ، من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزلت ، والقيام بوظائف العبادات من غير إفراط ولا تفريط. والاستقامة في غاية العسر ، لذا

قال عليه الصّلاة والسّلام : « شيبتني سورة هود » .

وَ مَنْ تابَ مَعَكَ أي وليستقم من تاب معك ، بأن تاب من الشرك والكفر وآمن معك.

وَلا تَطْغَوْا لا تجاوزوا حدود اللّه ، والطغيان : مجاوزة الحدّ بالإفراط أو التفريط. إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فهو مجازيكم عليه ، وهو في معنى التّعليل للأمر والنّهي.

وَلا تَرْكَنُوا لا تميلوا إليهم أدنى ميل ، والرّكون : الميل اليسير. إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا لا تميلوا إلى الظالمين بمودة أو مداهنة أو رضى بأعمالهم. فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ فتصيبكم النّار كونكم إليهم. وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي غيره. مِنْ أَوْلِياءَ مِنْ : زائدة ، وأَوْلِياءَ مناصرون يحفظونكم منه ، أو أنصار يمنعون العذاب عنكم. ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ تمنعون من عذابه ، ولا ينصركم اللّه إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يبقي عليكم. وثُمَّ : لاستبعاد نصره إياهم بعد أن أوعدهم بالعذاب على فعلهم ، وأوجبه.

المناسبة :

لما بيّن اللّه تعالى أمر المختلفين في التّوحيد والنبّوة ، وأطنب في بيان وعدهم ووعيدهم ، أمر رسوله

صلى اللّه عليه وسلّم بالاستقامة مثلما أمر بها غيره ، وهي كلمة شاملة لكلّ ما ينعق بالعقيدة والعلم والعمل والأخلاق.

التفسير والبيان :

فالزم يا محمد ومن آمن معك طريق الاستقامة في الاعتقاد والأعمال

ج ١٢ ، ص : ١٦٦

(١٧٣/١٢)

و الأخلاق ، دون إفراط ولا تفريط. فالاستقامة تقتضي توحيد اللّه في ذاته وصفاته ، والإيمان بالغيب من جنّة ونار وبعث وحساب وجزاء ، وملائكة وعرش ، والتزام ما أمر به القرآن في نطاق العبادات والمعاملات. وهي درجة عليا وعسيرة إلا على من جاهد نفسه ، وترفّع عن أهوائه وشهواته ، وقد أمر بها موسى وهارون بقوله تعالى : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [يونس ١٠/ ٨٩] ، وكان جزاؤها تطمين الملائكة بعدم الخوف والحزن ، والتّبشير بالجنّة ، فقال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَقامُوا ، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [فصلت ٤١/ ٣٠] ، و

أجاب النّبي صلى اللّه عليه وسلّم سائلا- هو سفيان الثقفي فيما رواه مسلّم- قال : يا رسول اللّه ، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ؟ فقال : « قل آمنت باللّه ثم استقم » .

ولا يعني أمر الرّسول بالاستقامة أنه لم يكن مستقيما ، وإنما كان على العكس في غاية الاستقامة ، والمقصود بهذا الأمر الدّوام والاستمرار على ما هو عليه. فاللّه تعالى يأمر رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدّوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النّصر على الأعداء. وخطاب الرّسول صلى اللّه عليه وسلّم ومن معه من المؤمنين بالاستقامة للتّثبيت على الاستقامة.

وفي الآية دليل على وجوب اتّباع النّصوص الشّرعية من غير تصرّف وانحراف ، ولا تقليد وعمل برأي فاسد غير صحيح ، ومن حاد عن منهج السّلف زاغ وضلّ ، فكانوا كقوله تعالى : مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الرّوم ٣٠/ ٣٢].

(١٧٤/١٢)

و طريق رفع الخلاف الرّد إلى القرآن والسّنة ، فقال تعالى : فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ [النّساء ٤/ ٥٩].

ج ١٢ ، ص : ١٦٧

و بعد أن أمر اللّه تعالى بالاستقامة ، نهى عن ضدّها وهو الطّغيان ، أي البغي وتجاوز حدود اللّه ، فإنه مزلقة إلى الهلاك ، فقال تعالى : وَلا تَطْغَوْا.

ثمّ حذّر اللّه تعالى من المخالفة ، فقال : إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أي إنه تعالى بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، فيجازي عليها.

والدّعوة إلى الاستقامة وتجنّب الطّغيان هو هدف القرآن الكريم المتكرر فيه ، فقال تعالى : فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ ، وَقُلْ : آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ ، لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ ، لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [الشورى ٤٢/ ١٥].

ثم نبّه اللّه تعالى إلى خطر الميل مع الظالمين ، فقال : وَلا تَرْكَنُوا .. أي ولا تميلوا إلى الظالمين بمودة أو مداهنة أو رضى بأعمالهم ، أو استعانة بهم ، أو اعتماد عليهم ، فتصيبكم النّار بركونكم إليهم ، فالرّكون إلى الظّالمين ظلم ، وليس لكم من غير اللّه أنصار أبدا ينفعونكم ، ويمنعون العذاب عنكم ، ثم لا ينصركم اللّه ، أي لا تجدون من ينصركم من تلك الواقعة لأنه تعالى لا ينصر الظّالمين : وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ [البقرة ٢/ ٢٧٠] ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ [الحجّ ٢٢/ ٧١ ، فاطر ٣٥/ ٣٧].

(١٧٥/١٢)

و الآية تدلّ على عاقبة الرّكون ، وعلى أن الميل إلى الظّالمين موقع عادة في الظّلم ، ومزلقة تستدعي إقرارهم على ما يفعلون ، والرّضى بما هم عليه من الظّلم ، واستحسان طريقتهم ، وتزيينها عندهم وعند غيرهم ، ومشاركتهم في أعمالهم الظّالمة. قال البيضاوي : ولعل الآية أبلغ ما يتصوّر في النّهي عن الظّلم والتّهديد عليه.

وإذا كان الرّكون إلى الظّلم موجبا عذاب النّار ، فكيف يكون حال الظّالم في نفسه ؟ !

ج ١٢ ، ص : ١٦٨

فقه الحياة أو الأحكام :

تدلّ الآيتان على الأمر بالاستقامة والثّبات والدّوام عليها ، وعلى تحريم ضدّها وهو الطّغيان ، أي تجاوز حدود اللّه تعالى ، وعدم الاعتماد على الظّلمة والرّضا بظلمهم.

والاستقامة : امتثال أمر اللّه ، وليست تلك مهمة سهلة وإنما هي شاقّة عسيرة تستدعي الطّاعة الدّائمة ، ومراقبة الإنسان نفسه ، والحذر من المخالفة ، قال ابن عباس : ما نزل على رسول اللّه صلى اللّه

عليه وسلّم آية هي أشدّ ولا أشقّ من هذه الآية عليه ، ولذلك
قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشّيب! فقال :
« شيّبتني هود وأخواتها » .
وروي عن أبي علي السّري قال : رأيت النّبي صلى اللّه عليه وسلّم في المنام ، فقلت : يا رسول اللّه! روي عنك أنك قلت : « شيّبتني هود » ، فقال :
« نعم » ، فقلت : ما الذي شيّبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم! فقال :
« لا ، ولكن قوله تعالى : فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ » .
والاستقامة تقتضي اتّباع نصوص القرآن والسنّة ، والبعد عن التّأويلات الباطلة ، والعمل بالرّأي الفاسد المخالف روح الشّريعة ومبادئها العامة.
ثمّ حذّرت الآية من الاعتماد على الظّلمة ، والرّضا بظلمهم ، والاستعانة بهم ، والتعاون معهم ، وودّهم وإطاعتهم لأن ودّهم يستدعي إطراءهم وتملّقهم ، وتزييف الحقائق ، وكتمان الحقّ ، والسّكوت عن المنكر ، وعدم الأمر بالمعروف.

(١٧٦/١٢)

و الظّلم : يشمل الشّرك وكلّ أنواع القبائح والمعاصي والمنكرات ، والآية دالّة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ، فإن صحبتهم كفر أو معصية ، إذ الصّحبة لا تكون إلا عن مودّة. أما صحبة الظّالم على التّقيّة ، فهي مستثناة من النّهي بحال الاضطرار.
روى الإمام أحمد وأصحاب السّنن عن أبي بكر أنه قام ، فحمد اللّه ،
ج ١٢ ، ص : ١٦٩
و أثنى عليه ، ثم قال : أيّها النّاس ، إنكم تقرؤون هذه الآية : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ألا وإن النّاس إذا رأوا الظّالم ، فلم يأخذوا على يديه ، أوشك اللّه أن يعمّهم بعقابه ، ألا وإنّي
سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يقول : « إنّ النّاس إذا رأوا المنكر بينهم ، فلم ينكروه ، يوشك أن يعمّهم اللّه بعقابه » .
وقد تضمّنت الآية صراحة بيان عاقبة الرّكون إلى الظّلمة ، وهي الإحراق بالنّار ، بسبب مخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على ما هم عليه ، وموافقتهم في أمورهم.
والظّلمة : هم أعداء المؤمنين ، من المشركين ، أو كلّ ظالم ، سواء أكان كافرا أم مسلما ، والرّأي الثّاني أصح لأن الأخذ بعموم الكلام أولى.

ويلاحظ من اختلاف التّعبيرين : فَاسْتَقِمْ ووَ لا تَرْكَنُوا أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنّبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وإن كانت عامة في المعنى : فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وقوله في الآية التالية : وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، وَاصْبِرْ. أما المنهيّات فقد جمعت للأمة : وَلا تَطْغَوْا ، وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا.

الأمر بالصّلاة والصّبر [سورة هود (١١) : الآيات ١١٤ الى ١١٥]

وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

الإعراب :

طَرَفَيِ النَّهارِ منصوب على الظّرف لأنه مضاف إليه.

ج ١٢ ، ص : ١٧٠

البلاغة :

إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ بينهما طباق.

ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ بينهما جناس اشتقاق.

لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ عدول عن المضمر ، ليكون كالبرهان على المقصود ، ودليلا على أن الصّبر والصّلاة إحسان ، وإيماء بأنه لا يعتدّ بهما دون الإخلاص.

المفردات اللغوية :

طَرَفَيِ النَّهارِ أي في الغداة والعشي ، أي الصّبح والظّهر والعصر كما قال الحسن وقتادة والضّحاك ، وطرف الشي ء : الطّائفة منه من النّهاية والبداية. وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ جمع زلفة أي طائفة وجزء من أول الليل قريب من النّهار ، وذلك يشمل صلاة المغرب وصلاة العشاء ، كما قال الحسن البصري.

إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ يكفرنها ، و

في الحديث الذي أخرجه أبو نعيم عن أنس : « الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » والحسنات كالصلوات الخمس وغيرها من أعمال البر ، والسيئات : الذنوب الصغائر. ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ عظة للمتعظين.

وَاصْبِرْ على الطاعات وعن المعاصي. لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ بالصبر على الطاعة.

سبب النزول :

روى الشيخان ، وابن جرير ، عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، فأخبره ، فأنزل اللّه : وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ

فقال الرجل : إليّ هذه ؟ قال :
لجميع أمتي كلهم.

(١٧٨/١٢)

و أخرج الترمذي وغيره عن أبي اليسر قال : أتتني امرأة تبتاع تمرا ، فقلت :
في البيت أطيب منه ، فدخلت معي البيت ، فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، فذكرت ذلك له ، فقال : أخلفت غازيا في سبيل اللّه في أهله بمثل هذا ؟ ! وأطرق طويلا ، حتى أوحى اللّه إليه : وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ إلى قوله : لِلذَّاكِرِينَ
ج ١٢ ، ص : ١٧١
و روي ذلك من حديث أبي أمامة ومعاذ بن جبل وابن عباس وبريدة وغيرهم. ومنه يفهم أن ذنب الرجل لا حدّ فيه ، وإنما هو ذنب يكفره العمل الصالح ، من إقامة الصلاة وإحسان القول والعمل.
ورواية الترمذي عن ابن مسعود هي : قال : جاء رجل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلّم فقال : إني عالجت امرأة في أقصى المدينة ، وإني أصبت منها ما دون أن أمسّها ، وأنا هذا ، فاقض فيّ ما شئت.
فقال له عمر : لقد سترك اللّه! لو سترت على نفسك فلم يردّ عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم شيئا ، فانطلق الرجل ، فأتبعه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم رجلا فدعاه ، فتلا عليه : وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ ، وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ، ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ إلى آخر الآية ، فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : « لا ، بل للناس كافة »
قال الترمذي : حديث حسن صحيح.
المناسبة :
بعد أن أمر اللّه تعالى رسوله والمؤمنين بالاستقامة ، وعدم تجاوز حدود الدين ، وعدم الركون إلى ذوي الظلم ، أردفه بالأمر بالصلاة والصبر ، وهو يدل على أن أعظم العبادات بعد الإيمان باللّه هو الصلاة ، ويليها الصبر ، فإنه نصف الإيمان ، فهما عدة الامتثال ، والصلاة أساس العبادات ، وعمود الدين.
التفسير والبيان :

(١٧٩/١٢)

موضوع هاتين الآيتين : الاستعانة بالصلاة والصبر ، كما قال تعالى في آية أخرى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة ٢/ ١٥٣].

أما بالنسبة للصلاة فالآية في تحديد أوقاتها ، ومعناها : أدّ الصلاة تامة كاملة الأركان والشروط والأوصاف ، باعتبارها صلة بين العبد والرب ، مطهرة

ج ١٢ ، ص : ١٧٢

للنفس ، مرضاة للرب ، مانعة عن الفحشاء والمنكر ، وأداؤها في جميع أجزاء اليوم ، فقوله : طَرَفَيِ النَّهارِ يشمل ثلاث صلوات هي الصبح والظهر والعصر ، وقوله : وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ يشمل صلاتي المغرب والعشاء.

فتكون الآية شاملة جميع أوقات الصلاة ، كما جاء في آيات أخر هي :

١- أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً [الإسراء ١٧/ ٧٨].

٢- فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا ، وَحِينَ تُظْهِرُونَ [الروم ٣٠/ ١٧- ١٨] فصلاة الصبح عند الإصباح ، وبقية الصلوات تدخل تحت تعبير المساء لأنه يشمل ما بين الظهر والغروب فما بعده.

٣- وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها ، وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ ، فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ ، لَعَلَّكَ تَرْضى [طه ٢٠/ ١٣٠] والتسبيح يكون بالصلاة وغيرها.

ثم ذكر اللّه تعالى فائدة الصّلاة بقوله : إِنَّ الْحَسَناتِ .. أي إنّ فعل الخيرات أو الأعمال الحسنة ، ومنها الصّلوات الخمس ، تكفّر الذّنوب السّالفة ، والسّيئات الصّغائر ، كما جاء

في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السّنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم حديثا نفعني اللّه بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حدّثني عنه أحد ، استحلفته ، فإذا حلف صدّقته ، وحدّثني أبو بكر- وصدق أبو بكر- أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يقول :

« ما من مسلم يذنب ذنبا ، فيتوضأ ، ويصلّي ركعتين ، إلا غفر له » .

وفي الصّحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان : أنه توضأ لهم كوضوء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ثم قال : هكذا رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يتوضأ ، وقال : « من

ج ١٢ ، ص : ١٧٣

توضأ وضوئي هذا ، ثم صلّى ركعتين ، لا يحدّث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدّم من ذنبه » .

والحسنات : جميع الأعمال الصّالحة ، حتى ترك السّيئة ، والسّيئات : الذّنوب الصّغائر لأن الكبائر لا

يكفّرها إلا التّوبة لقوله تعالى : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ، وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً [النّساء ٤/ ٣١] ، ولما رواه مسلم : « الصّلوات الخمس كفّارة لما بينهن ، إذا اجتنبت الكبائر » .

وأمّا شروط التّوبة الصّادقة فهي أربعة : الإقلاع عن الذّنب ، والنّدم عليه ، والعزم على عدم العود إلى مثله في المستقبل ، والعمل الصّالح الذي يساعد على محو أثر الذّنب ، ومنه ردّ الحقوق لأصحابها ، وطلب السّماح ممن آذاه.

ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ أي إنّ النّصح السّابق بفعل الحسنات والاستقامة ، وعدم تجاوز حدود الدّين ، وعدم الرّكون إلى الظّلمة ، عظة للمتّعظين الذي يعقلون الأحداث ويقدّرون مخاطرها ويخشون اللّه عزّ وجلّ.

(١٨١/١٢)

وَ اصْبِرْ .. أي الزم الصّبر على الطّاعة ومشاقّها ، وعن المعصية ومغرياتها ، وابتعد عن المنكر والمحرّمات ، وفي حال الشّدائد والمصائب ، فإن اللّه لا يهدر ثواب المحسنين أعمالا ، الصّابرين على مراد اللّه وقدره. وهذا دليل على أن الصّبر إحسان وفضيلة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيتان إلى ما يأتي :

١- الأمر بالصّلوات المفروضة وإيجابها ، وخصّت بالذّكر هنا لأنها ثانية الإيمان ، وإليها يفزع في النّوائب ، وكان النّبي صلى اللّه عليه وسلّم إذا حزبه « ١ » أمر ، فزع إلى الصّلاة.

---

(١) حزبه : نزل به مهمّ ، أو أصابه غمّ.

ج ١٢ ، ص : ١٧٤

٢- الآية دليل على قول أبي حنيفة رحمه اللّه في أنّ التّنوير بالفجر أفضل ، وفي أنّ تأخير العصر أفضل لأنّ ظاهر هذه الآية يدلّ على وجوب إقامة الصّلاة في طرفي النّهار ، وطرفا النّهار : الزّمان الأوّل لطلوع الشّمس والزّمان الثاني لغروبها ، وبما أنّ ظاهر الآية غير مراد بالإجماع ، فوجب حمله على المجاز ، وهو إقامة الصّلاة في الوقت الذي يقرب من طرفي النّهار لأنّ ما يقرب من الشيء يجوز أن يطلق عليه اسمه. وإقامة صلاة الفجر عند التّنوير أقرب إلى وقت الطّلوع من إقامتها عند التّغليس ، وكذلك إقامة صلاة العصر عند ما يصير ضلّ كلّ شيء مثليه أقرب إلى وقت الغروب من إقامتها عند ما يصير ظلّ كلّ شيء مثله ، والمجاز كلما كان أقرب إلى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه أولى.

٣- أوضحت الآية أوقات الصّلوات الخمس المفروضة لأنّ طرفي النّهار يشملان صلاة الصّبح ، وصلاة الظّهر والعصر ، والزّلف من الليل يقتضي الأمر بإقامة صلاتي المغرب والعشاء. والزّلف : الساعات القريبة بعضها من بعض ، وزلف الليل تشمل المغرب والعشاء.

٤- الحسنات وهي الأعمال الصّالحة ومنها الصّلوات الخمس ، وقول الرّجل :

سبحان اللّه والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، والأولى حمل اللفظ على عمومه. وأما السّيئات فهي الذّنوب الصّغائر ، للحديث المتقدّم : « ما اجتنبت الكبائر » .

٥- دلّت الآية على أنّ المعصية لا تضرّ مع الإيمان لأنّ الإيمان أشرف الحسنات وأجلّها وأفضلها. وعلى أنّ الحسنات يذهبن السّيئات ، فالإيمان الذي هو أعلى الحسنات درجة ، يذهب الكفر الذي هو أعلى درجة في العصيان ، فلأن يقوى على المعصية التي هي أقل السّيئات درجة ، كان أولى ، فإن لم يفد إزالة العقاب بالكليّة ، فلا أقل من أن يفيد إزالة العذاب الدائم.

ج ١٢ ، ص : ١٧٥

٦- دلّت الآية مع الأحاديث الواردة في سبب نزولها على أن القبلة واللّمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ. واختار ابن المنذر أنه لا يجب فيهما أدب أو تعزير.

٧- القرآن الكريم موعظة وتوبة لمن اتّعظ وتذكّر ، وخصّ الذّاكرين بالذّكر لأنهم المنتفعون بالذّكرى.

٨- الصّبر على الصّلاة كما قال تعالى : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها [طه ٢٠/ ١٣٢] ، والصّبر على الطّاعات ، وعلى ما يلقاه المؤمن من أذى الأعداء ، وعلى الشّدائد والمصائب ، الصّبر على كلّ ذلك إحسان وفضيلة ، وله ثواب عظيم ، و

قد قال النّبي صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان : « الصّبر نصف الإيمان ، واليقين : الإيمان كلّه » إلا أنه ضعيف.

سبب إهلاك القرى والأمم السّالفة [سورة هود (١١) : الآيات ١١٦ الى ١١٩]

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ

وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

الإعراب :

إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ ... منصوب لأنه استثناء منقطع ، ويجوز فيه الرّفع على البدل من

ج ١٢ ، ص : ١٧٦

أُولُوا بَقِيَّةٍ كما جاز الرّفع في قوله تعالى : إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ [يونس ١٠/ ٩٨] وإن كان استثناء منقطعا ، وهي لغة بني تميم.

وَاتَّبَعَ عطف على مضمر دلّ عليه الكلام إذ المعنى : فلم ينهوا عن الفساد ، واتّبع الذين ظلموا.

وَكانُوا مُجْرِمِينَ عطف على اتَّبَعَ أو جملة اعتراضية.

بِظُلْمٍ حال من الفاعل ، أي واستحال في الحكمة أن يهلك اللّه القرى ظالما لها.

المفردات اللغوية :

فَلَوْ لا فَلَوْ لا : للتّحضيض والحثّ على الفعل ، أي فهلا كان. مِنَ الْقُرُونِ جمع قرن ، وهو الجيل من الناس المقترنون في زمن واحد ، وشاع تقديره بمئة سنة. أُولُوا بَقِيَّةٍ أولو عقل ورأي وبصر بالأمور ، أو أولو فضل ، والأصل في البقية : ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره ، واستعمل كثيرا في الباقي الأصلح لإنفاق الأردأ عادة وإبقاء الأجود ، وتلك قاعدة بقاء الأصلح ، ومنه يقال : فلان من بقيّة القوم ، أي من خيارهم. ويجوز أن يكون مصدرا كالتّقية ، أي ذوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب.

(١٨٤/١٢)

ما أُتْرِفُوا فِيهِ أي ما أنعموا فيه من الشهوات. وَكانُوا مُجْرِمِينَ أي كافرين ، وهو سبب استئصال الأمم ، وهو فشو الظلم فيهم ، واتّباعهم الهوى ، وترك النّهي عن المنكرات مع الكفر. بِظُلْمٍ بشرك. وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ فيما بينهم ، لا يضمون إلى شركهم فسادا وتباغيا ، وذلك لفرط رحمة اللّه ومسامحته في حقوقه ، ولذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد على حقوق اللّه تعالى.

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً مسلمين كلّهم ، وهو دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة ، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كلّ أحد ، وأن ما أراده يجب وقوعه. وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ بعضهم على الحق ، وبعضهم على الباطل ، لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقا. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ إلا أناسا هداهم اللّه من فضله ، فاتّفقوا على ما هو أصول دين الحقّ والعمدة فيه. وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ : إن كان الضمير للناس ، فالإشارة إلى الاختلاف ، واللام للعاقبة ، أي الصّيرورة ، أو أن الضّمير يعود للنّاس وإلى الرّحمة. وإن كان الضّمير يعود لمن رحم ، فإلى الرّحمة.

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ وعيده وقضاؤه وأمره. مِنَ الْجِنَّةِ الجنّ ، سمّوا بهذا لاستتارهم.

وقوله تعالى : مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أي من عصاتهما. أَجْمَعِينَ صفة للعصاة ، أو منهما أجمعين لا من أحدهما.

ج ١٢ ، ص : ١٧٧

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى ما حلّ بالأمم السّابقة المكذّبة لرسلها ، من عذاب الاستئصال في الدّنيا ، واستحقاق النّار في الآخرة ، ذكر هنا سبب العذاب وهو أمران : الأول- أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض ، والثاني- أن الظّالمين اتّبعوا طلب الشّهوات واللّذات ، واشتغلوا بتحصيل الرّياسات.

والظّالمون : هم تاركو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

التّفسير والبيان :

(١٨٥/١٢)

فهلا وجد من القرون ، أي الأمم والأقوام الماضية الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم جماعة أولو عقل ورأي وبصيرة وأهل خير ينهون عما كان يقع بينهم من الشّرور والمنكرات والفساد في الأرض. وهذا توبيخ للكفار.

لكن قد وجد قليل من هؤلاء ، وهم الذين أنجاهم اللّه تعالى عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، قد نهوا عن الفساد في الأرض. فهذا استثناء منقطع ، ولا يمكن جعله استثناء متّصلا ، وإلا كان القليل من النّاجين غير مرغّبين في النّهي عن الفساد.

واتّبع الظّالمون أنفسهم ، وهم الأكثرية ما أترفوا فيه من نعيم وعزّة وسلطان.

والمترف : الذي أبطرته النّعمة وسعة المعيشة. والمراد بالذين ظلموا : تاركو النّهي عن المنكر. واتّباعهم التّرف : اشتغالهم بالشّهوات والمال واللّذات والرّياسات ، واستمرارهم على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ، وعدم التفاتهم إلى إنكار المصلحين منهم ، وإيثار الترف على الآخرة.

وَكانُوا مُجْرِمِينَ أي والحال أنهم كانوا ظالمين. فاللّه تعالى لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ، كما قال تعالى : وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ [هود ١١/ ١٠١] ، وقال تعالى : وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصّلت ٤١/ ٤٦].

ج ١٢ ، ص : ١٧٨

و في الآية إيماء إلى أن التّرف مدعاة إلى الإسراف ، والإسراف يفضي إلى الفسوق والعصيان ، والظّلم والانحراف ، وتلك عادة متّبعة كما قال تعالى :

وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها ، فَفَسَقُوا فِيها ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً [الإسراء ١٧/ ١٦].

(١٨٦/١٢)

ثمّ بيّن تعالى عدله وسنّته في المصلحين ، فقال تعالى : وَما كانَ رَبُّكَ أي ليس من شأن اللّه تعالى أن يهلك أهل القرى ، ظالما لها ، وأهلها قوم مصلحون ، تنزيها لذاته تعالى عن الظّلم ، وإيذانا بأن إهلاك المصلحين من الظّلم. وقيل الظّلم : الشّرك ، ومعناه : أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها ، وهم مصلحون في المعاملات فيما بينهم ، أو في أمورهم الاجتماعية ، يتعاطون الحقّ فيما بينهم ، ولا يضمون إلى شركهم فسادا آخر ، أي لا ينزل عذاب الاستئصال لأجل كون القوم مجرّد كونهم معتقدين للشّرك والكفر ، بل إنما ينزل العذاب إذا أساؤوا في المعاملات ، وسعوا في الإيذاء والظّلم ، كما فعل قوم شعيب ، وقوم هود ، وقوم فرعون ، وقوم لوط. ويؤيده أنّ الأمم تبقى مع الكفر ، ولا تبقى مع الظّلم.

ثم أخبر اللّه تعالى أنه قادر على جعل الناس أمة واحدة من إيمان أو كفر ، فقال تعالى : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ .. قال الزّمخشري معبّرا عن مذهب المعتزلة :

يعني لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل ملّة واحدة ، وهي ملّة الإسلام ، كقوله تعالى : وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً [المؤمنون ٢٣/ ٥٢]. فهم يحملون الآية على مشيئة الإلجاء والإجبار ، والمراد نفي الاضطرار ، وأنه لم يقهرهم على الاتّفاق على دين الحقّ ، ولكنه مكّنهم من الاختيار الذي هو أساس التّكليف ، فاختار بعضهم الحقّ ، وبعضهم الباطل ، فاختلفوا ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربّك أي إلا أناسا هداهم اللّه ولطف بهم ، فاتّفقوا على دين الحقّ غير مختلفين فيه.

ويرى أهل السّنّة : أن الآية بيان لقدرة اللّه تعالى على جعل الناس كلهم على

(١٨٧/١٢)

منهج واحد من إيمان أو كفر ، بخلقهم قابلين دينا واحدا ، لكنه تعالى لم يشأ ذلك ، مثل قوله تعالى : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً [يونس ١٠/ ٩٩] وإنما شاء أن يكون لهم دور اختياري في الاتّجاه إلى الحقّ والإيمان ونبذ الضّلالة والشّرك ، وقوله تعالى : إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ استثناء منقطع ، أي لكن من رحم ربّك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف.

وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ أي في الأديان والاعتقادات والمذاهب والآراء ، وقيل : في الهدى ، أو في الرّزق يسخر بعضهم بعضا ، قال ابن كثير : والمشهور الصّحيح الأول.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ أي المرحومين من أتباع الرّسل الذين تمسّكوا بما أمروا به من الدّين ، الذي أخبرتهم به رسل اللّه إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى جاء خاتم الرّسل ، ففاز من اتّبعه بسعادة الدّنيا والآخرة ، فهم الفرقة النّاجية.

وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ قال الزّمخشري ممثلا رأي المعتزلة : لِذلِكَ : إشارة إلى ما دلّ عليه الكلام الأول وتضمّنه ، يعني : ولذلك المذكور من التّمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف ، خلقهم ، ليثيب مختار الحقّ بحسن اختياره ، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره « ١ » .

ويرى أهل السّنة كما ذكر أبو حيان : أنّ اللام ليست للتّعليل ، وإنما هي على التّحقيق لام الصّيرورة في ذلك المحذوف ، أي ليس الاختلاف والرّحمة علّة الخلق ، وإنما خلقهم ليصير أمرهم إلى الاختلاف. مثل قوله تعالى : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً [القصص ٢٨/ ٨]. ولا يتعارض هذا مع قوله

---

(١) الكشّاف : ٢/ ١٢٠

ج ١٢ ، ص : ١٨٠

تعالى : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذّاريات ٥١/ ٥٦] لأن معنى هذا الأمر بالعبادة « ١ » .

و الإشارة في قوله تعالى : لِذلِكَ : إشارة إلى الاختلاف والرّحمة معا في رأي ابن عباس ، واختاره الطّبري ، وقال مجاهد وقتادة : لِذلِكَ : إشارة إلى الرّحمة التي تضمّنها قوله تعالى : إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ والضّمير في خَلَقَهُمْ عائد على المرحومين.

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ .. أي سبق في قضاء اللّه وقدره لعلمه التّام وحكمته النّافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنّة ، ومنهم من يستحق النّار ، وأنه لا بدّ أن يملأ جهنّم من هذين الثّقلين : الجنّ والإنس ، وهم الذين لا يهتدون بما أرسل اللّه به الرّسل من الآيات والأحكام. قال ابن عباس : خلقهم فريقين : فريقا يرحم فلا يختلف ، وفريقا لا يرحم فيختلف ، فذلك قوله تعالى : فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ. وقوله تعالى : مِنَ الْجِنَّةِ مَنْ : لبيان الجنس ، أي من جنس الجنّة وجنس النّاس .. وقوله تعالى : أَجْمَعِينَ تأكيد.

وفي الصّحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « اختصمت الجنّة والنّار ،

فقالت الجنّة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء النّاس وسقطهم « ٢ » ، وقالت النّار : أوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين ، فقال اللّه عزّ وجلّ للجنّة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ، وقال للنّار : أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء ، ولكلّ واحدة منكما ملؤها ، فأما الجنّة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ اللّه لها خلقا يسكن فضل الجنّة ، وأما النّار فلا تزال تقول : هل من مزيد ، حتى يضع لها ربّ العزّة قدمه ، فتقول : قط قط « ٣ » ، وعزّتك » .

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ٢٧٣

(٢) السّقط : رديء المتاع.

(٣) قط بمعنى حسب ، وهو الاكتفاء. والقطّ : الكتاب والصّكّ بالجائزة ، ومنه قوله تعالى : عَجِّلْ لَنا قِطَّنا.

ج ١٢ ، ص : ١٨١

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- وجوب النّهي عن المنكر والفساد ، والأمر بالمعروف ، كما قال تعالى : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [آل عمران ٣/ ١٠٤] ، و

في الحديث الصّحيح : « إن الناس إذا رأوا المنكر ، فلم يغيّروه ، أوشك أن يعمّهم اللّه بعقاب » .

٢- المصلحون في كلّ زمان ، النّاهون عن الفساد في الأرض كقوم يونس ، وأتباع الأنبياء وأهل الحقّ ناجون من عذاب اللّه تعالى.

٣- التّرف يدعو عادة إلى الإسراف المؤدّي إلى الفسوق والعصيان والظلم ، والمترف : الذي أبطرته النّعمة وسعة المعيشة.

٤- الظّلم أو الاجرام كالشّرك والكفر وإلحاق الأذى والضّرر بالنّاس سبب موجب للعقاب في الدّنيا والآخرة ، لكن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدّنيا من الشّرك ، وإن كان عذاب الشّرك في الآخرة أصعب.

٥- لم يكن اللّه ليهلك قوما بالكفر وحده ، حتى ينضم إليه الفساد في المعاملات والعلاقات الاجتماعية ، كما أهلك اللّه قوم شعيب ببخس المكيال والميزان ، وقوم لوط باللواط.

٦- اللّه تعالى قادر على جعل النّاس كلّهم أمّة واحدة من إيمان أو كفر. قال الضّحّاك في آية : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ .. : أهل دين واحد ، أهل ضلالة ، أو أهل هدى. وقال سعيد بن جبير : على ملّة الإسلام وحدها.

وأما قوله تعالى : وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ فقال مجاهد وقتادة : أي على أديان شتّى.

ج ١٢ ، ص : ١٨٢

و قوله تعالى : وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ قال الحسن ومقاتل وعطاء : الإشارة إلى الاختلاف ، أي وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضّحّاك : ولرحمته خلقهم. واختار الطّبري وتابعه القرطبي : الإشارة بذلك للاختلاف والرّحمة ، وهو أولى في تقديري لأنه يعمّ ، أي ولما ذكر خلقهم. ولام وَلِذلِكَ للعاقبة والصّيرورة كما بيّنا.

(١٩٠/١٢)

و القول بعموم إشارة وَلِذلِكَ أشار إليه مالك رحمه اللّه قال أشهب :

سألت مالكا عن هذه الآية قال : خلقهم ليكون فريق في الجنّة ، وفريق في السّعير ، أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف ، وأهل الرّحمة للرّحمة. وقال ابن عباس أيضا كما تقدّم : خلقهم فريقين : فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه.

٧- استدلّ أهل السّنّة بآية : إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ على أنّ الهداية والإيمان لا تحصل إلا بتخليق اللّه تعالى لأن تلك الرّحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل ، وإرسال الرّسل ، وإنزال الكتب ، وإزالة العذر ، فإن كلّ ذلك حاصل في حقّ الكفار ، فلم يبق إلا أن يقال : تلك الرّحمة هو أنه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة « ١ » .

٨- مما ثبت في الأزل وأخبر تعالى عنه وقدر أنه يملأ ناره ، ويملأ جنّته ، فقال تعالى : وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ .. ، و

أخرج البخاري عن أبي هريرة أنّ النّبي صلى اللّه عليه وسلّم قال عن الجنّة والنّار : « و لكلّ واحدة ملؤها » .

---

(١) تفسير الرّازي : ١٨/ ٧٧- ٧٨ [.....]

ج ١٢ ، ص : ١٨٣

الفائدة العملية من قصص الأنبياء والأمر بالعبادة والتوكل على اللّه تعالى [سورة هود (١١) : الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

الإعراب :

وَ كُلًّا منصوب على المصدر ب نَقُصُّ وتنوينه عوض عن المضاف إليه ، أي كل ما يحتاج إليه ، وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك.

ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ بيان لقوله : وَكُلًّا أو بدل منه ، أو مفعول به.

المفردات اللغوية :

وَكُلًّا وكل نبأ نَقُصُّ نخبرك به ، والقص : تتبع أثر الشيء للإحاطة به ، كما قال تعالى : وَقالَتْ لِأُخْتِهِ : قُصِّيهِ .. [القصص ٢٨/ ١١]. مِنْ أَنْباءِ جمع نبأ : وهو الخبر المهم. نُثَبِّتُ بِهِ نقوّي ونطمئن. فُؤادَكَ قلبك ، أي نجعله راسخا كالجبل ، وهو المقصود من الاقتصاص ، وهو زيادة يقينه ، وطمأنينة قلبه ، وثبات نفسه على أداء الرسالة ، واحتمال أذى الكفار. وَجاءَكَ فِي هذِهِ الأنباء أو الآيات الْحَقُّ ما هو حق وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ إشارة إلى سائر فوائده العامة ، وخصّ المؤمنون بالذكرى لانتفاعهم بها في الإيمان ، بخلاف الكفار.

عَلى مَكانَتِكُمْ على حالتكم أو على تمكنكم واستطاعتكم. إِنَّا عامِلُونَ على حالتنا ، وهو تهديد لهم. وَانْتَظِرُوا عاقبة أمركم. إِنَّا مُنْتَظِرُونَ أن ينزل بكم نحو ما نزل بأمثالكم.

ج ١٢ ، ص : ١٨٤

وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي علم ما غاب فيهما ، لا يخفى عليه خافية مما فيهما.

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ أي يرجع إليه أمرك وأمرهم ، لا محالة ، فينتقم ممن عصى.

فَاعْبُدْهُ وحده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ثق به ، فإنه كافيك. وتقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على ما هو الأنفع للعابد. وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أنت وهم ، فيجازي كلّا ما يستحقه ، وإنما يؤخرهم لوقتهم.

المناسبة :

بعد أن قص اللّه على نبيه أخبار الأنبياء مع أقوامهم ، ذكر فائدة تلك القصص وحصرها في نوعين من الفائدة وهما : تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى ، وبيان ما هو حق وعظة وعبرة وذكرى تذكر المؤمنين. ثم ختم السورة بما بدأها به وهو الأمر بالعبادة ، والتوكل على اللّه ، وعدم المبالاة بعداوة المشركين.

التفسير والبيان :

وكل خبر من الأخبار التي هي من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم نقصها عليك لفائدتين :

الأولى- ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ أي ما به يقوى الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى لأن الأنبياء الذين من قبلك تحملوا في محاجة أقوامهم الأذى الكثير ، فصبروا على ما كذبوا به ، فنصرهم اللّه وخذل أعداءهم الكافرين ، فلك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة.

الثانية- وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ أي وتبين لك في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، أو في هذه الأنباء والآيات ، ما هو الحق والصدق واليقين : وهو وحدانية اللّه وعبادته وحده ، وإثبات البعث ، وفضيلة التقوى والخلق الفاضل ، وفي تلك الأنباء عظة وعبرة يرتدع بها

ج ١٢ ، ص : ١٨٥

الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون. وخصّ هذه السورة بالذكر لأن فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار.

والحق : البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة.

والموعظة : التنفير من الاعتماد الكلي على الدنيا وما فيها من شقاوة ، وإيثارها على الآخرة وما فيها من سعادة.

والذكرى : الإرشاد إلى الأعمال الصالحة الباقية.

(١٩٣/١٢)

و بعد هذا الإنذار والترهيب والترغيب أمر اللّه رسوله بقوله : وَقُلْ لِلَّذِينَ أي وقل للكافرين الذين لا يؤمنون بما جئت به من ربك ، على وجه التهديد : اعملوا على طريقتكم ومنهجكم وحالكم ، وافعلوا كل ما تقدرون عليه في حقي من الشرّ ، كما قال شعيب عليه السّلام لقومه ، فنحن أيضا عاملون على طريقتنا ومنهجنا وما نقدر عليه من الدعوة إلى الخير ، وانتظروا بنا نهاية أمرنا ، إما بموت أو غيره مما تتأملون ، إنا منتظرون عاقبة أمركم ، وما ينزل بكم من عقاب نزل بأمثالكم ، إما من عند اللّه أو بأيدي المؤمنين. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : وانتظروا الهلاك ، فإنا منتظرون لكم العذاب.

والتهديد بقوله : اعْمَلُوا .. مثل قوله تعالى لإبليس : وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ... [الإسراء ١٧/ ٦٤] وقوله سبحانه : فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ [الكهف ١٨/ ٢٩].

وتمني انتهاء أمر النبي حكاه اللّه عن المشركين بقوله : أَمْ يَقُولُونَ : شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ [الطور ٥٢/ ٣٠].

وانتظار مصير الفريقين له شبيه في قوله تعالى : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [الأنعام ٦/ ١٣٥].

ج ١٢ ، ص : ١٨٦

ثم ختم اللّه تعالى السورة بخاتمة جامعة سامية ، جمعت كل مطالب الخير ، فقال : وَلِلَّهِ غَيْبُ .. أي أنه تعالى عالم غيب السموات والأرض في الماضي والحاضر والمستقبل ، وعلمه نافذ في جميع الكليات والجزئيات ، والمعدومات والموجودات ، والحاضرات والغائبات ، ومرجع الكل ومصير الخلائق والكائنات إليه لأنه مصدر الكل ومبدأ الكل ، وهو عظيم القدرة نافذ المشيئة ، قهار للعبيد ، وسيحاسب كل عامل بما عمل يوم الحساب ، من صغير أو كبير.

(١٩٤/١٢)

و إذا كان اللّه هو المتصف بما ذكر ، فاعبده وحده ومن معك من المؤمنين ، وتوكل عليه في كل أمورك حق التوكل ، وثق به تمام الثقة فيما تستطيع وما لا تستطيع ، فمن توكل على اللّه فهو حسبه وكافيه ، وما ربك بغافل عما تعملون ، أي ليس بخفي عليه كل ما يعمل به المكذبون والمصدقون ، وما عليه أحوالهم ، وما تصدر عنه أقوالهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين ، فلا تبال بهم.

روى أحمد والترمذي وابن ماجه أن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال : « الكيّس : من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز : من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على اللّه الأماني » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- في إيراد قصص الأنبياء وما كابدوه من مشاق من أجل دعوتهم تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلّم ، وتثبيت له على أداء الرسالة ، والصبر على ما يناله فيها من الأذى.

وفيها بما تضمنته من بيان ما هو الحق واليقين عظة وعبرة وذكرى لكل مؤمن.

والموعظة : ما يتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية. والذكرى : تذكر المؤمنين

ج ١٢ ، ص : ١٨٧

ما نزل بمن هلك فيتوبون. وخصّ اللّه تعالى المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

٢- فيها تهديد ووعيد الكافرين على أعمالهم ، وندب لهم أن يفعلوا في حق النبي صلى اللّه عليه

وسلّم كل ما يقدرون عليه من الشر ، فلن ينالوا منه شيئا. وفي هذا إعلان الثقة التامة بعصمة اللّه له ، وتأكيد الإيمان بصحة عمله ، والإنذار بسوء عاقبة المخالفين.

٣- العلم بالغيب والشهادة في جميع السموات والأرض ، في الحاضر والماضي والمستقبل مختص باللّه تعالى.

٤- المرجع والمآب في الدار الآخرة إلى اللّه تعالى ، وليس لمخلوق أمر إلا بإذنه.

٥- إيجاب العبادة بالإخلاص للّه وحده ، وإيجاب التوكل على اللّه في كل شيء ، أي اللجوء إليه والثقة به وتفويض الأمور إليه.

٦- اللّه مطلع على أحوال العباد وأقوالهم وأفعالهم ، ويجازي كلّا بعمله ، فلا يضيع طاعات المطيعين ، ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين ، والجزاء بإحضارهم في موقف القيامة ، وحسابهم على الصغير والكبير ، والعتاب على كل شي ء. وتحصل عاقبة الأمر : فريق في الجنة وفريق في السعير.

(١٩٥/١٢)

ج ١٢ ، ص : ١٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف عليه السّلام

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية.

تسميتها وسبب نزولها :

سميت سورة يوسف ، لإيراد قصة النبي يوسف عليه السّلام فيها ،

روي أن اليهود سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم عن قصة يوسف فنزلت السورة.

و

قال سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه- فيما رواه عنه الحاكم وغيره- : أنزل القرآن على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : لو قصصت علينا فنزل : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ [يوسف ١٢/ ٣] و[الكهف ١٨/ ١٣] فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : لو حدثتنا فنزل : اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ [الزمر ٣٩/ ٢٣].

وقد نزلت بعد اشتداد الأزمة على النبي صلى اللّه عليه وسلّم في مكة مع قريش ، وبعد عام الحزن الذي فقد فيه النبي زوجته الطاهرة خديجة ، وعمه أبا طالب الذي كان نصيرا له.

روي في سبب نزولها أن كفار مكة لقي بعضهم اليهود وتباحثوا في شأن محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، فقال لهم اليهود : سلوه ، لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ، وعن قصة يوسف ، فنزلت.

وبالرغم من أنها سورة مكية ، فأسلوبها هادئ ممتع ، مصطبغ بالأنس والرحمة ، واللطف والسلاسة ، لا يحمل طابع الإنذار والتهديد كما هو الشأن

ج ١٢ ، ص : ١٨٩

الغالب في السور المكية. قال عطاء : لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها. وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يتلو هذه السورة ، أسلموا لموافقتها ما عندهم.

مناسبتها لما قبلها :

نزلت هذه السورة بعد سورة هود ، وهي مناسبة لها ، لما في كلّ من قصص الأنبياء ، وإثبات الوحي على النبي صلى اللّه عليه وسلّم. وقد تكررت قصة كل نبي في أكثر من سورة في القرآن ، بأسلوب مختلف ، ولمقاصد وأهداف متنوعة ، بقصد العظة والاعتبار ، إلا قصة يوسف عليه السّلام ، فلم تذكر في غير هذه السورة ، وإنما ذكرت جميع فصولها بنحو متتابع شامل ، للإشارة إلى ما في القرآن من إعجاز ، سواء في القصة الكاملة أو في فصل منها ، وسواء في حالة الإجمال أو حالة التفصيل والبيان.

قال العلماء : ذكر اللّه أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكرّرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرّر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل « ١ » .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة قصة يوسف عليه السّلام ، بجميع فصولها المثيرة ، المفرحة حينا والمحزنة حينا آخر ، فبدأت ببيان منزلته عند أبيه يعقوب وصلته به ، ثم علاقته بإخوته (مؤامرتهم عليه ، وإلقاؤه في البئر ، وبيعه لرئيس شرطة مصر ، وشراؤهم الطعام منه في المرة الأولى ومنحهم إياه دون مقابل ، ومنعهم شراء الطعام في المرة الثانية إن لم يأتوه بأخيهم (بنيامين) وإبقاء أخيه بنيامين لديه في

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ١١٨

ج ١٢ ، ص : ١٩٠

حيلة مدروسة وسرقة مزعومة ، حتى يأتوه بأخيهم لأبيهم ، ثم تعريفه نفسه لإخوته) ، ومحنة يوسف وجماله الرائع ، وقصة يوسف مع امرأة العزيز ، وبراءته المطلقة ، يوسف في غياهب السجون يدعو لدينه ، بوادر الفرج وتعبير رؤيا الملك ، توليته وزيرا للمالية والتجارة ورئاسة الحكم ، إبصار يعقوب حين جاء البشير بقميص يوسف ، لقاء يوسف في مصر مع أبويه وجميع أسرته.

ثم إيراد العبرة من هذه القصة ، وإثبات نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، وتسليته ، وبشائر الفرج بعد الضيق ، والأنس بعد الوحشة ، فإن يوسف عليه السّلام انتقل من السجن إلى القصر ، وجعل عزيزا في أرض مصر ، وكل من صبر على البلاء فلا بد من أن يأتيه الفرج والنصر ، وتحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم ، والدروس والأخلاق المستفادة من قصة يوسف عليه السّلام ، وأهمها نصر الرسل بعد الاستيئاس.

أضواء من التاريخ على قصة يوسف عليه السّلام « ١ » :

نسب يوسف :

هو يوسف بن يعقوب (إسرائيل اللّه) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وهو أحد أولاد يعقوب الاثني عشر ذكرا الذين ولدوا في فدان آرام أثناء رعاية غنم خاله (لابان) مقابل تزوجه ابنتيه ، إلا بنيامين فقد ولد في أرض كنعان بعد رحيله إليها.

قال النبي صلى اللّه عليه وسلّم عن يوسف فيما أخرجه أحمد والبخاري عن ابن عمر : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

وكان يوسف رائع الجمال ، محبوبا لدى أبيه ، مما أثار حقد إخوته عليه وتآمرهم عليه. وقد رأى في منامه في صغره في سن السابعة عشرة سنة أو

---

(١) انظر قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ١٢٠ وما بعدها

ج ١٢ ، ص : ١٩١

الثانية عشرة أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سجدوا له ، فقصّ الرؤيا على أبيه ، فبشره بالنبوة وتعبير الأحلام.

إلقاء يوسف في البئر :

أخذه إخوته معهم إلى البرية بقصد السياحة واللعب ، ثم ألقوه في البئر ، وأخبروا أباهم كذبا أن الذئب أكله ، فلم يقتنع الأب الصالح بكلامهم ، واتهمهم بمكيدة أوقعوها فيه ، ثم أنقذه اللّه بتعلقه بحبل

دلو أدلي في البئر ، ثم باعه آخذوه في مصر بثمن نجس ، وادعوا أنهم اشتروه من سيده ، باعوه لرئيس الشرطة وهو العزيز في محافظة الشرقية قرب بحيرة المنزلة ، واسمه (فوطيفار) أو (أطفير) فأحبه وقال لامرأته زليخا : أَكْرِمِي مَثْواهُ .. وجعله صاحب أمره ونهيه ، ورئيس خدمه والمتصرف في بيته ، وتولاه اللّه تعالى بالهداية والتربية والتوفيق.

محنة يوسف :

وكان جماله الرائع سبب محنته ،

روى مسلم في صحيحة أنه صلى اللّه عليه وسلّم قال : « فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن »

فأحبته امرأة العزيز ، وراودته عن نفسه ، فأبى إيمانا باللّه ، وامتثالا لأمره ، واجتنابا لمنهياته ، وتقديرا لأفضال زوجها عليه : إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وامتنع همّه بها لوجود البرهان عنده ، وهو حرصه على الطاعة ، والتمسك بآداب آبائه ، لأن لَوْ لا حرف امتناع لوجود ، امتنع الهم لوجود البرهان ، كما في قوله تعالى :

وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً ، إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ، لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [القصص ٢٨/ ١٠] أي امتنع إبداؤها بما في نفسها على ابنها ، لوجود الربط على قلبها.

مكيدة امرأة العزيز :

ولما خابت في تحقيق رغبتها منه ، حقدت عليه ، كما هو شأن السادة عند ما

يخالفهم أحد الأتباع. ولما رأت زوجها لدى الباب يريد الدخول ، لفقت عليه التهمة ، وأفهمته أنه يريدها بسوء ، فكذبها يوسف الصّديق ، فاحتكم الزوج العاقل إلى القرائن : إن كان قميصه مزّق من الأمام فهي الكاذبة ، وإن مزق من الخلف فهو الصادق ، لأن المقدم على المرأة يظهر أثر مقاومتها ودفاعها من الناحية الإمامية ، والهارب من المرأة يظهر أثر لحاقها به من الخلف ، فظهرت براءته ، والتصقت التهمة بها ، وأمر يوسف بكتمان الخبر ، وأمرها بالاستغفار لذنبها.

ومع هذا ، شاع خبر امرأة العزيز وفتاها في أرجاء المدينة ، ولامتها النساء ، فأعدت لهن طعاما يحتاج إلى القطع بالسكين ، وآتت كل واحدة سكينا ، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن ، فبهرهن جماله ، فقطعن أيديهن ، وقلن : ما هذا بَشَراً ، إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ فعذرنها ، ثم هددته بالسجن إن لم يستجب لها ، وفشا أمره بين الناس ، فرأى سيده أن يزجه في السجن ، ليحمي سمعة امرأته.

دخول يوسف إلى السجن ودعوته لدينه فيه :

وأدخل يوسف السجن ، ودخل معه السجن فتيان : أحدهما : رئيس الخبازين عند الملك ، والثاني : رئيس سقاته ، فرأى الثاني في منامه أنه يعصر في كأس الملك خمرا ، ورأى الأول أنه يحمل فوق رأسه خبزا وطيرا تأكل الناس منه ، وطلبا من يوسف تعبير الرؤيا.

فأظهر يوسف مقدرته على تأويل الرؤيا ، ولكنه قدم لذلك بدعوته السجناء إلى توحيد اللّه ، قائلا لصاحبيه : أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ؟ وقال للساقي : إنه يسقي ربه خمرا ، وقال للآخر : إنه سيصلب ، فتأكل الطير من رأسه. وتأمل يوسف الفرج وقال لمن ظن أنه ناج منهما : اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ، فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ.

ج ١٢ ، ص : ١٩٣

رؤيا الملك :

(٢٠٠/١٢)

ثم رأى الملك أن سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنابل خضراء حسنة في ساق واحدة يأكلهن سبع يابسات ، فدعا بالسحرة لسؤالهم عن تأويل المنام ، فقالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

فتذكر ساقي الملك يوسف في السجن ، فعرض الأمر على الملك ، فوافق على أن يرسله إلى السجن ليأتي له بالتفسير الصحيح للمنام ، فجاءه فيه ، ثم عاد بالجواب إلى الملك ، فقال الملك : ائتوني بيوسف ، فأبى يوسف الخروج من السجن ، حتى تظهر براءته وحقيقة أمره مع النساء ، فأحضرهن الملك ، وسألهن عنه ، قلن : حاشا للّه ما علمنا عليه من سوء ، وأقرت امرأة العزيز (زليخا) ببراءته ، وقالت : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ. وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ وآية : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي ... من قول امرأة العزيز ، لا من قول يوسف كما يذكر بعض المفسرين خطأ.

خروج يوسف من السجن إلى القصر :

وخرج يوسف من السجن بريئا من التهمة ، وسأله الملك عن أي عمل يرضاه لنفسه ؟ فقال يوسف : اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ فجعله على كل أرض مصر ، وصاحب الأمر والنهي ، ووزيرا للمالية والتجارة ورئاسة الحكم ، وجعل خاتمه في يد يوسف الذي أصبح عمره ثلاثين سنة.

طلب إخوة يوسف الطعام منه :

ومرت السنوات السبع المخصبة ، ثم جاءت السبع المجدبة ، فباع يوسف المصريين من مخازن القمح التي كان قد ادخرها أثناء الخصب ، ثم جاءه أهل

ج ١٢ ، ص : ١٩٤

(٢٠١/١٢)

فلسطين ، وأرسل يعقوب أولاده مع الجمال والحمير لحمل الطعام من مصر ، فلما قدموا عرفهم يوسف ولم يعرفوه ، إذ أصبح في سن الأربعين ، وطلب منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم مرة أخرى ، وأعطاهم الطعام بلا ثمن ، ليأتوه بأخيهم ، دون أن يعلموا أنه ردّ عليهم الثمن ، ووضع نقودهم في أوعيتهم لأنهم سيعودون بها إليه لأنهم لا يقبلون ما ليس لهم.

ولما اشتد القحط بأهل فلسطين ، سمح يعقوب بسفر ابنه (بنيامين) مع إخوته ، فلما قدموا أحسن يوسف ضيافتهم واستقبالهم في حفل غداء ظهرا ، ولكنه لم يأكل معهم جريا على عادة المصريين الذين يعتبرون الأكل مع العبرانيين نجاسة ، وأخبروا خادما ليوسف أنهم عادوا بالفضة ثمن الطعام سابقا ، وبفضة أخرى لشراء القمح.

حيلة يوسف في إبقاء أخيه عنده :

أمر يوسف بتجهيز إخوته من الطعام ، وأمر أن توضع فضة كل واحد في عدله ، وأن يوضع صواع الملك في رحل أخيه بنيامين ، وعند ما عزموا على المسير ، نودوا بأنهم سرقوا سقاية الملك ، وأن من سرقه فهو فداؤه في قانون الملك. ففتشت أعدالهم ، ثم أخرج الصواع من عدل بنيامين ، فتوسطوا لدى الملك واسترحموا أن يأخذ أحدهم بدلا عنه لأن له أبا شيخا كبيرا ، فأبى ، فقالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، فأسرها يوسف في نفسه ، وقال لهم : أنتم شرّ مكانا من هذا السارق.

وسرقة يوسف المزعومة :

أن أمه ماتت وهو صغير ، فكفلته عمته ، ولما أراد أبوه أن يأخذه منها ، ألبسته منطقة لإبراهيم كانت عندها ، وأخفتها تحت ثيابه ، ثم أظهرت أنها سرقت منها ، ثم أخرجتها من تحت ثيابه ، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة ، جزاء له بما صنع.

ج ١٢ ، ص : ١٩٥

فلما قدم إخوة يوسف على أبيهم يعقوب ما عدا أكبرهم وأصغرهم ، أخبروه بما حدث ، فازداد حزنا حتى ابيضت عيناه ، وتذكر يوسف فقال : يا أسفا على يوسف.

تعارف الإخوة ولقاء الأسرة :

(٢٠٢/١٢)

ثم جاء إخوة يوسف إلى مصر في المرة الثالثة ، وطلبوا إمدادهم بالطعام ، لما تعرضوا له من الضرّ (الجوع) قائلين : وجئنا ببضاعة مزجاة أي قليلة ، كما طلبوا إطلاق سراح أخيهم ، فذكرهم يوسف بإساءتهم القديمة قائلا : هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ، إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ فعرفوا أنه يوسف : قالُوا : أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ قالَ : أَنَا يُوسُفُ ، وَهذا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا ...

وأعطاهم قميصه لإلقائه على وجه أبيهم ، والإتيان بأهله أجمعين إليه ، فلما وصلوا فلسطين ألقوا القميص على وجه يعقوب ، فارتد بصيرا ، وبشره البشير بسلامة يوسف وأخيه.

فجاء يعقوب وآله إلى مصر ، فآوى يوسف إليه أبويه : يعقوب وزوجه خالة يوسف ، لموت أمه وهو صغير ، وسجد له أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر سجود تحية وتعظيم ، لا سجود عبادة ، وتلك هي تأويل رؤياه السابقة بسجود أحد عشر كوكبا له مع الشمس والقمر ، وكان هذا اللقاء فرحة كبري للأسرة برئاسة يعقوب ، استوجبت من يوسف إعلان شكر اللّه تعالى على نعمه عليه ، من العلم والملك ، وطلب من اللّه تعالى أن يتولاه في الدنيا والآخرة ، وأن يتوفاه مسلما أي مطيعا للّه ، غير عاص ، وأن يلحقه بالصالحين من آبائه الأنبياء.

العبر والعظات المستفادة من قصة يوسف :

يمكن استخلاص عبر كثيرة وعظات عديدة ، وأخلاق وفضائل سامية من قصة يوسف عليه السّلام ، منها :

١- قد تؤدي النقمة إلى النعمة ، فقد بدأت قصة يوسف بالأحزان والمفاجآت المدهشة ، من الإلقاء به في البئر ، ثم بيعه عبدا لرئيس شرطة مصر ، ثم كانت محنته الشديدة مع النساء ، فزجّ به في غياهب السجون ، ثم آل الأمر به إلى أن يصبح حاكم مصر الفعلي.

٢- قد توجد ضغائن وأحقاد بين الإخوة ربما تدفع إلى الموت أو الهلاك.

(٢٠٣/١٢)

٣- كانت نشأة يوسف في بيت النبوة نشأة صالحة ، تربى فيها على الأخلاق الكريمة ، والخصال الرفيعة ، فشب على تلك الأوصاف الكاملة التي ورثها من آبائه وأجداده الأنبياء ، وقد أفاده ذلك في مختلف الأحداث الكبرى التي مرا ، وانتصر بها على المحن ، وجاءه الفرج بعد الشدة ، والعز والنصر بعد الذل والانكسار.

٤- إن العفة والأمانة والاستقامة مصدر الخير كله ، للرجال والنساء ، على حدّ سواء ، وإن الاستمساك

بالدين والفضيلة مصدر الاحترام وحسن السمعة ، وإن الحق وإن استتر زمنا لا بدّ من أن يظهر ولو بعد حين.

٥- إن مثار الفتنة هو خلوة الرجل بالمرأة ، لذا حرمها الإسلام ، وحرم سفر المرأة لمسافة قصيرة بغير محرم ، ولو بوسائط النقل السريعة الحديثة ، لما يطرأ لها من عثرات ومضايقات ملحوظة ومشكلات تصاحب الأسفار ، ثبت في الحديث الذي أخرجه الترمذي والنسائي : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » .

٦- الإيمان بالمبدأ ، وصلابة الاعتقاد سبيل لتخطي الصعاب ، والترفع عن الدنايا ، وذلك هو الذي جعل ليوسف نفسا كريمة ، وروحا طاهرة ، وعزيمة صماء لا تلين أمام الشهوات والمغريات.

٧- الاعتصام باللّه عند الشدة ، واللجوء إليه عند الضيق ، فلم يأبه يوسف

ج ١٢ ، ص : ١٩٧

عليه السّلام بتوعد امرأة العزيز له بالسجن ، وإنما لجأ إلى اللّه قائلا : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ.

٨- المحنة لا تثني المؤمن عن واجبه في الدعوة إلى اللّه تعالى ، فإن يوسف عليه السّلام بالرغم من كونه في السجن ، انتهز فرصة تأويل رؤيا سجينين معه ، فبادر إلى الدعوة إلى التوحيد ودين اللّه ، لعل الموجودين معه يؤمنون بدعوته ، وقد أسلم فعلا الملك ، ومستعبر الرؤيا الساقي ، والشاهد فيما يقال.

(٢٠٤/١٢)

٩- الفطنة لاستغلال الأحداث والاتصاف بالإباء والشمم ، فلم يبادر يوسف عليه السّلام إلى الخروج من السجن ، حتى تعلن براءته ، وتظهر طهارته ، وشرف نفسه ، حتى لا يوصف بأنه مجرم ، أودع السجون بجرمه.

١٠- إظهار فضيلة الصبر ، فقد كان يوسف متدرعا بدرع الصبر على الأذى ، لاجتياز العقبات والصعاب والمصائب التي تعرّض لها وهي ما ذكر ، والصبر مفتاح الفرج ، ونصف الإيمان ، وطريق تحقيق النصر ، وقد نصره اللّه كما نصر باقي الرسل بعد الاستيئاس. وتوّج نصره بالعفو عن إخوته وكرمه في العفو الذي أصبح مضرب الأمثال ، حتى قال : لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ....

١١- أسفرت قصة يوسف عن براءته المطلقة ، كبراءة الذئب من دمه ، فقد تضافرت شهادات عديدة على براءته ، كما ذكر الرازي « ١ » :

أولها- شهادة رب العالمين : فقد شهد اللّه تعالى ببراءته عن الذنب بقوله :

كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ شهد تعالى في هذه الآية على طهارته

أربع مرات ، بقوله : لِنَصْرِفَ .. واللام للتأكيد

---

(١) تفسير الرازي : ١٨/ ١١٦ وما بعدها.

ج ١٢ ، ص : ١٩٨

و المبالغة ، وقوله : وَالْفَحْشاءَ وقوله : إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا وقوله : الْمُخْلَصِينَ.

وثانيها- شهادة الشيطان ببراءته بقوله : فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [ص ٣٨/ ٨٢] فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ، ويوسف من المخلصين ، للآية السابقة.

وثالثها- شهادة يوسف عليه السّلام بقوله : هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وقوله : رَبِّ ، السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ.

(٢٠٥/١٢)

و رابعها- شهادة امرأة العزيز : فإنها اعترفت ببراءته وطهارته ، فقالت للنسوة : وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَاسْتَعْصَمَ وقالت : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ.

وخامسها- الشهود من أهل العزيز : وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها ، إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ. وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، فَكَذَبَتْ ، وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ .. الآية.

وسادسها- شهادة النسوة اللائي قطّعن أيديهن بقولهن : ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ.

كل تلك الشهادات قاطعة ببراءة يوسف عليه السّلام ، فمن أراد أن يتهمه بالهمّ على السوء- علما بأن الهمّ أمر نفسي لا عقاب عليه- فهو من دعاة السوء ، وأهل الجهالة والغباوة ، وأدنى من الشيطان الذي شهد كما أوضحنا بطهارة يوسف.

١٢- أرشدت قصة يوسف إلى أنه لا دافع لقضاء اللّه تعالى ، ولا مانع من قدر اللّه تعالى ، وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة ، لم يمنعه عنه أحد ولو اجتمع العالم عليه.

ج ١٢ ، ص : ١٩٩

١٣- دلت القصة على أن الحسد سبب للخذلان والخسران.

١٤- الصبر مفتاح الفرج ، فإن يعقوب عليه السّلام لما صبر فاز بمقصوده ، وكذلك يوسف عليه السّلام لما صبر فاز كما تقدم بيانه.

عربية القرآن ومنزلة القصص القرآني [سورة يوسف (١٢) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (٣)

الإعراب :

تِلْكَ آياتُ .. مبتدأ وخبر.

(٢٠٦/١٢)

قُرْآناً حال من هاء. أَنْزَلْناهُ أي أنزلناه مجموعها. وكذلك عَرَبِيًّا حال أخرى.

أَحْسَنَ الْقَصَصِ أَحْسَنَ منصوب نصب المصدر لأنه مضاف إلى المصدر ، وأفعل : إنما يضاف إلى ما هو بعض له ، فينزل منزلة المصدر ، فصار بمنزلة قولهم : سرت أشدّ السير ، وصمت أحسن الصيام. هذَا الْقُرْآنَ هذَا مفعول به ، والْقُرْآنَ بدل أو عطف بيان أو نعت.

وَإِنْ كُنْتَ إن مخففة من الثقيلة ، واللام : هي التي تفرق بينها وبين النافية ، وضمير قَبْلِهِ راجع إلى قوله بِما أَوْحَيْنا والمعنى : وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه.

ج ١٢ ، ص : ٢٠٠

البلاغة :

تِلْكَ آياتُ أشار إلى القرآن بالعبيد لبيان علو منزلته وبعد مرتبته في الكمال.

المفردات اللغوية :

الر البدء بالحروف المقطعة إشارة إلى إعجاز القرآن ، فمن هذه الحروف العربية الأبجدية ونحوها التي تكونت منها لغة العرب ، تألفت آيات الكتاب المعجز ، كما بينا في أول سورة البقرة وآل عمران وغيرهما من السور المتقدمة.

تِلْكَ إشارة إلى آيات السورة. الْكِتابِ الْمُبِينِ أي السورة ، أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم ، أو الواضحة معانيها لنزولها بلسان العرب ، أو المبينة لمن تدبرها أنها من عند اللّه ، لا من عند البشر.

والْمُبِينِ الموضّح المفصل ما يريد. أَنْزَلْناهُ أي الكتاب الذي فيه قصة يوسف. قُرْآناً عَرَبِيًّا مجموعا بلغة العرب ، وسمي بعض القرآن قرآنا لأن القرآن اسم جنس ، يقع على كله وبعضه ، وصار علما للكل بالغلبة. لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ علة لإنزاله بهذه الصفة ، أي أنزلناه مجموعا أو مقروءا بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه.

(٢٠٧/١٢)

الْقَصَصِ إما مصدر بمعنى الاقتصاص ، وإما اسم مفعول بمعنى المقصوص من الخبر والأحاديث. وقص الخبر : حدثه على وجهه الصحيح. وأَحْسَنَ الْقَصَصِ لأنه اقتص على أبدع الأساليب ، أو أحسن ما يقص لاشتماله على العجائب والحكم والآيات والعبر.

بِما أَوْحَيْنا أي بإيحائنا إليك هذا القرآن ، يعني السورة لَمِنَ الْغافِلِينَ عن هذه القصة ، الجاهلين بها ، فلم يكن لك فيها علم قط ، ولا عرفت شيئا منها.

سبب النزول : نزول الآية (٣) :

نَحْنُ نَقُصُّ : روى ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا :

يا رسول اللّه ، لو قصصت علينا ؟ فنزلت : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ.

التفسير والبيان :

تشبه فاتحة هذه السورة فاتحة سورة يونس ، لكن وصف القرآن هنا بالمبين

ج ١٢ ، ص : ٢٠١

و هناك بالحكيم ، والسبب أن سورة يوسف تعبر عن أحداث جسام مرّ بها نبي كريم صبور فناسبها الوصف بالبيان ، وأما سورة يونس فموضوعها إثبات أصول الدين من توحيد اللّه ، وإثبات الوحي والنبوة ، والبعث والجزاء ، وهذه يناسبها الوصف بالحكمة.

والمعنى : تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب ، وهذا تفسير الزمخشري. وقال أبو حيان : والظاهر أن المراد بالكتاب : القرآن ، والْمُبِينِ إما البيّن في نفسه ، الظاهر أمره في إعجاز العرب وتبكيتهم ، وأما المبين الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، وما يحتاج إليه من أمر الدين ، أو المبين الهدى والرشد والبركة.

وعلى أي حال ، فإن الكتاب اسم جنس يطلق على البعض وعلى الكل ، فسواء قلنا : إن المراد به هذه السورة ، أو كل القرآن ، فالمقصود إثبات صفة القرآن ، وصفاته لا تختلف بين السور جميعها ، فكلها واضحة جلية تفصح عن أشياء مبهمة ، وآياتها تبين وتفسر غوامض الأمور ، وتوضح أحكام الشريعة ، وترشد إلى ما هو خير في الدنيا والآخرة.

(٢٠٨/١٢)

قال القرطبي وابن كثير : هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين ، أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها ، يعني بالكتاب المبين :

القرآن المبين ، أي المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه ، وهداه وبركته.

إِنَّا أَنْزَلْناهُ .. أي إنا أنزلنا هذا القرآن على النبي محمد العربي ، بلغة العرب أفصح اللغات وأبينها

وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، لتتعلموا ما لم تكونوا تعلمون من قصص وأخبار ، وآداب وأخلاق ، وأحكام وتشريعات ، ومناهج حياة سليمة في السياسة والاجتماع والاقتصاد وشؤون الدولة ، ولتتدبروا ما فيها من معان وأهداف ، . تبني الفرد والجماعة على أقوم الأسس.

ج ١٢ ، ص : ٢٠٢

قال ابن كثير : فلهذا أنزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة ، فكمل من كل الوجوه.

ولهذا قال تعالى : نَحْنُ نَقُصُّ .. أي نحن نخبرك بأحسن الأخبار ، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن ، الذي جاء تاما كاملا مفصلا كل شيء ، وجاءت قصة يوسف كاملة تامة مفصلة ذات أهداف سامية وعبر كثيرة. وإن كنت من قبل ما أوحينا أي من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عما عرفناك به ، أي من الجاهلين به ، فلا علم لك به قط ، شأنك شأن قومك ، لا يعلمون من قصص الماضين وأخبارهم شيئا.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- القرآن الكريم كتاب مبين ، أوضح الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، والشرائع والأخلاق ، ليكون هدى للعالمين ، وبركة وخيرا للناس أجمعين ، فهو معجزة بيّنة لمحمد صلى اللّه عليه وسلّم.

٢- القرآن العظيم نزل بلسان عربي مبين ، يقرأ بلغة العرب ، فكان معشر العرب أولى الناس بالإيمان به ، وفهم ما فيه ، وتعلم معانيه.

٣- القرآن بيان جلي متضمن أحسن القصص ، وأثبت الأخبار ، وأجدى الآثار وتواريخ الأمم الماضية.

والمراد بأحسن القصص : أنه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب ، أي أن المراد من الحسن حسن البيان وكون الألفاظ بالغة بالفصاحة حد الإعجاز.

٤- قصة يوسف عليه السّلام أحسن القصص ، والسبب في تسمية هذه

ج ١٢ ، ص : ٢٠٣

السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص هو ما تضمنته هذه القصة من العبر والحكم ، وما اشتملت عليه من التوحيد والفقه والسّير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجميل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا ، وذكر الأنبياء والصالحين ، والملائكة والشياطين ، والجنّ والإنس ، والأنعام والطير ، وأخبار الملوك والممالك ، والتجار والعلماء والجهّال ، والرجال والنساء وحيلهن

ومكرهن.

فهي قصة جامعة شاملة للدين والدنيا والحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية الملأى بالعبر والعظات ، ولعل من أهمها الصبر على الأذى والعفو عند المقدرة.

الفصل الأول من قصة يوسف عليه السّلام رؤيا يوسف وتعبير يعقوب الرؤيا [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٤ الى ٦]

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (٤) قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

الإعراب :

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ إِذْ في موضع نصب على الظرف ، وعامله (الغافلين) وهو

بدل اشتمال من أَحْسَنَ الْقَصَصِ لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص ، أو بإضمار « اذكر » .

ويُوسُفُ ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة ، ووزنه يفعل ، وليس في كلام العرب يفعل.

يا أَبَتِ من قرأ بكسر التاء ، جعلها بدلا عن ياء الإضافة ، ويوقف عليها بالهاء عند سيبويه لأنه ليس ثمّ « ياء » مقدرة. وذهب الفراء إلى أن الياء في النّية ، والوقف عليها بالتاء ، وعليه أكثر القراء اتباعا للمصحف.

ومن قرأ بفتح التاء ففيه وجهان : إما أصله « يا أبتي » فأبدل من الكسرة فتحة ، ومن الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت الألف فصارت يا أَبَتِ. وإما أنه محمول على قول من قال : يا طلحة بفتح التاء ، كأنه قد رخّم ، ثم ردّ التاء وفتحها ، تبعا لفتح الحاء ، فقال :

يا طلحة.

رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ أجرى الكواكب والشمس والقمر مجرى العقلاء لأن السجود من صفات من يعقل ، فوصفها بصفات من يعقل. وساجِدِينَ حال من الهاء والميم في رَأَيْتُهُمْ.

فَيَكِيدُوا منصوب بأن مضمرة ، وعدي باللام مع أنه متعد بنفسه ، لتضمينه معنى فعل يتعدى باللام ، للتأكيد والمبالغة في التخويف.

البلاغة :

إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. فيها استعارة لأن الكواكب والمذكور معها مما لا يعقل ، فكان الأصل أن يقال : ساجدة ، فلما وصفها بصفات العقلاء وهو السجود ، أطلق عليها فعل من يعقل على طريق الاستعارة.

كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية :

إِذْ قالَ أي ذكر ، أو بدل من أَحْسَنَ الْقَصَصِ بدل اشتمال إن جعل أَحْسَنَ مفعولا به لِأَبِيهِ هو يعقوب ،

(٢١١/١٢)

روى أحمد والبخاري أن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

إِنِّي رَأَيْتُ في المنام من الرؤيا لا من الرؤية. أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً هم إخوة يوسف ، وكانوا أحد عشر ، والشمس والقمر : أبوه

ج ١٢ ، ص : ٢٠٥

و أمه. رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ إما تأكيد ، أو استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها ، فلا تكرار.

وإنما أجريت مجرى العقلاء لوصفها بصفاتهم ، وهو السجود الذي هو من صفات العقلاء. والسجود المراد هنا : هو الانحناء ، مبالغة في الاحترام ، وليس سجود عبادة لأن سجود العبادة لا يكون إلا بنية التقرب لمن يعتقد أن له عليه سلطانا غيبيا فوق السلطان المعتاد.

لا تقصص رؤياك قص الرؤيا : الإخبار بها ، والرؤيا كالرؤية ، غير أنها مختصة بما يكون في النوم ، ففرق بينهما ، بتاء التأنيث المربوطة ، كالقربة والقربى. والرؤيا : انطباع الصورة المنحدرة من الخيال إلى الحس المشترك ، فتصير مشاهدة. فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً يحتالون في هلاكك حسدا.

عَدُوٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء. وَكَذلِكَ ومثل ذلك الاجتباء.

يَجْتَبِيكَ يختارك ويصطفيك ، أي وكما اجتباك ربك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز ، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام. وَيُعَلِّمُكَ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه ، كأنه قيل : وهو يعلمك ويتم نعمته عليك. مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ تعبير الرؤيا : أي الإخبار بما يؤول إليه الشيء في الوجود ، وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها ، وتعبير الرؤيا يميز بين أحاديث الملك الصادقة وبين أحاديث النفس والشيطان الكاذبة.

(٢١٢/١٢)

وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بالنبوة. وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ أي أهله وأولاده. والآل : خاص بمن لهم شرف وخطر. كَما أَتَمَّها بالنبوة. مِنْ قَبْلُ اي من قبلك أو من قبل هذا الوقت.

عَلِيمٌ بخلقه وبمن يستحق الاجتباء. حَكِيمٌ في صنعه بهم ، يفعل الأشياء على ما ينبغي.

المناسبة :

هذا شروع في بيان أحسن القصص ، وهذه بداية مثيرة مجملة في حلقات أو فصول قصة يوسف ، تجتذب ذهن القارئ والسامع لتعرف ما هو المصير ، وكيف يتم حل اللغز المبهم المبدوء بقصّ يوسف رؤياه الغريبة على أبيه وهو صغير ، وما أجابه به ، من إخفاء الرؤيا على إخوته حتى لا يحسدوه ويكيدوا له وهذا.

الأسلوب يحتذيه واضعو القصص ، إذ يبدءون القصة بلغز أو نبأ مثير ، ثم يتدرجون في حل اللغز وبيان أبعاد النبأ وحقيقته.

هل أبناء يعقوب أنبياء ؟

يفسر بعض المفسرين الأسباط في آية قُولُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا

ج ١٢ ، ص : ٢٠٦

وَ ما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ

[البقرة ٢/ ١٣٦] بأنهم إخوة يوسف وأنهم أنبياء. والصحيح كما ذكر ابن كثير أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب ، وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم : الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب « ١ » .

التفسير والبيان :

(٢١٣/١٢)

اذكر يا محمد لقومك قصة يوسف حين قال لأبيه يعقوب : إني رأيت في منامي أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر تسجد لي ، سجود احترام وانحناء وخضوع وتواضع ، لا سجود عبادة ، وقد وصف فعل غير العاقل بوصف العاقل وهو السجود ، للدلالة على أنها رؤيا إلهام ، لا مجرد أضغاث أحلام.

قال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحي. والرؤيا الصالحة جزء من النبوة ، ونوع من الإخبار بالغيب إذ رآها صالح وتأولها عالم صالح. وتكون بارتسام الوقائع على الروح الصافية ، وتظهر غالبا موافقة لحديث النفس.

والأحد عشر كوكبا هم إخوته الأحد عشر نفرا ، والكواكب هم الإخوة ، والشمس والقمر أبوه وأمه.

وهذا رأي جماعة من المفسرين لأن الكواكب لا تسجد في الحقيقة ، فيحمل الكلام على الرؤيا ، ولقول يعقوب عليه السّلام :

لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ.

وذكر ابن جرير الطبري عن جابر قال : أتى النبي صلى اللّه عليه وسلّم رجل من يهود ، يقال له : بستانة اليهودي ، فقال له : يا محمد ، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ، ما أسماؤها ؟ قال فسكت النبي صلى اللّه عليه وسلّم ساعة ، فلم يجبه بشيء ، ونزل عليه جبريل عليه السّلام ، فأخبره بأسمائها ، قال : فبعث

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٦٩- ٤٧٠

ج ١٢ ، ص : ٢٠٧

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم إليه ، فقال « هل أنت مؤمن إذا أخبرتك بأسمائها ؟ » فقال : نعم ، قال : « جريان ، والطارق والذيال ، وذو الكنفات ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح ، ودو الفرغ ، والضياء والنور » فقال اليهودي : إي واللّه إنها لأسماؤها « ١ » .

قالَ : يا بُنَيَّ .. قال يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا المتضمنة خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه إجلالا واحتراما وإكراما :

(٢١٤/١٢)

لا تخبر إخوتك بما رأيت ، حتى لا يحسدوك ، ويحتالوا لك حيلة توقعك في مكروه ، فإن الشيطان عدو لآدم وبنيه ، ومن دأبه إيقاع الفتنة بين الناس ، كما قال يوسف نفسه : مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي [يوسف ١٢/ ١٠٠].

وثبت في السنة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال : « إذا رأى أحدكم ما يحب ، فليحدّث به ، وإذا رأى ما يكره ، فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثا ، وليستعذ باللّه من شرها ، ولا يحدث بها أحدا ، فإنها لن تضره » « ٢ » .

وروى الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبّر ، فإذا عبرت وقعت » .

وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ .. أي كما اختارك ربك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ، يختارك لنفسه ويصطفيك لنبوته على آلك وغيرهم ، ويعلمك تعبير الرؤيا.

وتعبير الرؤيا : الإخبار بما تؤول إليه في الوجود. وتعليم اللّه يوسف التأويل :

(١) ورواه البيهقي في الدلائل عن الحكم بن ظهير ، والحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما ، وابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٦٨) لكن الحكم بن ظهير ضعيف.
(٢) رواه البخاري عن أبي سلمة.
ج ١٢ ، ص : ٢٠٨

إلهامه الصواب فيها ، أو صدق الفراسة ، كما قال يوسف لأبيه : هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ ، قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا [يوسف ١٢/ ١٠٠] وقال لصاحبي السجن : لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ، ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي [يوسف ١٢/ ٣٧] وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ... أي بإرسالك والإيحاء إليك ، وعلى آل يعقوب ، أي أبيك وإخوتك وذريتهم ، وآل الإنسان : أهله ، وهو خاص بمن لهم مجد وشرف ، كآل النبي صلى اللّه عليه وسلّم.
كَما أَتَمَّها .. أي كإتمام تلك النعمة من قبل هذا الوقت على جدك إسحاق ، وجد أبيك إبراهيم ، وقدم إبراهيم لأنه الأشرف ، إن ربك عليم بخلقه وبمن يستحق الاجتباء والاصطفاء ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، كما في آية أخرى ، حكيم في صنعه وتدبيره ، يفعل الأشياء على ما ينبغي.
فقه الحياة أو الأحكام :
دلت الآيات على ما يلي :
١- رؤيا الأنبياء حق ، ورؤيا الصالحين جزء من النبوة ، والكواكب هي إخوة يوسف ، والشمس والقمر أبوه وأمه ، وهذا هو الأصح. قال الحكماء : إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب ، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين.
والرؤيا حالة شريفة ومنزلة رفيعة ،
قال صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة : « لم يبق بعدي من المبشّرات : الرؤيا الصالحة الصادقة ، يراها الرجل الصالح ، أو ترى له »
و
قال في رواية لحديث عند الشيخين عن أبي هريرة : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا »
و
حكم صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة

، وهو أصح الروايات.
وإنما كانت الرؤيا جزءا من النبوة لأن فيها ما يعجز ويمتنع ، كالطيران ،
ج ١٢ ، ص : ٢٠٩

(٢١٦/١٢)

و قلب الأعيان ، والاطلاع على شيء من علم الغيب. والرؤيا الصادقة من اللّه ، وهي التي خلصت من الأضغاث « ١ » والأوهام ،
قال صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي قتادة : « الرؤيا الصالحة من اللّه ، والحلم من الشيطان » .
والتصديق بالرؤيا الصالحة حق.
أما رؤيا الكافر والفاجر والفاسق والكاذب ، وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب ، يكون خبره ذلك نبوة. ومن المعلوم أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق ، لكن ذلك نادر وقليل ، فكذلك رؤيا هؤلاء.
و حقيقة الرؤيا : هي إدراك حقيقة في أثناء النوم ، وأكثر ما تكون في آخر الليل ، لقلة غلبة النوم ، وتسمى أحلام اليقظة ، فيخلق اللّه للرائي علما ناشئا.
ولا يرى الرائي في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة ، فلا يرى المستحيل ، وإنما يرى الجائزات المعتادات. ويمثل اللّه في الرؤيا للرائي صورة محسوسة ، قد توافق الواقع ، وقد تكون لمعاني معقولة غير محسوسة ، وفي الحالتين قد تكون مبشّرة أو منذرة.
٢- لا تقص الرؤيا على غير عالم ولا محب ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها ،
أخرج الترمذي حديثا : « الرؤيا معلّقة برجل طائر ، ما لم يحدّث بها صاحبها ، فإذا حدّث بها وقعت ، فلا تحدّثوا بها إلا عاقلا أو محبّا أو ناصحا » .
٣- يطلب كتمان النعمة أمام من تخشى غائلته حسدا وكيدا ، حتى توجد وتظهر ، كما ورد في حديث أخرجه الطبراني والبيهقي وغيرهما عن عمر :
« استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

---

(١) سميت الرؤيا الكاذبة أو الحلم ضغثا لأن فيها أشياء متضادة ، وهي من الشيطان.
ج ١٢ ، ص : ٢١٠

(٢١٧/١٢)

٤- يباح أن يحذّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه ، ولا يكون داخلا في معنى الغيبة لأن يعقوب (إسرائيل) عليه السّلام قد حذّر يوسف عليه السّلام أن يقص رؤياه على إخوته ، فيكيدوا له كيدا.

٥- في الآية دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السّلام بتأويل الرؤيا ، فإنه عرف أن يوسف سيظهر على إخوته ، فسّره ذلك ودل على أن محبته له كانت مبنية على مقومات فيه ، والرجل يودّ أن يكون ولده خيرا منه ، أما الأخ فلا يودّ ذلك لأخيه.

ودلت الآية أيضا على أن يعقوب عليه السّلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه ، فنهاه عن قص الرؤيا عليهم خوف المكيدة والحسد ، والعمل على هلاكه. ودل هذا وفعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء لأن الأنبياء معصومون من الحسد الدنيوي ، ومن عقوق الآباء ، وتعريض مؤمن للهلاك ، وتآمر على قتله.

٦- اشتمل كلام يعقوب مع ابنه يوسف على عدة بشائر ، فأخبره أنه كما أكرمه اللّه بالرؤيا ، فإن اللّه يجتبيه ويحسن إليه بتحقيق الرؤيا ، بالسجود له.

والاجتباء : اختيار معالي الأمور للمجتبى ، ويعلمه كيفية تعبير الرؤيا وتأويل أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، وهي إشارة إلى النبوة ، ويتم نعمته عليه بالنبوة ، كما أتم تلك النعمة على أجداده : إسحاق وإبراهيم ، فجعل اللّه إبراهيم خليلا ونبيا ونجاه من النار ، وجعل إسحاق نبيا أيضا ، وفي قول غير راجح : إنه الذبيح ، والنعمة : الذبح.

والخلاصة : إن القول الصحيح في تفسير النعمة على يوسف وغيره هي النبوة لأن النعمة التامة في حق البشر ليست إلا النبوة ، وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة إليها. وإن يعقوب وعد يوسف بدرجات ثلاث : هي الاجتباء أو الاصطفاء ، وتعبير الرؤيا أو تأويلها ، والنبوة

ج ١٢ ، ص : ٢١١

الفصل الثاني من قصة يوسف يوسف وإخوته

- ١- اتفاقهم على إلقائه في البئر [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٧ الى ١٠]

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (٩) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (١٠)

الإعراب :

آياتٌ لِلسَّائِلِينَ آياتٌ جمع آية ، وآية على وزن « فعلة » بكسر العين ، فتقلب العين ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فتصير آية « لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ » مبتدأ وخبر.

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ مبتدأ وخبر ، والواو حالية.

أَرْضاً منصوب على أنه ظرف مكان ، وتعدّى إليه. اطْرَحُوهُ وهو لازم لأنه ظرف مكان مبهم ، وليس له حدود بحصره ولا نهاية تحيط به ، لأنه نكرة ، فنصبت كالظروف المبهمة. أو انتصب على إسقاط حرف الجر.

يَخْلُ لَكُمْ جواب الأمر. وَتَكُونُوا مجزوم بالعطف على يَخْلُ أو منصوب بإضمار أن.

ج ١٢ ، ص : ٢١٢

المفردات اللغوية :

فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ أي في خبرهم وقصتهم ، وهم أحد عشر وإخوته العشر هو : يهوذا ، وروبيل ، وشمعون ، ولاوي ، وربالون ، ويشجر ، ودينة ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر.

والسبعة الأولون كانوا من « ليا » بنت خالة يعقوب ، والأربعة الآخرون من سرّيّتين (أمتين) :

زلفة وبلهة ، فلما توفيت « ليا » تزوج يعقوب أختها « راحيل » فولدت له بنيامين ويوسف « ١ » .

(٢١٩/١٢)

لآيات عبر ، أو علامات ودلائل على قدرة اللّه تعالى وحكمته في كل شيء لمن سأل عنهم وعرف قصتهم ، والظاهر أنها الدلالات على صدق الرسل. لِلسَّائِلِينَ عن خبرهم. إِذْ قالُوا اذكر حين قال بعض إخوة يوسف لبعضهم. وَأَخُوهُ بنيامين. عُصْبَةٌ جماعة رجال ما بين الواحد والعشرة. لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ خطأ بيّن ، بإيثارهما علينا وتفضيله المفضول ، أو لترك العدل في المحبة. روي أن يوسف كان أحب إلى أبيه ، لما يرى فيه المخايل ، وكان إخوته يحسدونه ، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة ، بحيث لم يصبر عنه ، فتبالغ حسدهم حتى حملهم على التعرض له.

اقْتُلُوا يُوسُفَ من جملة المحكي بعد قوله : إذ قالوا ، كأنهم اتفقوا على ذلك الأمر إلا من قال : لا تقتلوا يوسف. أَرْضاً أي بأرض بعيدة من العمران. يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ يصف لكم ، فيقبل عليكم ولا يلتفت إلى غيركم. مِنْ بَعْدِهِ من بعد يوسف أو من بعد قتله أو طرحه.

صالِحِينَ تائبين إلى اللّه تعالى عما جنيتم ، بأن تتوبوا ، أو صالحين مع أبيكم ، أو في أمر دنياكم.

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ هو يهوذا ، وكان أحسنهم فيه رأيا ، وقيل : روبيل لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ فإن القتل عظيم.

وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ في قعره سمي به لغيبوبته عن أعين الناظرين. السَّيَّارَةِ المسافرين ، الذين

يسيرون في الأرض. إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ما أردتم من التفريق بينه وبين أبيه ، أو فاعلين بمشورتي ، فاكتفوا بذلك.

المناسبة :

هذه بداية قصة يوسف مع إخوته ، بعد أن قدم اللّه تعالى لها بمقدمتين :

الأولى- وصف القرآن ، وأنه تنزيل من عند اللّه بلسان عربي مبين ، دال على رسالة النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، ورتب عليه : ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ. والثانية- الكلام على رؤيا يوسف وتأثيرها في نفس يعقوب ، وبنى عليها العبرة منها وهي يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ ، قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا.

(١٢/٢٢٠)

---

(١) الكشاف : ٢/ ١٢٤

ج ١٢ ، ص : ٢١٣

التفسير والبيان :

تاللّه ، لقد كان في قصة يوسف مع إخوته لأبيه عبرة ومواعظ للسائلين الذين سألوا عنهم ، دالة على قدرة اللّه تعالى وحكمته في كل شيء لكل سائل عن أحداث القصة ، ودالة على صدق الرسول يوسف وغيره ، وعلى ما أظهر اللّه في قصة يوسف من عواقب البغي عليه ، وصدق رؤياه ، وصحة تأويله ، وضبط نفسه وقهرها ، حتى قام بحق الأمانة « ١ » . فذلك خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه.

إنه لعبرة حين قالوا : واللّه ليوسف وأخوه بنيامين شقيقه أحب إلى أبينا منا ، فهو يفضلهما علينا في الحب ، وهما صغيران ، ونحن جماعة عشرة رجال.

حلفوا فيما يظنون ، وأَحَبُّ أفعل تفضيل أي أكثر حبا منا. والعصبة :

ما بين الواحد إلى العشرة.

إن أبانا لفي خطأ واضح مجاف الصواب في ذلك ، بإيثار يوسف وأخيه علينا بالمحبة ، وتركه العدل والمساواة في المحبة ، فكيف يفضّل صغيرين ضعيفين لا كفاية فيهما ولا منفعة ، على رجال أشداء ، نقوم بكل ما يحتاج إليه من منافع معاشية ودفاعية ، وكيف يحب الاثنين أكثر من الجماعة ؟ ! وهذا في الحقيقة خطأ منهم لا من أبيهم لأن يوسف وأخاه صغيران يتيمان ماتت أمهما ، ولأنه كان يرى في يوسف إرهاصات النبوة والعقل والحكمة ، وتأكد توقعه بما فهم من رؤياه.

ومع ذلك يطلب الاحتياط في معاملة الأولاد والتسوية بينهم في المحبة والمعاملة ولو في القبلة ، وتجنب ما يثير التحاسد والتباغض بينهم ، كما

أوصى النبي

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ٢٨٢

صلى اللّه عليه وسلّم فيما يرويه البخاري ومسلم وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن النعمان بن بشير : « اتقوا اللّه ، واعدلوا بين أولادكم »

و

ما يرويه الطبراني عن النعمان بن بشير أيضا : « اعدلوا بين أولادكم في النّحل ، كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف » .

ثم ذكر اللّه تعالى مؤامرتهم بقوله : اقْتُلُوا .. أي ومما قالوا ، أي قال بعض إخوة يوسف لبعض : اقْتُلُوا يُوسُفَ حسما للمشكلة ، أو انبذوه في أرض مجهولة عن العمران ، فلا يستطيع الرجوع إلى أبيه ، فإن فعلتم ذلك تستريحوا منه ، ويصف لكم وجه أبيكم ، وتخلوا أنتم مع أبيكم ، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها ، وتكونوا من بعد يوسف أو بعد قتله أو طرحه أرضا قوما تائبين إلى اللّه مما جنيتم عليه ، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه ، أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده ، بخلوّ وجه أبيكم ، فيرضى عنكم ربكم وأبوكم.

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ ... أي قال أكبرهم وهو يهوذا ، وقيل : روبيل :

لا تقدموا على قتله ، فإن القتل جريمة عظيمة ، وهو أخوكم ، ولكن ألقوه في أسفل البئر ، يلتقطه بعض المسافرين الذين يسيرون في الأرض للتجارة ، فتستريحوا منه بهذا ، ويتحقق غرضكم وهو إبعاده عن أبيه ، ولا حاجة إلى قتله ، إن كنتم فاعلين ، أي عازمين على ما تقولون ، وفاعلين ما هو الصواب ، فهذا هو الرأي.

وقوله : اقْتُلُوا يُوسُفَ فيه حذف ، أي قال قائل منهم : اقتلوا.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- في قصة يوسف وإخوته دلالة على صدق الرسل ، وعبرة تمخضت عنها

و هي التنبيه على عاقبة البغي والحسد ، وفضيلة ضبط النفس ، والتصديق بتعبير الرؤيا وصحة تأويلها إن كانت من نبي أو عالم ناصح.

(٢٢٢/١٢)

٢- لقد دفع التباغض والتحاسد والغيرة إخوة يوسف على تدبير مؤامرة لقتله أو إلقائه في بادية بعيدة عن الناس حتى يهلك ، أو يأخذه بعض التجار المسافرين ويتملكونه لأن خبر المنام بلغهم ، فتآمروا على كيده ، أو لمجرد الغيرة الشديدة من عاطفة أبيهم نحو يوسف وأخيه.

٣- إن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد ، ويورث الآفات ، لكن يعقوب عليه السّلام العالم بذلك لم يفضل ولديه يوسف وأخيه إلا في المحبة ، والمحبة ليست في وسع البشر ، فكان معذورا فيه ، ولا لوم عليه.

٤- دل قوله : وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ أي تائبين ، بأن تحدثوا توبة بعدئذ ، فيقبلها اللّه منكم ، وهو دليل على أن توبة القاتل مقبولة لأن اللّه تعالى لم ينكر هذا القول منهم ، كما ذكر القرطبي « ١ » .

٥- علق محمد بن إسحاق على مؤامرة أولاد يعقوب على أخيهم يوسف فقال فيما رواه ابن أبي حاتم : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له ، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل ، وخطره عند اللّه ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه ، على كبر سنه ، ورقة عظمه ، مع مكانه من اللّه ، ممن أحبه طفلا صغيرا ، وبين الأب وابنه على ضعف قوته ، وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه ، يغفر اللّه لهم ، وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمرا عظيما « ٢ » .

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ١٣١

(٢) تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٧٠

ج ١٢ ، ص : ٢١٦

(٢٢٣/١٢)

٦- أفعال إخوة يوسف المتقدمة تدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء ، لا أولا ولا آخرا لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا. ومما يرد قول من قال إنهم

أنبياء : أن الأنبياء معصومون من الكبائر. وقيل : ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ، ثم نبأهم اللّه « ١ » وقد سبق بيان الرأي الأصح في هذا عن ابن كثير وغيره.

حكم الالتقاط :

الالتقاط : تناول الشيء من الطريق ، ومنه اللقيط واللّقطة. أما اللقيط :

فالأصل فيه الحرية ، لغلبة الأحرار على العبيد ، فهو قضاء بالغالب ، وهو مسلم أخذا بالغالب أيضا ، فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون ، قال ابن القاسم ، يحكم بالأغلب فإن وجد عليه زيّ اليهود فهو يهودي ، وإن وجد عليه زيّ النصارى فهو نصراني ، وإلا فهو مسلم ، إلا أن يكون أكثر أهل القرية على غير الإسلام.

وقال غير ابن القاسم : لو لم يكن في القرية إلا مسلم واحد ، قضي للقيط بالإسلام ، تغليبا لحكم الإسلام الذي يعلو ، ولا يعلى عليه.

أما النفقة عليه : فقال أبو حنيفة : إذا أنفق الملتقط على اللقيط فهو متطوع ، إلا أن يأمره الحاكم.

وقال مالك : إذا أنفق عليه الملتقط ، ثم أقام رجل البينة أنه ابنه ، فإن الملتقط يرجع على الأب ، إن كان طرحه متعمدا ، وإن لم يكن طرحه ، ولكنه ضل منه فلا شيء على الأب ، والملتقط متطوع بالنفقة.

وقال الشافعي : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته في بيت المال ، فإن لم

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ١٣٣

ج ١٢ ، ص : ٢١٧

يكن ففيه قولان : أحدهما- يستقرض له في ذمته. والثاني- يقسط على المسلمين من غير عوض.

و الخلاصة : اتفق العلماء على أنه إذا لم يكن للقيط مال : إن شاء تبرع الملتقط بالإنفاق عليه ، وإن شاء رفع الأمر إلى الحاكم ، لينفق منه على حساب بيت المال المعدّ لحوائج المسلمين. وإن كان للقيط مال ، بأن وجد معه مال ، فتكون النفقة من مال اللقيط لأنه غير محتاج إليه.

ولو أنفق عليه الملتقط من مال نفسه : فإن أنفق بإذن القاضي ، فله أن يرجع على الملتقط بعد بلوغه ، وإن أنفق بغير إذن القاضي ، يكون متبرعا ، ولا يرجع على اللقيط بشي ء.

وأما اللقطة والضّوال- وهما بمعنى واحد على الأصح « ١ » - فأجمع العلماء على أنها ما لم تكن تافها يسيرا ، أو شيئا لا بقاء لها ، فإنها تعرّف حولا كاملا ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحق بها

من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول ، وأراد صاحبها أن يضمّنه ، فإن ذلك له ، وإن تصدق بها فصاحبها مخيّر بين التضمين وبين الرضا بالثواب أو الأجر على التصدق بها ، وليس لملتقطها التصدق بها أو التصرف قبل الحول. وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها ، له أكلها.

وللعلماء آراء في الأفضل من ترك اللقطة أو أخذها ، فقال المالكية : إن شاء أخذها وإن شاء تركها ، ونقل عن مالك وأحمد كراهة الالتقاط ، ودليلهم حديث أصحاب الكتب الستة عن زيد بن خالد الجهني في الشاة : « هي لك أو

---

(١) وقيل : إن الضالة لا تكون إلا في الحيوان ، واللقطة في غير الحيوان ، وأنكر أبو عبيد القاسم بن سلّام ذلك.

لأخيك ، أو للذئب » ولا تلزم صاحبها بيّنة عندهم وعند الحنابلة ، ويكفي بيان علاماتها ، من وعاء ووكاء مثلا.

وذهب الحنفية ، والشافعية في الأصح إلى أنه يجوز الالتقاط ، لحفظ اللقطة لصاحبها ، صيانة لأموال الناس ، ومنعا من ضياعها ووقوعها في يد خائنة.

و لكن لا تدفع لصاحبها إلا إذا أقام البينة أنها له.

وكذلك للعلماء آراء في النفقة على الضوال ، فقال المالكية : للملتقط الرجوع بالنفقة على صاحبها ، سواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره.

وقال الشافعية والحنابلة : لا يرجع الملتقط بشيء من النفقة ، لأنه متطوع.

وكذا قال الحنفية : إن أنفق الملتقط على اللقطة بغير إذن الحاكم فهو متبرع أو متطوع ، وإن أنفق عليها بإذن الحاكم ، كان ما ينفقه دينا على المالك ، فيرجع عليه.

وأما تملك اللقطة بعد تعريفها سنة ، فقال الحنفية : إذا كان الملتقط غنيا ، لم يجز له أن ينتفع باللقطة ، وإنما يتصدق بها على الفقراء ، وإذا كان فقيرا فيجوز له الانتفاع بها بطريق التصدق ، لقوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البزار والدار قطني عن أبي هريرة : « فليتصدق به » .

وقال الجمهور : يجوز للملتقط أن يتملك اللقطة ، وتكون كسائر أمواله ، سواء أكان غنيا أم فقيرا ، فإن عرف صاحبها في المستقبل ضمنها له.

- ٢- تنفيذ إخوة يوسف مؤامرتهم وتدليسهم الأمر على أبيهم [سورة يوسف (١٢) : الآيات ١١ الى ١٨]

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (١٢) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (١٣) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥)

وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (١٦) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ (١٧) وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (١٨)

ج ١٢ ، ص : ٢١٩

الإعراب :

تَأْمَنَّا : أصله : تأمننا ، فاجتمع حرفان متحركان من جنس واحد ، فاستثقلوا اجتماعهما فسكنوا الأول منهما وأدغموه في الثاني ، وبقي الإشمام يدل على ضمة الأولى. والإشمام : ضم الشفتين من غير صوت ، وهذا يدركه البصير دون الضرير.

يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ العين في يَرْتَعْ ساكنة للجزم على وزن « يفعل » ، ويقرأ بكسر العين ، وأصله يرتعي على وزن يفتعل ، من الرّعي ، إلا أنه حذفت الياء للجزم.

أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ أن الأولى وصلتها : في تأويل مصدر فاعل لَيَحْزُنُنِي وأن الثانية وصلتها : في تأويل مصدر مفعول أَخافُ. والواو في قوله وَنَحْنُ عُصْبَةٌ للحال.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ .. جواب « لما » محذوف ، وتقديره : فلما ذهبوا به حفظناه.

عِشاءً أي ليلا ، وهو ظرف في موضع الحال.

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ : إما مبتدأ وخبره محذوف ، أي فصبر جميل أمثل من غيره ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي فصبري صبر.

ج ١٢ ، ص : ٢٢٠

البلاغة :

بِدَمٍ كَذِبٍ الدم لا يوصف بالكذب ، والمراد : بدم مكذوب فيه ، وجيء بالمصدر على طريق المبالغة.

المفردات اللغوية :

لَناصِحُونَ لقائمون بمصالحه ، والناصح : المشفق المحب للخير ، أي ونحن نشفق عليه ونريد له الخير ، أرادوا استنزاله عن رأيه في حفظه منهم ، لما تنسم من حسدهم أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً إلى البرية أو الصحراء ، والغد : اليوم التالي ليومك يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ يرتع : يتسع في أكل الفواكه ونحوها ، من الرتعة : وهي الخصب ، والرتع : التوسع في الملاذ ، والأكل من الفاكهة حيث شاء.

ويلعب : ينشط ويلعب بالاستباق والانتضال بالسهام لَحافِظُونَ أن يناله مكروه لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ذهابكم ، لشدة مفارقته أو فراقه علي وقلة صبري عنه ، والحزن : ألم في النفس لفقد محبوب أو وقوع مكروه. والخوف : ألم في نفس مما يتوقع من مكروه.

أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ المراد به الجنس ، وكانت أرضهم مذأبة كثيرة الذئاب غافِلُونَ مشغولون عنه بالرتع واللعب ، أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

لَئِنْ أَكَلَهُ اللام لا قسم ، وجوابه إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ. وَنَحْنُ عُصْبَةٌ جماعة لَخاسِرُونَ عاجزون أو ضعفاء مغبونون ، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسار وَأَجْمَعُوا أي وعزموا على إلقائه في البئر : بئر بيت المقدس أو بئر بأرض الأردن أو بين مصر ومدين ، بأن نزعوا قميصه بعد ضربه وإهانته وإرادة قتله ، وأدلوه إلى البئر ، فلما وصل إلى نصف البئر ، ألقوه ليموت ، فسقط في الماء ، ثم أوى إلى صخرة ، فنادوه فأجابهم ظانا رحمتهم ، فأرادوا رضخه بصخرة ، فمنعهم يهوذا.

وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ في البئر ، أي ألهمناه ، وله سبع عشرة سنة أو دونها تطمينا لقلبه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ لتخبرنهم بعد اليوم بِأَمْرِهِمْ بصنيعهم وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بك حال الإنباء أنك يوسف ، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم عِشاءً وقت المساء ، آخر النهار يَبْكُونَ متباكين نَسْتَبِقُ نتسابق في العدو أو في الرمي مَتاعِنا ثيابنا بِمُؤْمِنٍ بمصدّق وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ أي ولو ثبت صدقنا لا تهمتنا ، فكيف وأنت تسيء الظن بنا ؟ ! أو ولو صدقنا لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف.

وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ محله نصب على الظرفية ، أي فوقه بِدَمٍ كَذِبٍ أي ذي كذب ، بمعنى مكذوب فيه ، بأن ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها ، وذهلوا عن شقه ، وقالوا : إنه دمه قالَ

ج ١٢ ، ص : ٢٢١

أي يعقوب ، لما علم كذبهم بَلْ سَوَّلَتْ زينت لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ففعلتموه به فَصَبْرٌ جَمِيلٌ لا جزع فيه ، وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ المطلوب منه العون عَلى ما تَصِفُونَ تذكرون من أمر

يوسف أو من هذه المصيبة وهلاكه.

المناسبة :

الكلام مرتبط بما قبله ، مبين مكيدة إخوة يوسف له ، وخداعهم أباهم ، وإظهارهم أنهم في غاية المحبة ليوسف والشفقة عليه ، وهم يعلمون أن أباهم كان يحب يوسف محبة شديدة ، ويحرص عليه ، ويحب تطييب قلبه ، فأرسله معهم ، وهو غير مقتنع بكلامهم ويخافهم عليه.

التفسير والبيان :

لما تواطأ إخوة يوسف على أخذه وطرحه في البئر ، كما أشار به عليهم أخوهم يهوذ أو روبيل ، جاؤوا أباهم يعقوب عليه السّلام ، فقالوا : ما بالك لا تأتمنا على يوسف ، وتخافنا عليه ، ونحن له ناصحون ، أي نحبه ، ونشفق عليه ، ونريد الخير له ، ونخلص له النصح ؟ وهم يريدون خلاف ذلك ، لحسدهم له ، بعد ما علموا من رؤيا يوسف ، وأدركوا حب أبيه له ، لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة.

(٢٢٩/١٢)

أرسله معنا ، أي ابعثه معنا في الغد حين نخرج كعادتنا إلى المرعى في الصحراء ، يرتع أي يأكل ما يطيب له من الفاكهة والبقول ، ويلعب أي ويسعى وينشط ويشاركنا في السباق بالسهام ، وإنا له لحافظون من أي أذى ومكروه يصيبه ، ونحفظه من أجلك. فأجابهم يعقوب بقوله : إني ليحزنني ويؤلمني ذهابكم به وفراقه لي على أي نحو ، وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم ، فيأتيه ذئب ، فيأكله وأنتم غافلون عنه لا تحسون به.

وبه يتبين أنه اعتذر إليهم بشيئين : أن فراقه إياه مما يحزنه ، وخوفه عليه

ج ١٢ ، ص : ٢٢٢

من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم ، لقلة اهتمامهم به ، وكأنه لقنهم الحجة ، وشدة الحذر دفعته لقول ذلك.

فأجابوه في الحال : واللّه لئن أكله الذئب ، ونحن جماعة أشداء ندافع عن الحرمات ، لكنا خاسرين ، أي هالكين عاجزين لا خير فينا ولا نفع.

ثم بدؤوا تنفيذ المؤامرة بالفعل ، فلما ذهبوا به من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ، صمموا على مرادهم ، وعزموا عزما لا تردد فيه على إلقائه في قعر بئر وأسفله ، وهو البئر المعروف لديهم ، ليذهب حيث شاء ، أو يهلك ، فيستريحوا منه.

ولكنّ اللّه تعالى ذا القدرة الشاملة ، والإرادة النافذة ، والرحمة واللطف ، وإنزاله اليسر بعد العسر ، والفرج بعد الكرب ، أوحى إليه وحي إلهام على الأظهر ، مثل قوله : وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [النحل

١٦/ ٦٨] وقوله :

وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى [القصص ٢٨/ ٧] تطمينا لقلبه وتثبيتا له ألا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك فرجا ومخرجا ، وسينصرك اللّه عليهم ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع السيء ، وهم لا يعرفون ولا يشعرون بأنك يوسف. وهو وعد بالخلاص من هذه المحنة ، والنصر عليهم ، وصيرورتهم تحت سلطانه.

(١٢/٢٣٠)

ثم جاء دور الاعتذار بالأعذار الكاذبة لأبيهم يعقوب عليه السّلام ، فحينما رجعوا إليه في آخر اليوم وقت العشاء في ظلمة الليل ، أخذوا يتباكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، وقالوا معتذرين عما زعموا : إنا ذهبنا نتسابق ونترامى بالنبال ، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأمتعتنا ، حارسا لها ، فأكله الذئب ، وهذا الذي كان قد جزع منه وحذر عليه ، ونحن نعلم أنك لا تصدقنا- والحالة هذه- لو كنا صادقين موثوقين عندك ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ؟ ! وأنت معذور في هذا لغرابة ما وقع ، وعجيب ما حدث. والحاصل أنا

ج ١٢ ، ص : ٢٢٣

و إن كنا صادقين ، لكنك لا تصدقنا لأنك تتهمنا في يوسف ، لشدة محبتك إياه ، ولظنك أنا قد كذبنا.

وهذا إيماء بعدم قناعتهم بما يقولون ، وإحساسهم بالكذب ضمنا.

وزاد في التلبيس والتدليس أنهم جاؤوا بقميصه ملطّخا بدم مكذوب مفترى ، أخذوه من دم سخلة ذبحوها ، ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب ، لذا قال : عَلى قَمِيصِهِ ولكن إرادة اللّه أبت إلا أن يظهر آثار جريمتهم ، فنسوا أن يخرقوا الثوب ويشقّوه إذ لو كان من افتراس الذئب لتمزق القميص ، فلم يصدقهم يعقوب وأعرض عنهم وعن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه ، فقال : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أي بل زينت أو سهلت وهونت لكم أنفسكم السيئة أمرا منكرا غير ما تصفون وتذكرون ، فسأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه ، وأستعين باللّه حتى يفرج الكرب بعونه ولطفه ، فالصبر الجميل أولى بي ،

يروى أن النبي صلى اللّه عليه وسلّم سئل عن الصبر الجميل فقال : « هو الذي لا شكوى معه » .

واللّه المستعان على ما تذكرون من الكذب ، وهو المعين على شر ما تصفون من الحدث الأليم.

روي أن يعقوب قال استهزاء : ما أحلمك يا ذئب تأكل ابني ولا تشق قميصه ؟ !

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

(٢٣١/١٢)

١- نجح إخوة يوسف في حبك المؤامرة ، وخداع أبيهم ، والمؤمن غر كريم ، وتلك حيلة يلجأ إليها الأولاد عادة لأن لعب الصبيان المباح وتنشيطهم مرغوب فيه ، لا سيما وقد أظهروا شفقتهم عليه وحبهم له ، وتعهدوا بحفظه ورعايته من المخاوف.

ج ١٢ ، ص : ٢٢٤

٢- كانت إجابة يعقوب لأولاده متضمنة بحكم العاطفة الأبوية المألوفة تحذيرا من التقصير ، وتنبيها على شدة الصون والحفظ ، وإشعارا بحب ابنه يوسف وعدم تحمله الصبر على فراقه ، وهذا أمر طبيعي.

٣- موّه إخوة يوسف على أبيهم الحقيقة ، وأظهروا كاذبين أنهم حماة يصونون أخاهم ، فهم عصبة أقوياء ، وجماعة أشداء ، يخشى الناس بأسهم ، أفلا يقدرون على مطاردة ذئب يهاجم أخا لهم.

٤- كان إخوة يوسف في أشد ما يكونون قسوة وشدة على أخ لهم من أبيهم ، فرموه في البئر ، ونزعوا عنه قميصه ، ووجد عند كل واحد من الغيظ والحسد والظلم أشد مما عند الآخر.

٥- إن رحمة اللّه ولطفه قريب من المحسنين ، فلا يدع سبحانه مظلوما حتى ينصره ، ولا مفجوعا حتى يسلي قلبه ويطمئنه ، ويبشره بالسلامة ، فألهم يوسف أنه سينجو مما هو فيه ، وأنه سينصره عليهم ، وأنه سيخبرهم بسوء ما يصنعون به ويوبخهم على ما صنعوا ، وسيكونون تحت قهره وسلطانه ، وهم لا يدرون أنه يوسف.

وهذا يدل على أن الوحي ليوسف بعد إلقائه في الجب كان تقوية لقلبه ، وتبشيرا له بالسلامة.

٦- إنما جاؤوا عشاء ، أي ليلا ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة ، ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء في العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار.

٧- ودلت آية يَبْكُونَ على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله لاحتمال أن يكون تصنّعا ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر ، وقد قيل : إن الدم المصنوع لا يخفى.

ج ١٢ ، ص : ٢٢٥

(٢٣٢/١٢)

٨- الاستباق مباح في السهام أو الرمي ، وعلى الفرس ، وعلى الأقدام والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو لما له من فائدة في قتال الأعداء ، ومطاردة الذئاب. قال ابن العربي : إن المسابقة شرعة في الشريعة ، وخصلة بديعة ، وعون على الحرب ، وقد فعلها النبي صلى اللّه عليه وسلّم بنفسه وبخيله

فروي أنه سابق عائشة فسبقها ، فلما كبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم سابقها فسبقته ، فقال لها : هذه بتلك « ١ » . وتسابق النبي أيضا مع أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما ، فسبقهما.

وسابق سلمة بن الأكوع- فيما رواه مسلم- رجلا لما رجعوا من « ذي قرد » إلى المدينة ، فسبقه سلمة. و

روى مالك عن ابن عمر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم سابق بين الخيل التي قد أضمرت « ٢ » ، وسابق بين الخيل التي لم تضمّر

، وأن عبد اللّه بن عمر كان ممن سابق بها.

وكذلك المسابقة بالنّصال والإبل ،

أخرج النسائي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال : « لا سبق « ٣ » إلا في نصل أو خفّ أو حافر » .

و

روى البخاري عن أنس قال : كان للنبي صلى اللّه عليه وسلّم ناقة تسمى العضباء ، لا تسبق ، فجاء أعرابي على قعود فسبقها ، فشقّ ذلك على المسلمين حتى عرفه فقال : « حق على اللّه ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه » .

وأجمع المسلمون على أن السّبق على وجه الرهان المباح الآتي بيانه لا يجوز إلا في الخف والحافر والنصل. قال الشافعي : ما عدا هذه الثلاثة فالسّبق فيها قمار.

وقد زاد أبو البختري القاضي في الحديث السابق : « أو جناح » لإرضاء الرشيد ،

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٠٦٣ وما بعدها. [.....]

(٢) تضمير الخيل : هو علف الخيل حتى تسمن ، ثم لا تعلف إلا قوتا لتخف.

(٣) السبق : ما يجعل للسابق على سبقه من المال ، أي لا يحل أخذ المال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة. والسّبق بالسكون : مصدر. والصحيح رواية الفتح.

ج ١٢ ، ص : ٢٢٦

فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته فلا يكتب العلماء حديثه بحال.

ولا يجوز السّبق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم ، وكذلك الرمي لا يجوز السّبق فيه إلا بغاية معلومة ، ورشق معلوم ، ونوع من الإصابة.

والسبق الجائز اثنان : ما يخصصه الوالي أو غيره من ماله تطوعا ، وما يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه ، فإن سبقه صاحبه أخذه ، وإلا بقي له.

والسبق غير الجائز أو الحرام : هو ما يكون من الطرفين المتسابقين ، بأن يخرج كل واحد منهما شيئا مثل ما يخرجه صاحبه ، فأيهما سبق أحرز سبقه وسبق صاحبه.

ولا يجوز هذا الوجه إلا بمحلّل لا يأمنان أن يسبقهما ، فإن سبق المحلّل أحرز السّبقين جميعا وأخذهما وحده ، وإن سبق أحد المتسابقين ، أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه ، ولا شيء للمحلّل فيه ، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما.

وسمي محلّلا لأنه يحلل السّبق للمتسابقين أو : له.

واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلّل ، واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه ، أنه قمار ، ولا يجوز. و

في سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال : « من أدخل فرسا بين فرسين ، وهو لا يأمن أن يسبق ، فليس بقمار ، ومن أدخله وهو يأمن أن يسبق فهو قمار »

وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب قال : ليس برهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلّل ، فإن سبق أخذ السّبق ، وإن سبق لم يكن عليه شي ء. وهذا قول الجمهور.

ولا يكون سباق الخيل والإبل إلا لمحتلم ، أو لأربابها ، وهو أولى.

٩- استفاد أولاد يعقوب الحجة من قول أبيهم : وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ لأنه كان أظهر المخاوف عليه.

ج ١٢ ، ص : ٢٢٧

١٠- لم يصدقهم يعقوب ، لما ظهر له منهم من قوة التهمة وكثرة الأدلة على خلاف ما قالوه.

وأحسّوا هم بضعف حجتهم حينما قالوا : وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ أي ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا ، ولا تتهمنا في هذه القضية لشدة محبتك ليوسف.

١١- دلسوا على أبيهم بالدم المكذوب فيه ، فهو دم ظبية ، كما قال قتادة ، ولما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم ، قرن اللّه بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهي سلامة القميص من التمزيق المعتاد عند اعتداء الذئب على إنسان. قال ابن عباس : لما نظر إليه ، قال : كذبتم لو كان الذئب أكله لخرق القميص.

حكى الماوردي أن في القميص- أي في جنسه- ثلاث آيات : حين جاؤوا عليه بدم كذب ، وحين قدّ قميصه من دبر ، وحين ألقي على وجه أبيه ، فارتد بصيرا.

١٢- استدل الفقهاء بقصة القميص الملوث بالدم على جواز الاعتماد على الأمارات ، في مسائل فقهية كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص وسلامته من التخرق. وهكذا على الناظر ملاحظة الأمارات

(١٢/٢٣٥)

و العلامات ، ويقضي بالراجح منها.

١٣- الاعتصام بالصبر ، والاستعانة باللّه ، على التزوير والظلم والكذب والمصيبة وفي المحنة والشدة ، فذلك مؤذن بالفرج بعد الكرب ، وباليسر بعد العسر ، وهو دليل الإيمان بأن لهذا لكون ربا يفعل فيه ما يشاء.

١٤- الصبر الجميل : هو الذي لا شكوى معه ، وهو أن يعرف أن منزل البلاء

ج ١٢ ، ص : ٢٢٨

هو اللّه تعالى ، ثم يعلم أن اللّه سبحانه مالك الملك ، ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملك نفسه.

ولا يكون الصبر جميلا ما لم يكن فيه رضا بقضاء اللّه وقدره.

والضابط في جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات : أن كل ما كان لطلب عبودية اللّه تعالى ، كان حسنا ، وإلا فلا.

والجمع بين الصبر والاستعانة في كلام يعقوب دال على أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة اللّه تعالى ، للتغلب على الجزع أو الحزن بسبب الدواعي القوية إليه.

الفصل الثالث من قصة يوسف نجاة يوسف وإكرامه في بيت العزيز

- ١- تعلق يوسف بالدلو ومسيره مع السيارة [سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

الإعراب :

يا بُشْرى منادى مفرد ، كأنه جعل بُشْرى اسم المنادي أي هذه آونتك كقولك :

يا زيد ، ومن قرأ يا بشراي كان منادى مضافا.

ج ١٢ ، ص : ٢٢٩

(٢٣٦/١٢)

وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً المراد بالواو : التجار ، والمراد بالهاء : يوسف ، أخفوه من الرفقة ، وقيل : أخفوا أمره ووجدانهم له في البئر ، وقالوا لهم : دفعه إلينا أهل الماء ، لنبيعه لهم بمصر. وعن ابن عباس : أن الضمير لإخوة يوسف قالوا للتجار : هذا غلام لنا قد أبق ، فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه. وذلك لأن يهوذا كان يأتيه بالطعام كل يوم ، فأتاه يومئذ ، فلم يجده ، فأخبر إخوته ، فأتوا الرفقة ، وساوموهم على بيعه لهم ، فاشتروه منهم.

وبِضاعَةً منصوب على الحال من يوسف ، ومعناه : مبضوعا ، أي أخفوه متاعا للتجارة.

دَراهِمَ بدل من « ثمن » . ومِنَ الزَّاهِدِينَ في موضع نصب خبر كان. وفِيهِ متعلق بفعل دل عليه من الزَّاهِدِينَ ، ولا يجوز أن يتعلق بالزاهدين لأن الألف واللام فيه بمعنى الذي ، وصلة الاسم الموصول لا يعمل فيما قبله.

المفردات اللغوية :

سَيَّارَةٌ جمع مسافرون معا ، كالكشافة والتجار ، وكانوا قوما مسافرين من مدين إلى مصر وارِدَهُمْ هو الرائد الذي يرد الماء أو يبحث عنه ليستقي للقوم ، وهو مالك بن دعر الخزاعي من العرب العاربة.

فَأَدْلى دَلْوَهُ فأرسل دلوه في الجب ليملأها ، فتدلى بها يوسف ، والدلو : إناء يستقى من البئر يا بُشْرى نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه ، كأنه تعالى قال :

فهذا أوانك ، كما تقول : يا هناي ، ويكون هذا النداء مجازا ، أي احضري فهذا وقتك.

(٢٣٧/١٢)

وَ أَسَرُّوهُ أخفوه وأخفوا أمره عن الرفاق بِضاعَةً أي أخفوه حال كونهم جاعليه متاعا للتجارة. والبضاعة : ما بضع من المال للتجارة ، أي قطع وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ لم يخف عليه إسرارهم وَشَرَوْهُ باعوه لأن لفظ الشراء والبيع من ألفاظ الأضداد ، فيقال : اشتراه أي ابتاعه ، وشراه : باعه بَخْسٍ مبخوس أي ناقص ومعيب ، ومنه قوله تعالى : وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ [الأعراف ٧/ ٨٥ وغيرها] والمراد

بالبخس هنا قول الحرام أو الظلم لأنه بيع حر ، والأصح أن المراد به الناقص عن ثمن المثل مَعْدُودَةٍ قليلة ، قيل : كان عشرين درهما أو اثنين وعشرين وَكانُوا فِيهِ في يوسف مِنَ الزَّاهِدِينَ الراغبين عنه. والضمير إن كان للإخوة فظاهر ، وإن كان للرفقه التجار ، فزهدهم فيه لأنهم التقطوه ، والملتقط للشيء متهاون به ، مستعجل في بيعه. وباعته السيارة في مصر للذي اشتراه بعشرين دينارا وزوجي نعل وثوبين.

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى ما فعله إخوة يوسف بإلقائه في أعماق الجب (البئر)

ج ١٢ ، ص : ٢٣٠

ذكر هنا طريق خلاصه من تلك المحنة عن طريق قافلة تجار ذاهبة إلى مصر ، فأخذوه وباعوه فيها.

التفسير والبيان :

ومرّ بالبئر جماعة مسافرون مارّون من مدين إلى مصر ، روي أنهم من العرب الإسماعيليين ، بعد أن مكث يوسف في البئر ثلاثة أيام ، كان يتردد عليه بالطعام أخوه يهوذا ، وذكر محمد بن إسحاق أن إخوته بعد إلقائه في الجب ، جلسوا قريبا من تلك البئر ، فساق اللّه له سيارة ، فأرسلوا واردهم (و هو الذي يبحث عن الماء ليسقي القوم فلما جاء إلى البئر ، وأدلى دلوه فيها ، تشبّث يوسف عليه السّلام بها ، وخرج من البئر.

فقال مبشرا جماعته السيارة : يا بشرى هذا غلام ، أي هذه أوان البشرى فاحضري ، هذا غلام وسيم جميل صبوح ظريف ، كما تقول : يا أسفا ، ويا حسرتا. فاستبشروا به فهو غلام يباع.

(٢٣٨/١٢)

و أخفوه عن الناس ، ليكون بضاعة لهم يتاجرون فيه ويبيعونه لأهل مصر ، واللّه عليم بما يعملون لا يخفى عليه شيء من أفعال هؤلاء وغيرهم ، وعليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه ، وهو قادر على تغيير الواقع ودفعه ، ولكن له حكمة وقدر سابق ، فترك الأمر ليمضي ما قدره وما قضاه : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ [الأعراف ٧/ ٥٤].

والبائع : إما إخوة يوسف ، كما روي عن ابن عباس ، والتجار هم الذين اشتروه والذين أسرّوه بضاعة هم إخوة يوسف ، لما استخرج من الجبّ. وإما أن البائع هم السّيارة ، والمشتري : واحد من أهل مصر.

وفي هذا تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم عما كان يلقاه من أذى قومه المشركين ، وإعلام له بأن اللّه عالم بأذى قومك لك ، فإنه قادر على تغيير الأذى ، ولكن

ج ١٢ ، ص : ٢٣١

اصبر كما صبر يوسف على كيد إخوته وأذاهم ، وسأنصرك عليهم ، كما نصرت يوسف على إخوته ، وجعلته سيدا عليهم.

وَشَرَوْهُ أي باعه إخوة يوسف ، قال ابن كثير : وهو الأقوى ، أو باعته السيارة القافلة في مصر بثمن قليل ناقص عن ثمن المثل من الدراهم المعدودة عدا ، لا وزنا ، وكانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية (أربعين درهما) فما فوقها ، فباعوه بعشرين أو باثنين وعشرين درهما ، فالمراد بالبخس هنا الناقص أو المعيب أو كلاهما ، أي باعوه بأنقص الأثمان. وقيل : المراد به الظلم أو الحرام ، لكونه بيع حر ، والراجح هو المعنى الأول ، كما ذكر ابن كثير لأن الحرام معلوم يعرفه كل أحد لأن ثمنه حرام على كل حال ، وعلى كل أحد لأنه نبي ابن نبي ، ابن نبي ، ابن خليل الرحمن ، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

(٢٣٩/١٢)

و كانوا في يوسف وبيعه من الزاهدين أي الراغبين عنه الذين يودون التخلص منه بأي حال دون أن يعلموا منزلته عند اللّه تعالى. وقد اشتراه عزيز مصر رئيس الشرطة وصار فيما بعد مسلما آمن بيوسف ومات في حياته.

والخلاصة : أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث : كونه بخسا ، وبدراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- إن مجيء السيارة وإرسال الدلو في البئر تدبير خفي من اللّه ، وتيسير ولطف بعبده يوسف ، لإنقاذه من الموت أو الهلاك في البئر لأن اللّه عليم بكل شيء في هذا الكون ، ومدبر ما يراه خيرا على وفق حكمته وإرادته.

٢- كان بيع يوسف بثمن ناقص عن ثمن المثل ، بدراهم معدودة هي عشرون

ج ١٢ ، ص : ٢٣٢

درهما كما قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما ، فلم يستوف ثمنه الحقيقي بالقيمة لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدون من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه وإن كان الذين باعوه هم السيارة الواردة ، فإنهم التقطوه ، ومن أخذ شيئا بلا ثمن ، باعه بأرخص الأسعار ، فما يأخذونه فيه ربح كله.

٣- في الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازما.
٤- اللّه تعالى عليم بأفعال الخلائق وأقوالهم ، لا يخفى عليه شيء منها ، وسيجازيهم عليها.
وبمناسبة الكلام عن الدراهم ، قال العلماء : أصل النقدين الوزن ،
لقوله صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : « الذهب بالذهب الفضة بالفضة وزنا بوزن مثلا بمثل ، فمن زاد أو استزاد فهو ربا »
ولكن جرى في النقود العدّ تخفيفا عن الخلق ، لكثرة المعاملة ، ومشقة الوزن.

(٢٤٠/١٢)

و هل تتعين الدراهم والدنانير أو لا ؟ رأيان : قال أبو حنيفة ، ومالك في الظاهر من قوله : لا تتعين بالتعيين. وقال الشافعي : إنها تتعين. وفائدة الخلاف تظهر فيما إذا قال : بعتك هذه الدنانير بهذه الدراهم ، فعلى الرأي الأول :
تعلقت الدنانير بذمه صاحبها ، والدراهم بذمه صاحبها ، فلو تلفت ، ظل البيع صحيحا ولم يتأثر بتلف شيء من العوضين لأن مال الذمة لا يتلف.
وعلى الرأي الثاني : لو تلفت الدراهم والدنانير ، لم يتعلق بذمة صاحبهما شيء ، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها.
ج ١٢ ، ص : ٢٣٣
- ٢- يوسف عند ملك مصر وإيتاؤه النبوة [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٢١ الى ٢٢]
وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٢) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)
المفردات اللغوية :
وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، واسمه قطفير أو أطفير ، وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات في حياته. روي أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ، ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره الريان وكان ابن ثلاثين ، وآتاه اللّه الحكمة والعلم ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين.
واختلف فيما اشتراه به ، فقيل : عشرون دينارا وزوجا نعل وثوبان أبيضان لِامْرَأَتِهِ زليخا أو راعيل أَكْرِمِي مَثْواهُ مقامه عندنا ، أي اجعلي مقامه عندنا كريما أي حسنا ، والمعنى :

(٢٤١/١٢)

أحسني تعهده عَسى أَنْ يَنْفَعَنا في ضياعنا وأموالنا ونستعين به في مصالحنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً نتبناه ، وكان عقيما ، لما تفرّس به من الرشد ، ولذلك قيل : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر ، وابنة شعيب التي قالت : يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ [القصص ٢٨/ ٢٦] ، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي اللّه تعالى عنهما.

وَكَذلِكَ كما نجيناه من القتل والبئر ، وعطفنا عليه قلب العزيز مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ مكنا له في أرض مصر وجعلنا له مكانة رفيعة فيها ، حتى صار رئيس حكومتها ووزير ماليتها وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ تعبير الرؤيا ، وهو معطوف على محذوف مقدر متعلق

ج ١٢ ، ص : ٢٣٤

بمكنا ، أي لنملكه أو ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه ، أو الواو زائدة وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ أي لا يعجزه شيء ، فلا يمنع عما يشاء ، ولا ينازع فيما يريد.

أَشُدَّهُ منتهى اشتداد جسمه وكمال قوته الجسمية والعقلية ، وهو رشده ، وهو سن ما بين الثلاثين والأربعين آتَيْناهُ حُكْماً أي حكمة ، وهو العلم المؤيد بالعمل ، أو حكما بين الناس ، أو حكما صحيحا يزن به الأمور بميزان صادق وَعِلْماً يعني علم تأويل الأحاديث ، وفقه الدين قبل أن يبعث نبيا وَكَذلِكَ كما جزيناه نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ لأنفسهم ، وهو تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه في عمله واتقائه في عنفوان أمره.

المناسبة :

بعد مسيرة يوسف مع السيارة إلى مصر ، أبان اللّه تعالى بداية قصة يوسف في بيت عزيز مصر الذي اشتراه ، وإيتاءه النبوة والعلم والحكمة وتعبير الرؤيا وجعله من زمرة المحسنين.

التفسير والبيان :

بعد تلك المأساة الحزينة التي مرّ بها يوسف في البئر ، ثم اعتباره كالعبيد يباع ويشترى ، قيّض اللّه له الذي اشتراه من مصر ، ولم يذكر هنا اسمه ، وإنما وصفه النسوة بأنه عزيز مصر على خزائنها ، وذكر في التاريخ أنه رئيس الشرطة والوزير بها ، وكان اسمه « قطفير » أو أطفير بن روحيب وزير المالية ، حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به ، لما توسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته زليخا أو راعيل بنت رعابيل : أكرمي مقام هذا الغلام ومنزله عندنا أي أحسني تعهده ، لما تفرس فيه من الرشد.

روى أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد اللّه بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : أَكْرِمِي مَثْواهُ والمرأة التي قالت لأبيها : يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ الآية [القصص ٢٨/ ٢٦] ، وأبو

بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي اللّه عنهما.

ج ١٢ ، ص : ٢٣٥

و قيل : كان فرعون موسى الذي عاش أربع مائة سنة هو الذي اشترى يوسف ، بدليل قوله تعالى : وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ [غافر ٤٠/ ٣٤] قال البيضاوي : والمشهور أن المشتري من أولاد فرعون ، والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء.

ثم علل عزيز مصر طلبه من امرأته حسن تعهد يوسف بقوله كما قال اللّه :

عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً أي لي رجاء أن ينفعنا في أعمالنا الخاصة واستثمار أموالنا ، أو مصالحنا العامة ، أو نتبناه ولدا تقر به أعيننا لأنه كان عقيما لا يولد له ولد ، وكان حصورا.

والآية تدل على على أن العزيز كان عقيما ، وأنه كان صادق الفراسة.

(٢٤٣/١٢)

ثم أبان اللّه تعالى أفضاله الأدبية المعنوية بعد أن قيض له من يعينه ماديا فقال : وكما أنعمنا عليه بالسلامة من الجبّ ، وأنقذناه من إخوته ، وهيأنا له المنزل والمثوى الطيب الكريم ، عطّفنا عليه قلب العزيز ، وجعلنا له مكانة عالية في أرض مصر ، يملك الأمر والنهي وتدبير أمور المالية وشؤون الدولة والحكم ، بسبب حدوث ما حدث له في بيت العزيز ، ثم السجن ، الذي كان سببا في التعرف على ساقي الملك ، ثم الاتصال بالملك نفسه ، حتى قال له الملك : إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ [يوسف ١٢/ ٥٤] وقال يوسف للملك : اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [يوسف ١٢/ ٥٥].

وتحقيق الكمال يكون بأمرين هما القدرة والعلم ، أما تكميله في صفة القدرة فبقوله تعالى : مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وأما تكميله في صفة العلم ، فبقوله تعالى : وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وهو معطوف على مقدر متعلق بمكنا ، أي لنملّكه ولنعلمه. وتأويل الأحاديث : تعبير الرؤيا ، ومعرفة حقائق الأمور ، وكيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات على قدرة اللّه تعالى وحكمته وجلاله.

ج ١٢ ، ص : ٢٣٦

ثم قال تعالى : وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ .. لا يعجزه شيء ، فلا يمنع عما يشاء ، ولا ينازع فيما يريد ، إذا أراد شيئا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب ، وهو الفعال لما يشاء ، كما قال سعيد بن جبير : « و لكن أكثر الناس لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد ، ويأخذون بظواهر الأمور ، كما ظن إخوة يوسف أنه لو أبعد خلالهم وجه أبيهم ، وكانوا من بعده قوما صالحين » .

وقوله : أَكْثَرَ النَّاسِ دليل على أن الأقل يعلمون الحقائق كيعقوب عليه السّلام ، الذي يعلم أن اللّه غالب على أمره.

ثم بيّن اللّه تعالى ما جازى به يوسف لما صبر على إساءة إخوته إليه ، وعلى الشدائد والمحن التي مرّ بها ، فمكنه اللّه تعالى في الأرض ، وهو القدرة التي أشرنا إليها ، ولما بلغ أشده آتاه اللّه النبوة التي عبر عنها بالحكم والعلم ، وهي أكمل درجات العلم ، فقال : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. أي ولما استكمل يوسف قواه الجسمية والعقلية ، آتيناه حكما وعلما ، أي النبوة التي حباه بها بين أولئك الأقوام ، كالجزاء على صبره على تلك المحن وعلى الأعمال الحسنة.

واكتمال الرشد وبلوغ الأشد : ما بين الثلاثين والأربعين ، فقال جماعة :

ثلاث وثلاثون سنة ، أو بضع وثلاثون ، وقال الحسن : أربعون سنة. وقال عكرمة وهو تقدير الأطباء : خمس وعشرون سنة.

وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي ومثل ذلك الجزاء ، نجزي المحسنين الذين يحسنون لأنفسهم أعمالهم.

وهذا دليل على أن يوسف عليه السّلام كان محسنا في عمله ، عاملا بطاعة اللّه تعالى ، وأن ما آتاه اللّه من سلطان ونفوذ ، وعلم وحكمة ، ونبوة ورسالة كان جزاء على إحسانه في عمله ، وتقواه في حال شبابه ، إذ للإحسان تأثير في صفاء العقول ، وللإساءة تأثير في تعكير النفوس وسوء فهم الأمور.

ج ١٢ ، ص : ٢٣٧

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما تفضل اللّه به على يوسف عليه السّلام جزاء صبره من نعم وفضائل مادية ومعنوية وهي ما يأتي :

١- تهيئة البيت الكريم ، والمثوى والمقام المريح ، والمطعم واللباس الحسن ، والحفظ والرعاية المادية والأدبية في ظل بيت العزيز الذي كان وزيرا للمالية على خزائن مصر ، وهو المنصب ذاته الذي تولاه يوسف عليه السّلام بعدئذ.

٢- كان عزيز مصر صادق الفراسة ، ثاقب الفكرة ، أصاب فيما توقعه ليوسف من مكانة عالية في البلاد.

٣- التمكين المادي ليوسف في أرض مصر ، بأن عطف اللّه عليه قلب الملك ، حتى تمكن من الأمر والنهي في بلد الملك نفسه ، فصار وزيرا للمالية ورئيسا للحكومة.

٤- التمكين المعنوي ليوسف ليوحي اللّه إليه بكلام منه ، وليعلمه تأويل الكلام وتفسيره ، وتعبير الرؤيا

، والفطنة للأدلة الدالة على وجود اللّه ووحدانيته وقدرته.

٥- إيتاؤه الحكم والعلم ، أي النبوة بعد بلوغ الرشد واكتمال البنية الجسدية والقوى العقلية ، فقوله : حُكْماً وَعِلْماً إشارة إلى استكمال النفس في قوتها العملية والنظرية.

٦- جعله من المؤمنين المحسنين المطيعين أوامر ربه ، المتجنب نواهيه ، الصابرين على النوائب ، حتى قال بعضهم : إن من اجتهد وصبر على بلاء اللّه تعالى ، وشكر نعماء اللّه تعالى ، وجد منصب الرسالة ، بدليل أنه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ، ذكر أنه أعطاه النبوة والرسالة.

ج ١٢ ، ص : ٢٣٨

٧- دل قوله : وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ على أن كل من أتى بالطاعات الحسنة التي أتى بها يوسف ، فإن اللّه يعطيه تلك المناصب.

٨- اللّه تعالى غالب على أمره ، فعال لما يشاء ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، نافذ أمره في الخلائق ، كما قال سبحانه : إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [يس ٣٦/ ٨٢].

٩- أكثر الناس لا يعلمون حقائق الأمور الإلهية ، ويكتفون بظواهر الأمور ، والأقل كالأنبياء والمؤمنين الأتقياء هم الذين يدركون أن اللّه غالب على أمره.

الفصل الرابع من قصة يوسف يوسف وامرأة العزيز [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٢٣ الى ٢٩]

وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)

فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (٢٩)

ج ١٢ ، ص : ٢٣٩

الإعراب :

هَيْتَ لَكَ اسم لهلمّ ، ولذلك كانت مبنية ، وكان الأصل أن تبنى على السكون ، إلا أنه لم يمكن أن تبنى على السكون لأنهم لا يجمعون بين ساكنين وهما الياء والتاء. ومنهم من بناها على الفتح لأنه

أخف الحركات. ومنهم من بناها على الكسر لأنه الأصل في التحريك لالتقاء الساكنين ، ومنهم من بناها على الضم لحصول الغرض من زوال التقاء الساكنين.

ومن قرأ : هيئت لك بالهمز فمعناه : تهيأت لك ، وتكون التاء مضمومة لأنها تاء المتكلم.

مَعاذَ اللَّهِ منصوب على المصدر ، يقال : عاذ يعوذ معاذا وعوذا وعياذا.

رَبِّي في موضع نصب على البدل من هاء إِنَّهُ وهي اسم إن.

(٢٤٧/١٢)

أَحْسَنَ مَثْوايَ فعل ومفعول ، ومن قرأ أحسن فهو خبر إنّ ، أي إن ربي أحسن مثواي.

إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الهاء ضمير الشأن والحديث. وجملة لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ جملة فعلية خبر إن.

لَوْ لا أَنْ رَأى .. لَوْ لا حرف يمتنع له الشيء لوجود غيره. وأَنْ رَأى في موضع رفع لأنه مبتدأ. ولا يجوز إظهار خبره بعد لَوْ لا لطول الكلام بجوابها ، وقد حذف خبر المبتدأ هنا والجواب معا ، والتقدير : لولا رؤية برهان ربه موجودة لهمّ بها. ولا يجوز أن يكون وَهَمَّ بِها جواب لَوْ لا لأن جواب لَوْ لا لا يتقدم عليه.

كَذلِكَ لِنَصْرِفَ الكاف من كَذلِكَ يجوز أن تكون رفعا ، بأن تكون خبر مبتدأ محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويجوز أن تكون نعتا لمصدر محذوف ، أي أريناه البراهين رؤية كذلك.

ج ١٢ ، ص : ٢٤٠

البلاغة :

فَصَدَقَتْ وفَكَذَبَتْ والصَّادِقِينَ والْكاذِبِينَ بين كلّ طباق.

مِنَ الْخاطِئِينَ من باب تغليب الذكور على الإناث.

المفردات اللغوية :

وَراوَدَتْهُ طلبت منه زليخا مواقعتها برفق ولين ومخادعة ، ومنه قوله : سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ [يوسف ١٢/ ٦١] أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ، ليرسل أخاه بنيامين معنا ، ومنه الرائد : الذاهب لطلب شي ء. والمراد من آية وَراوَدَتْهُ تحايلت لمواقعته إياها ، ولم تجد منه قبولا. وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ أحكمت إغلاق أبواب البيت ، قيل : كانت سبعة ، والتشديد : للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق. هَيْتَ لَكَ أي هلمّ وأقبل وبادر ، أو تهيأت ، وهي لغة عرب حوران والكلمة : اسم فعل مبني على الفتح ، ولام لَكَ للتبيين ، كالتي في « سقيا لك » .

قالَ : مَعاذَ اللَّهِ أعوذ باللّه وأتحصن من الجهل والفسق. إِنَّهُ رَبِّي إن الذي اشتراني سيدي قطفير ، أو إن الشأن أَحْسَنَ مَثْوايَ مقامي ، أي أحسن تعهدي ، إذ قال لك :

أَكْرِمِي مَثْواهُ فلا أخونه في أهله. وقيل : إن الضمير للّه تعالى ، أي إنه الذي خلقني وأحسن منزلتي بأن عطف عليّ قلب سيدي ، فلا أعصيه. إِنَّهُ أي الشأن لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ المجازون الحسن بالسيء ، وقيل : الزناة ، فإن الزنى ظلم على الزاني والمزني بأهله.

هَمَّتْ بِهِ قصدت منه الجماع ومخالطته أو أن تبطش به لعصيانه أمرها ، والهم بالشي ء : قصده والعزم عليه ومنه الهمام : وهو الذي إذا همّ بشيء أمضاه. وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ أي لولا وجود النبوة ، أو مراقبة اللّه تعالى وطاعته ورؤية ربه متجليا عليه ، لقصد مخالطتها ، والمفهوم من لَوْ لا أنه لم يقصد ذلك أصلا ، لوجود خشية اللّه في قلبه لأن لَوْ لا حرف امتناع لوجود ، فعند ما تقول : لولا إتيان ضيف إلى البارحة لجئت إليك ، تعني تعذر المجيء لصاحبك بسبب مجيء ضيف يزورك ، فالضيف مانع من حصول المجيء ، وكذلك هنا : لولا برهان النبوة ومراقبة اللّه لهمّ بها.

كَذلِكَ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه وأريناه البرهان. لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ الخيانة وَالْفَحْشاءَ الزنى إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ المختارين الذين اجتباهم اللّه واختارهم لطاعته وعلى قراءة كسر اللام الْمُخْلَصِينَ يكون المراد : المخلصين في الطاعة.

وَاسْتَبَقَا الْبابَ أي تسابقا إلى الباب ، فحذف الجار ، أو ضمن الفعل معنى الابتدار ، أي أسرع كل منهما نحو الباب ، وذلك أن يوسف فرّ منها ليخرج ، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ،

فمبادرته كانت للفرار ، ومبادرتها كانت للتشبّث فيه ، فأمسكت ثوبه وجذبته إليها. وَقَدَّتْ شقت قميصه من دبر ، أي من الخلف والقد : الشق طولا. وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ وجدا زوجها وصادفاه عند الباب. قالَتْ : ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً أي نزهت نفسها ، وأو همت زوجها أنها فرّت منه تبرئه لساحتها عنده وإغراء به للانتقام من يوسف. وما نافية أو استفهامية ، والمعنى : أي شيء جزاؤه إلا السجن أي الحبس. أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ مؤلم بأن يضرب.

وتعبير وَاسْتَبَقَا الْبابَ من اختصار القرآن المعجز ، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.

قالَ : هِيَ راوَدَتْنِي قال يوسف : هي طالبتني بالمواتاة ، دفاعا عن نفسه لما عرضت له من السجن أو العذاب ، ولو لم تكذب عليه لما قال ذلك. وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها قيل :

ابن عمها ، أو ابن خالها ، وكان صبيا في المهد ، أنطقه اللّه تعالى.

مِنْ قُبُلٍ من قدام أو أمام. مِنْ دُبُرٍ من خلف. فَلَمَّا رَأى زوجها قالَ : إِنَّهُ أي إن قولك : ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً مِنْ كَيْدِكُنَّ أي من حيلتكن أيها النساء ، والخطاب لها ولأمثالها ، أو لسائر النساء. إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ أي إن كيد النساء ألصق وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيرا في النفس ، ولا قدرة للرجال عليه ولا يفطنون لحيلهن.

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا أي ثم قال زوجها : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر ، ولا تذكره واكتمه لئلا يشيع الخبر بين الناس. وَاسْتَغْفِرِي يا زليخا. إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ أي الاثمين المذنبين ، ولكن شاع الخبر واشتهر. والتذكير للتغليب.

المناسبة :

(١٢/٢٥٠)

بعد أن ذكر اللّه تعالى ما أكرم به يوسف من المكارم المادية بالإقامة في قصر عزيز مصر ، والمعنوية من النبوة أو العلم والحكمة ، ذكر هنا محنته مع امرأة العزيز ، والتزامه العفة والنزاهة والطهارة ، حتى إنه آثر دخول السجن على ارتكاب الفاحشة ، والتخلص من افتتان النساء به.

التفسير والبيان :

كان يوسف عليه السّلام في غاية الحسن والجمال ، وقد أوصى عزيز مصر امرأته بإكرامه وحسن تعهده ، فأحبته حبا شديدا لجماله وحسنه وبهائه ، فحملها

ج ١٢ ، ص : ٢٤٢

ذلك على أن تجملت له ، ودعته لمخالطتها ، وتمحلت لمواقعته إياها ، وأحكمت إغلاق الأبواب عليه قيل : كانت سبعة ، وقالت : هيت لك ، أي هلمّ أقبل وبادر ، وتهيأت لك ، وزيدت كلمة لَكَ لبيان المخاطب ، مثل : سقيا لك ورعيا لك. وهذا أسلوب في غاية الاحتشام.

فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، وقال : أعوذ باللّه معاذا ، وألتجئ إليه وأعتصم به مما تريدين مني ، فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين إِنَّهُ (الضمير للشأن والحديث) ربي أي سيدي ومالكي (قطفير) أَحْسَنَ مَثْوايَ أي منزلي ومقامي وأحسن إلي ، حين قال لك : أكرمي مثواه فلا أقابله بالخيانة ، وإتيان الفاحشة في أهله ، إنه لا يفلح الظالمون الذين يجازون الإحسان بالإساءة ، أو لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومنهم الخائنون المجازون الإحسان بالسوء.

ولقد همّت بالانتقام منه والتنكيل به ، لعصيانه أمرها ، وعدم نزوله عند رغبتها ، ومخالفته مرادها ، وهي سيدته وهو عبدها ، أو همت بمخالطته.

(١٢/٢٥١)

وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كثر كلام الناس وتعليقاتهم حول معنى هذه الآية ، والأمر فيها سهل يسير ، لا يصح تفسير كلمة وَهَمَّ بِها وحدها دون بقية الجملة ، وإذا فسرت الجملة مع بعضها ، تبين أنه لم يهمّ بها قط لأن رؤية برهان ربه قد منعه من ذلك ، بدليل أن لَوْ لا حرف امتناع لوجود وجوابها محذوف دائما ، وتقديره : لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ولخالطها لأن قوله : وَهَمَّ بِها يدل عليه ، كقولك : (هممت بقتله لولا أني خفت اللّه) معناه : (لولا أني خفت اللّه لقتلته) ففي الكلام تقديم وتأخير ، أي لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

ثم إن المراد بالهم : خطرات حديث النفس ، والميل إلى المخالفة بحكم الطبيعة

ج ١٢ ، ص : ٢٤٣

البشرية ، وهذا لا مؤاخذة فيه شرعا ، فلا يقال : كيف جاز على نبي اللّه أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها ؟ ودليل رفع المؤاخذة على الهم الذي هو مرتبة دون العزم والحزم

ما أورده البغوي من حديث عبد الرزاق والصحيحين عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « يقول اللّه تعالى : إذا همّ عبدي بحسنة ، فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها ، فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن همّ بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإنما تركها من جرائي ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها » .

والبرهان الذي رآه : هو برهان اللّه المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، أو هو حجة اللّه تعالى في تحريم الزنى ، والعلم بما على الزاني من العقاب.

وقيل : هو تطهير نفوس الأنبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة ، وقيل : هو النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش ، وجائز أن يراد كل هذه المعاني لأنها متقاربة غير متعارضة ، تحقق هدفا واحدا وهو طاعة اللّه عز وجل.

(٢٥٢/١٢)

و الخلاصة : لم يرتكب يوسف عليه السّلام المعصية قط ، ولو لا حفظ اللّه ورعايته وعصمته لهمّ بها.

وللعلماء في الآية تفسيران : الأول- إنه لم يهمّ بها لرؤية برهان ربه ، فهو الذي منعه من الهمّ ، والثاني- إنه همّ بمقتضى الطبيعة البشرية ، ثم تنبه للمانع من وقوع المعصية ، ورأى برهان اللّه وتذكره ، مثل قوله تعالى :

وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا [الإسراء ١٧/ ٧٤].

وبه تبين وجود الفارق بين الهمين : همها به وهمه ، فهي قد همت بالانتقام منه والتنكيل به ، شفاء

لغيظها ، أو همت بمخالطته ، فكان همها المعصية ، وهو همّ عزم وتصميم. وهو قد همّ بالدفاع عن نفسه ، والتخلص منها ، حين رأى بوادر الإقدام عليه ، ولكنه رأى برهان ربه وعصمته التي جعلته يهم بالفرار من هذا المأزق ، فكان همه النجاة منها وهو مجرد حديث نفس وخاطر ، وما هم بالسوء بها لما رأى برهان ربه لعصمة الأنبياء ، قال تعالى : كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

ج ١٢ ، ص : ٢٤٤

وَ الْفَحْشاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ

لذا أتبعه بقوله : وَاسْتَبَقَا الْبابَ أي فبادر إلى الباب هربا ، وبادرت هي إلى الباب صدا له عن الهرب. وأراد اللّه صرف السوء عنه فقال : كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ أي مثل ذلك التثبيت على العفة أمام دواعي الفتنة والإغراء ثبتناه ، وكما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره. والسوء : المنكر والمعصية وخيانة السيد ، والفحشاء : الزنى والفجور. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ أي إن يوسف من عباد اللّه الذين اصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته وصفاهم من الشوائب ، فلا يستطيع الشيطان إغواءهم ، كما قال تعالى : وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ [ص ٣٨/ ٤٧].

(٢٥٣/١٢)

و حدثت المفاجأة الغريبة المحرجة بقدوم زوجها ، وهما يتسابقان إلى الباب ، فقال تعالى : وَاسْتَبَقَا الْبابَ أي وتسابقا إلى الباب ، بناء على حذف الجارّ وإيصال الفعل كقوله تعالى : وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ [الأعراف ٧/ ١٥٥] أو بناء على تضمين اسْتَبَقَا معنى : ابتدرا ، والتسابق مختلف الغرض ، فيوسف فرّ منها مسرعا يريد الباب ليخرج ، وهي أسرعت وراءه لتمنعه الخروج. وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ أي لحقته في أثناء هربه ، فأمسكت بقميصه من الخلف ، فقطعته.

وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ أي وحينئذ وجدا سيدها وهو زوجها عند الباب ، فحاولت بمكرها وكيدها التنصل من جرمها وإلصاق التهمة بيوسف ، فقالت : ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة إلا أن يحبس ، أو عذاب مؤلم موجع ، فيضرب ضربا شديدا. وكانت نساء مصر تلقب الزوج بالسيد ، ولم يقل : سيدهما لأن استرقاق يوسف غير شرعي.

ج ١٢ ، ص : ٢٤٥

و هنا ذكر الرازي علامات كثيرة دالة على أن يوسف عليه السّلام هو الصادق وهي « ١ » :

١- إن يوسف عليه السّلام كان في اعتبارهم عبدا ، والعبد لا يتسلط على مولاه إلى هذا الحد.

٢- شوهد يوسف يعدو عدوا شديدا ليخرج ، وطالب المرأة لا يفعل ذلك.

٣- زيّنت المرأة نفسها على أكمل الوجوه ، خلافا لما كان عليه حال يوسف.
٤- لم تكن سيرة يوسف في المدة الطويلة دالة على حالة تناسب ، هذا الفعل المنكر.
٥- لم تصرح المرأة بنسبته إلى الفاحشة ، بل أجملت كلامها ، وأما يوسف فصرح بالأمر.
٦- إن زوج المرأة كان عاجزا ، فطلب الشهوة منها أولى.
لكل هذا لم تطلب عقوبة شديدة ، وإنما أرادت أن يحبس يوما أو أقل ، على سبيل التخفيف والتخويف لأن حبها الشديد ليوسف حملها على أن تشفق عليه ، ولكنها من جانب آخر استحيت أن تقول : إن يوسف قصدني بالسوء ، وأرادت تصيّد عذر ما ، وحماية سمعتها وكرامتها أمام زوجها.

(١٢/٢٥٤)

ذكر بعضهم : ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه اللّه ، فألقى عليه هيبة النبوة ، فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه.
ثم جاء دور براءة يوسف : قالَ : هِيَ راوَدَتْنِي .. قال يوسف بارّا صادقا مدافعا عن نفسه حينما اتهمته بقصد السوء : هي التي راودته عن نفسه ،

---

(١) المرجع السابق : ١٨/ ١٢٣
ج ١٢ ، ص : ٢٤٦
فامتنع منها ، وأنها تبعته وجذبته حتى قدت قميصه ، ولم تترك حيلة إلا لجأت إليها لمواقعتها.
وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها .. وللعلماء قولان في هذا الشاهد ، هل هو صغير أو كبير ؟ وهل هو إنسان أو القميص ؟ ، فصار في تعيين هذا الشاهد ثلاثة أقوال :
الأول- أنه كان ابن عم لها كبير ، وكان رجلا حكيما عاقلا حصيف الرأي ، فقال : إن كان « ١ » شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب ، وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة ، فلما نظروا إلى القميص ، ورأوا الشق من خلفه ، قال ابن عمها : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ .. أي من عملكن ، ثم قال ليوسف : أعرض عن هذا واكتمه ، وقال لها : استغفري لذنبك. وهذا قول طائفة كبيرة من المفسرين.
والثاني- وهو قول ابن عباس وجماعة : أن ذلك الشاهد كان صبيا أنطقه اللّه تعالى في المهد.
روى ابن جرير حديثا مرفوعا عن ابن عباس عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم » .
والثالث- أن ذلك الشاهد هو القميص. قال الرازي : وهذا في غاية الضعف لأن القميص لا يوصف بهذا ، ولا ينسب إلى الأهل.

ولما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به وظهر للقوم براءة يوسف عن هذا المنكر ، قال العزيز أو الشاهد : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إن هذا

)

(٢٥٥/١٢)

---

(١) إن كان قميصه : كان في موضع جزم بالشرط ، وفيه إشكال نحوي لأن حروف الشرط ترد الماضي إلى المستقبل ، وليس هذا في كان ، فقال المبرد : هذا لقوة كان ، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال.

وقال الزجاج : المعنى : إن يكن ، أي إن يعلم ، والعلم لم يقع.

ج ١٢ ، ص : ٢٤٧

الاتهام من جملة كيدكن إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ أي إن مكر المرأة وكيدها شديد التأثير في النفوس ، غريب لا يفطن له الرجال ، ولا قبل لهم به ، ولا لحيلها وتدبيرها.

ويا يوسف أعرض عن ذكر هذه الواقعة واكتم خبرها عن الناس ، ويا أيتها المرأة اطلبي المغفرة لذنبك ، إنك كنت من زمرة الخاطئين أي المذنبين. وقوله هذا لأنه لم يكن غيورا ، فكان ساكنا ، أو لأن اللّه تعالى سلبه الغيرة ، وكان فيه لطف بيوسف ، حتى كفي ما قد يبادر به وعفا عنها.

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع الآيات بيان محنة يوسف ، وإظهار براءته ، واتهام زوجة العزيز ، وتكون الآيات دالة على ما يأتي :

١- اتهام امرأة العزيز بمراودة يوسف عن نفسه ، وذكر في الآية ثلاثة تصرفات تؤكد تهمتها وهي : المراودة ، وإغلاق الأبواب ، ودعوتها يوسف لنفسها قائلة : هَيْتَ « ١ » لَكَ وهي لغة أهل حوران جنوب سوريا ، أي هلمّ أقبل وتعال.

٢- دفاع يوسف عن نفسه ، مستخدما في الجواب ثلاثة أشياء : مَعاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، استعاذ باللّه واستجار به مما دعته إليه ، وتذكر فضل سيده عليه إذ آواه وأحسن مثواه ومقامه وتعهده بالرعاية والحفظ ، ونظر إلى المستقبل نظرة العاقل المتأمل الذي يصون

---

(١) قال النحاس : فيها سبع قراءات : هيت وهيت وهيت (الهاء فيهن مفتوحة) وهيت لك بكسر الهاء وفتح التاء ، وهيت لك بكسر الهاء والياء الساكنة والتاء المضمومة ، وهئت لك ، وهئت لك.

(٢٥٦/١٢)

ج ١٢ ، ص : ٢٤٨

مستقبله ، وقرر أنه لا يظفر الظالمون الخائنون الذين يقابلون الإحسان بالإساءة.

٣- هناك فرق واضح بين همّها به وهو المعصية من مخالطة وانتقام ، وبين همّه بها وهو الفرار والنجاة منها لأن الأنبياء معصومون عن المعاصي.

وأدلة عصمة الأنبياء « ١ » :

الدليل الأول- إن الزنى من منكرات الكبائر ، وكذلك الخيانة من منكرات الذنوب ، وأيضا مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموقعة بالفضيحة التامة والعار الشديد من منكرات الذنوب ، ثم إن إقدام الصبي الذي تربى في حجر إنسان على الإساءة إلى المنعم عليه من أقبح المنكرات والأعمال.

الدليل الثاني- إن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عن النبي ، لقوله تعالى :

كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ ثم إن اللّه تعالى جعل يوسف عليه السّلام من عباده المخلصين- بفتح اللام- الذين خلصهم اللّه من الأسواء ، وبكسر اللام : من الذين أخلصوا دينهم للّه تعالى ، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السّلام الذين قال اللّه فيهم : إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ [ص ٣٨/ ٤٦- ٤٧].

الدليل الثالث- من المحال أن يصدر عن الأنبياء عليهم السلام زلة أو هفوة ثم لا يتبعونها بالتوبة والاستغفار.

الدليل الرابع- كل من كان له تعلق بتلك الواقعة ، فقد شهد ببراءة يوسف عليه السّلام من المعصية.

والذين لهم تعلق بهذه الواقعة : يوسف عليه السّلام ، وتلك المرأة وزوجها ،

---

(١) تفسير الرازي : ١٨/ ١١٥ وما بعدها.

ج ١٢ ، ص : ٢٤٩

و النسوة ، والشهود ، ورب العالمين ، وإبليس ، الكل شهدوا ببراءة يوسف عن الذنب والمعصية ، كما تقدم سابقا.

(٢٥٧/١٢)

٤- قال العلماء : لما برّأت نفسها ولم تكن صادقة في حبه- لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب- قال : هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه.

٥- الشاهد من أهلها : إما طفل في المهد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح ، للحديث المتقدم : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة »

وذكر فيهم شاهد يوسف ، وإما رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها.

٦- في آية قدّ القميص مقبلا ومدبرا دليل على القياس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة لأن القميص إذا جبذ من خلف تمزّق من تلك الجهة ، وإذا جبذ من قدّام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب.

٧- إذا كان الشاهد على براءة يوسف طفلا صغيرا ، فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات وإذا كان رجلا صحّ الاعتماد على الأمارة ، كالعلامة في اللقطة وغيرها فقال مالك في اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة ، فجاء قوم فادعوها ، وليست لهم بينة ، فإن السلطان ينظر في ذلك ، فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم.

وقال الحنفية وغيرهم : إذا اختلف الرجل والمرأة في متاع البيت : إن ما كان للرجال فهو للرجال ، وما كان للنساء فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل. وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومة وأصل الاعتماد على الأمارات هذه الآية.

٨- الحذر من فتنة النساء ، فإن كيدهن عظيم لعظم فتنتهن ، واحتيالهن في التخلص من ورطتهن ، ذكر مقاتل عن أبي هريرة قال : قال

ج ١٢ ، ص : ٢٥٠

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن اللّه تعالى يقول : إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً [النساء ٤/ ٧٦] ، وقال : إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » .

(٢٥٨/١٢)

الفصل الخامس من قصة يوسف انتشار الخبر بين نسوة المدينة ومؤامرة امرأة العزيز بهن وتقرير سجن يوسف [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٣٠ الى ٣٥]

وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(٣٤)

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥)

ج ١٢ ، ص : ٢٥١

الإعراب :

حُبًّا تمييز.

حاشَ لِلَّهِ حذف الألف للتخفيف ، ومن قرأ : حاشى للّه ، أتى به على الأصل. وحاشى :

(٢٥٩/١٢)

فعل في رأي الكوفيين ، بدليل تعلق حرف الجر بها في قوله : حاشَ لِلَّهِ وحرف الجر إنما يتعلق بالفعل لا بالحرف. وهي حرف في رأي سيبويه وأكثر البصريين لأن ما بعدها يجيء مجرورا ، يقال : حاش أبي ثوبان ، ولو كان فعلا لما جاز أن يجيء ما بعده مجرورا. وأما تعلق حرف الجر بها في قوله لِلَّهِ فإن اللام في قوله : حاشَ لِلَّهِ زائدة لا تتعلق بشيء ، مثل لام : لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ [الأعراف ٧/ ١٥٤] وباء أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى [العلق ٩٦/ ١٤] ثُمَّ بَدا لَهُمْ ..

[يوسف ١٢/ ٣٥] فاعل بدا : مصدر مقدر ، دل عليه. بَدا أي ثم بدا لهم بداء ، وهو الراجح ، وقيل : دل عليه لَيَسْجُنُنَّهُ وقام مقامه ، وقيل : الفاعل محذوف تقديره : ثم بدا لهم رأي.

واللام جواب ليمين مضمر ، وهو فعل مذكر لا فعل مؤنث.

البلاغة :

سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ استعار المكر للغيبة لأنها تشبهه في الإخفاء.

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ استعار لفظ القطع للجرح أي جرحن أيديهن.

المفردات اللغوية :

نِسْوَةٌ اسم لجمع امرأة ، وتأنيثه بهذا الاعتبار غير حقيقي. فِي الْمَدِينَةِ مدينة مصر ، وهو ظرف لقال ، أي أشعن الحكاية في مصر ، أو هو صفة نسوة ، وكن خمسا : زوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب. امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ فتاها :

عبدها ، أي تطلب مواقعة غلامها إياها. والعزيز بلغة العرب : الملك. قَدْ شَغَفَها حُبًّا أي دخل حبه شغاف قلبها. أي غلافه المحيط به حتى وصل إلى فؤادها. فِي ضَلالٍ في خطأ أي انحراف عن طريق الرشد ومقتضى العقل. مُبِينٍ أي بيّن واضح ، بحبها إياه.

(٢٦٠/١٢)

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ باغتيابهن لها ، وإنما سمي مكرا لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره ، ولأنهن أردن إغضابها لتعرض عليهن يوسف ، فيفزن بمشاهدته. وَأَعْتَدَتْ أعدّت وهيأت لهن. مُتَّكَأً ما يتكئن عليه من الوسائد في مكان يجلسن فيه متكئين. وقيل : المتكأ : طعام يقطع السكين للاتكاء عنده ، وهو الأترج. وَآتَتْ أعطت. وَقالَتِ ليوسف ، أَكْبَرْنَهُ أعظمنه. وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ جرحن أيديهن بالسكاكين ، ولم يشعرن بالألم لشغل قلبهن بيوسف ، ودهشتهن من جماله الرائع.

ج ١٢ ، ص : ٢٥٢

وَ قُلْنَ : حاشَ لِلَّهِ تنزيها للّه من صفات العجز ، وتعجبا من قدرته على خلق مثله.

ما هذا بَشَراً أي ما يوسف من جنس البشر لأن هذا الجمال غير معهود للبشر. إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ما هذا إلا ملك ، لما حواه من الحسن الفائق ،

جاء في الحديث : « أنه أعطي شطر الحسن »

أو لما جمع اللّه له من الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة التي هي من خواص الملائكة.

قالَتْ امرأة العزيز ، لما رأت ما حل بهن : فَذلِكُنَّ أي فهذا هو. الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني في حبه والافتتان به قبل تصوره حق التصور ، ولو تصورتنه بما عائنتن لعذرتنني ، والمراد بيان عذرها. فَاسْتَعْصَمَ امتنع امتناعا شديدا ، مأخوذ من العصمة وهي المنع من الوقوع في المعصية. ما آمُرُهُ به. مِنَ الصَّاغِرِينَ الذليلين المهانين ، فقلن له : أطع مولاتك. أَصْبُ إِلَيْهِنَّ أمل إليهن وأوافقهن على أهوائهن. وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ وأصر من المذنبين ، والقصد بذلك الدعاء.

(٢٦١/١٢)

فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ دعاءه. السَّمِيعُ للقول ودعاء الملتجئ إليه. الْعَلِيمُ بالفعل والأحوال وما يصلحهم. بَدا ظهر لهم رأي جديد ، وهو أن يسجنوه. الآيات الشواهد الدالة على براءة يوسف. لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ أي ليدخلنه السجن إلى زمن ، ينقطع فيه كلام الناس ، فسجن سبع سنين أو خمس سنين. والحين : الوقت غير المحدود من الزمن.

المناسبة :

بعد أن أبان اللّه تعالى محنة يوسف مع امرأة العزيز ، ونجاته من تلك المحنة وقناعة زوجها ببراءته بناء على شهادة حكم شاهد من أقاربها بما رأى ، أورد تعالى ما تمخضت عنه المحنة والمحاولة من نتائج طبيعية هي انتشار الخبر وشيوعه في مصر ، ومحاولة امرأة العزيز تبرئة ساحتها أمام النساء بمكيدة محكمة وخطة مدروسة ، واعترافها أمامهن بأنها التي راودته عن نفسه ، فامتنع ، وأنها ما تزال مصرة مصممة على ما تريد ، وإلا أودع في قيعان السجون ، وتم اتخاذ القرار بالسجن ، وآثره يوسف ابتغاء

مرضاة اللّه ، بل دعا إليه ربه ، فسجن سبع سنين أو خمس سنين.

ج ١٢ ، ص : ٢٥٣

التفسير والبيان :

وقال جماعة من نساء الكبراء والأمراء في مدينة مصر ، منكرات على امرأة العزيز وعائبات عليها ومتعجبات منها : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ، وما تزال محاولاتها مستمرة ، بدلالة فعل تُراوِدُ الذي يفيد الاستمرار في الطلب في المستقبل ، وما زال قلبها متعلقا به.

وأكدوا إنكارهم عليها بأمرين لأن المألوف أن المرأة مطلوبة لا طالبة ، وهي امرأة الوزير الأول ، وتطلب مخالطة عبدها وخادمها :

الأول- قَدْ شَغَفَها حُبًّا أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه المحيط به ، ونفذ إلى سويدائه ، فلم تعد تبالي بالعواقب وما يؤول إليه الحال.

(٢٦٢/١٢)

و الثاني- إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي إنا لنعتقد ونعلم أنها في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه لفي خطأ واضح وبعد عن الصواب وجهل يتنافى مع مكانتها. وأردن من هذا القول المكر والحيلة ، ودفعها إلى دعوتهن والاقتناع بعذرها فيما فعلت. قال محمد بن إسحاق : بل بلغهن حسن يوسف ، فأحببن أن يرينه ، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أي باغتيابهن ، وسوء مقالتهن ، وكلامهن : امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ، وسمي الاغتياب مكرا لأنه في خفية وحال غيبة ، كما يخفي الماكر مكره ، فكما أن الغيبة تذكر على سبيل الخفية ، فكذلك المكر.

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ أي لما بلغها ما تقوله النساء عنها غيابيا ، أرسلت إليهن ، أي دعتهن إلى منزلها للضيافة ، وأعدت لهن ما يتكئن عليه من الكراسي

ج ١٢ ، ص : ٢٥٤

و الوسائد والطعام الذي يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ، وأعطت كل واحدة من النساء سكينا لقطع اللحم والفاكهة. ونحوها ، وذلك مكيدة منها ، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ، فمكرت بهن كما مكرن بها.

وَقالَتِ : اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ أي وبيناهم في تناول الفاكهة والطعام ، وكلّ تمسك بسكينها ، أمرته بالخروج عليهن ، بعد أن كانت قد خبأته في مكان آخر ، وكانت ذكية ماهرة في اختيار الوقت المناسب وهو أن

يفجأهن وقت انشغالهن بما يقطعنه ويأكلنه.

فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. أي فلما خرج ورأينه ، أعظمنه ، ودهشن لجماله الفائق وحسنه الكامل ، وجعلن يقطعن أيديهن ، اندهاشا برؤيته ، فجرحن أيديهن ، وهن يظنن أنهن يقطعن ما قدم لهن من طعام ، وهكذا يفعل المدهوش الذي اجتذب نظره حادث مؤثر ، أو منظر غريب ، أو شيء مثير.

(٢٦٣/١٢)

وَ قُلْنَ : حاشَ لِلَّهِ بحذف الألف للتخفيف واتباع المصحف ، وقرأ أبو عمرو : وحاشا لله بإثبات الألف وهو الأصل ، لأنها من المحاشاة وهي التنحية والتبعيد ، وحاشا : كلمة تفيد معنى التنزيه ، أي وقلن لها على الفور تنزيها للّه تعالى عن العجز ، وتعجبا حيث قدر على خلق جميل مثله : وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا لأنهن لم يرين في البشر مثله ، ولا قريبا منه ، فإنه عليه السّلام قد أعطي شطر الحسن ، كما

ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم مرّ بيوسف عليه السّلام في السماء الثالثة ، فقال : « فإذا هو قد أعطي شطر الحسن » .

ما هذا الذي رأيناه من جنس البشر ، وما هو إلا ملك كريم من الملائكة تمثل في صورة بشر ، والمقصود إثبات الحسن العظيم له لأنه استقر في الطباع أن لا حي أحسن من الملك ، وأن لا حي أقبح من الشيطان. فلما رأت النساء روعة

ج ١٢ ، ص : ٢٥٥

جمال يوسف شبهنه بالملك ، ونفين عنه البشرية ، لغرابة جماله وروعة حسنه.

والأقرب عند الرازي : أن النسوة لما رأين عليه هيبة النبوة والرسالة ، وعلامة التطهر والعفة ، نفوا عنه آثار الشهوة البشرية والصفات الإنسانية ، وأثبتوا له طهر الملائكة.

قالت ، وقد نجحت في انبهارهن بجماله الأخاذ : فذلكن هو الذي وجهتن اللوم إلي بسببه ، وعبتنّ علي فعلي. وإنما قالت فَذلِكُنَّ ولم تقل « فهذا » بالرغم من أنه حاضر أمامهن ، رفعا لمنزلته في الحسن ، وجدارة حبه والافتتان به ، واستبعادا لمحله السامي ، أي فذلك يوسف البعيد السامي في الكمال والجمال ، فأنا معذورة ، فهو حقيق أن يحب لجماله وكماله.

وإذا كان هذا حالكن معه في لحظة ، فما ذا أفعل وهو معي دائما في المنزل ، وإني أعترف وأقر أني واللّه لقد راودته عن نفسه ، فامتنع بإباء وشمم عما أردته منه لأنه عفيف طاهر ، ورث العفة عن أسلافه.

(٢٦٤/١٢)

قال بعضهم : لما رأين جماله الظاهر ، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن ، وهي العفة مع هذا الجمال.

ثم قالت متوعدة إياه بالعقاب : ولئن لم يفعل ما آمره به في المستقبل القريب ، ليسجنن وليكونن من الذليلين المقهورين لأن زوجي لا يخالف أمري ورغبتي.

وهذا دليل على أن حبه استولى على مجامع نفسها ، وأن السجن المؤكد الدائم سيكون عقابه ، لا مجرد الحبس المؤقت الذي كانت قد أشارت به على زوجها ، عند اكتشاف أمرها لدى الباب ، وأنها بهذا التهديد واثقة بسطانها على زوجها ، مع علمه بأمرها ، واستنكاره سلوكها ، فقد أصبح عشقها له ، وحبها المتناهي أمرا علنيا لا تواري فيه ، ولا تخشى أحدا من نقدها وتوجيه اللوم لها.

ج ١٢ ، ص : ٢٥٦

فعندئذ استعاذ يوسف عليه السّلام من شرهن وكيدهن. والكيد : الاحتيال والاجتهاد ، وقال : رَبِّ السِّجْنُ ... أي يا رب ، أنت ملاذي وملجئي ، إن السجن الذي توعدت به أحب إلي مما يدعونني إليه هؤلاء النسوة من الفاحشة وارتكاب المعصية.

وكنى عن امرأة العزيز في قوله كَيْدَهُنَّ بخطاب الجمع ، إما لتعظيم شأنها في الخطاب ، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والأولى حمل اللفظ على العموم ، أي كيد النساء ، وليس كيد امرأة العزيز فقط.

وقد أسند الدعوة إلى النساء جميعا لأنهن زيّن له مطاوعتها ونصحنه بالاستجابة لرغبتها ، وقلن له : إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار.

وهو في دعائه هذا آثر المشقة على اللذة لأن العذاب المكروه وهو السجن مع البراءة أهون من الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة ، فإن البريء المسجون يشعر بسعادة عظيمة وهي المدح في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة ، وقد اختار أهون الشرين وأخف الضررين : السجن والزنى ، ففي السجن راحة بال وهدوء نفس وخروج عن بيئة الفساد ، وتخلص من التحكم في أمره.

(٢٦٥/١٢)

ثم أكد دعاءه مبينا عجزه وضعفه ، ومفوضا أمره لمن له القدرة والقوة ، فقال : وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ .. أي وإن لم تبعد عني أثر كيدهن ، أمل إلى موافقتهن على أهوائهن ، وأكن من الجاهلين السفهاء الذين تستهويهم الشهوات ، والذين لا يعملون بما يعلمون لأن الحكيم لا يفعل القبيح ، ولأن من لا ينتفع بعلمه فهو ومن لا يعلم سواء.

أي إن وكلتني إلى نفسي ، فليس لي منها قدرة ، وإنما أعتصم وألجأ إلى حولك وقوتك ، فأنت

المستعان وعليك التكلان ، فلا تكلني إلى نفسي. وهذا

ج ١٢ ، ص : ٢٥٧

فزع منه إلى ألطاف اللّه وعصمته كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه من الصبر.

فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ .. أي فأجاب ربه دعاءه المفهوم من قوله : وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي .. الذي فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ، فصرف عنه كيدهن ، وعصمه عصمة عظيمة ، وحماه من التورط في المعصية أو الجهل والسفه باتباع أهوائهن ، إنه تعالى السميع لدعاء الملتجئين إليه ، العليم بصدق إيمانهم وبأحوالهم وما يصلحهم.

وهذا دليل على حراسة ربه له وعنايته به وتربيته تربية مثلي تليق بالأنبياء.

وقد ترفع مع شبابه وجماله وكماله عن مواقعة امرأة عزيز مصر التي كانت أيضا في غاية الجمال والأبهة ، وأختار السجن خوفا من اللّه ورجاء ثوابه ،

ثبت في الصحيحين أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال : « سبعة يظلهم اللّه في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة اللّه ، ورجل قلبه معلّق بالمساجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابّا في اللّه ، اجتمعا عليه وتفرّقا عليه ، ورجل تصدّق بصدقة ، فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يميه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف اللّه ، ورجل ذكر اللّه خاليا ففاضت عيناه » .

(٢٦٦/١٢)

ثُمَّ بَدا لَهُمْ .. ثم ظهر من المصلحة والرأي للعزيز وامرأته والشاهد الذي شهد عليها من أهلها بعد شيوع الخبر ، وبعد ما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته ، ظهر لهم أن يسجنوه لأجل غير معلوم ، إيهاما أنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه على ذلك ، وتنفيذا لرغبة زوجة العزيز التي تبين أنها ذات سلطان على زوجها ، وأنه فقد الغيرة عليها ، وآثر رضاها بأى ثمن كان.

ج ١٢ ، ص : ٢٥٨

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- إن خبر السوء سرعان ما يشيع في أنحاء المجتمع ، وأشد ما يكون شيوعا ما يكون النساء وراءه.

٢- كان نقد أكابر النساء في المجتمع المصري لامرأة العزيز لأول وهلة ، وبحكم العادة المألوفة ، حقا وصوابا ، إذ كيف تراود امرأة الوزير الأول عبدا لها وخادما عندها ، وهذا مستعظم عادة ، لترفع

السادة وأنفتهن من مخالطة الخدم والأتباع.

لذا انتقدوا شدة حبها للغلام ، ووجدوا أنها حائدة عن طريق الصواب.

٣- قابلت امرأة العزيز المكر بمثله ، فدعت نساء المدينة إلى وليمة ، لتوقعهن فيما وقعت فيه ، ولتبدي معذرتها أمامهن ، فانبهرن ودهشن بجمال يوسف لحسن وجهه وزينته وما عليه ، وجرحن أيديهن بالسكاكين التي كانت معهن لقطع ما يحتاج إلى تقطيع من الطعام ، وكن يحسبن أنهن يقطعن الأترجّ (و هو النارانج أو الكبّاد أو الكريفون وهو ثمر أكبر من الليمون الحامض يؤكل بعد إزالة قشرته).

٤- لم يملك النساء أنفسهن عن التعبير بما دهشن به عند رؤية يوسف ، وقالوا : ليس هذا من النوع الإنساني ، وإنما هو من جنس الملائكة ، والمقصود منه إثبات الحسن الفائق والجمال الرائع ، وأنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة ، وقوله : حاشَ لِلَّهِ تبرئة ليوسف عما رمته به امرأة العزيز من المراودة ، أي بعد يوسف عن هذا.

(٢٦٧/١٢)

٥- لما رأت امرأة العزيز افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها :

فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ أي بحبه ، واللوم : الوصف بالقبيح.

ج ١٢ ، ص : ٢٥٩

٦- آثر يوسف الصديق دخول السجن ابتغاء مرضاة اللّه ، وأن السجن أحب أي أسهل عليه وأهون من الوقوع في المعصية ، لا أنّ دخول السجن مما يحبّ حقيقة. حكي أن يوسف عليه السّلام لما قال : السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ أوحى اللّه إليه : « يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت : السجن أحبّ إلي ، ولو قلت : العافية أحبّ إلي لعوفيت » .

٧- جمع يوسف عليه السّلام في دعائه ليكون قدوة للبشر بين التأثر بالنوازع البشرية والميل الإنساني إلى النساء وبين جهاد النفس الذي استعان باللّه عليه ، وأوضح أن الوقوع في أهواء النساء جهل ، وكون المنزلق من زمرة الجاهلين ، أي ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم ، أو ممن يعمل عمل الجهال الذين يعملون بنقض ما يعلمون. ودل هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية اللّه إلا بعون اللّه ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه.

٨- استجاب اللّه تعالى دعاء يوسف ، ولطف به ، وعصمه عن الوقوع في الزنى لصبره والاستعاذة باللّه من الكيد. وهو شأنه تعالى يستجيب دعاء كل ملهوف ، مستعصم به ، ممتنع عن المعاصي ابتغاء رضوان اللّه تعالى.

٩- اتخذ العزيز وأهل مشورته قرارا بسجن يوسف إلى مدة غير معلومة ، كتمانا للقصة ألا تشيع بين

الناس ، بالرغم مما ثبت لهم من عفته ونزاهته ، ورأوا الآيات ، أي العلامات على براءته من قدّ القميص من دبر ، وشهادة الشاهد ، وحزّ الأيدي بالسكاكين ، وقلة صبر النساء عن لقاء يوسف.

١٠- لم يرض يوسف عليه السلام بارتكاب الفاحشة لعظم منزلته وشريف قدره ، بالرغم من إكراهه على ذلك بالسجن ، وأقام خمسة أعوام. وبناء عليه قال العلماء : لو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعا.

(٢٦٨/١٢)

فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحا ،

ج ١٢ ، ص : ٢٦٠

فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدّه ، فإن اللّه تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يجعله بين بلاءين ، فإنه من أعظم الحرج في الدين : وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ [الحج ٢٢/ ٧٨].

الفصل السادس من قصة يوسف يوسف في السجن ودعوته إلى الدين الحق [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)

ج ١٢ ، ص : ٢٦١

الإعراب :

(٢٦٩/١٢)

سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ سمّى : يتعدى إلى مفعولين ، يجوز حذف أحدهما ، فالأول : ها في سَمَّيْتُمُوها والثاني : محذوف ، وتقديره : سميتموها الهة. وأَنْتُمْ تأكيد تاء سميتموها ، ليحسن العطف على الضمير

المرفوع المتصل فيها.

البلاغة :

أَعْصِرُ خَمْراً مجاز مرسل باعتبار ما سيكون ، أي أعصر عنبا يؤول إلى خمر.

المفردات اللغوية :

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ أي أدخل يوسف السجن ، وصادف أن دخل معه غلامان آخران للملك ، أحدهما : ساقيه ، والآخر صاحب طعامه أي خبازه ، فرأياه يعبر الرؤيا ، فقالا :

لنختبرنه. قالَ أَحَدُهُما وهو الساقي. خَمْراً أي عنبا يكون خمرا. وَقالَ الْآخَرُ وهو صاحب الطعام الخباز. نَبِّئْنا خبرنا. بِتَأْوِيلِهِ بتعبيره. مِنَ الْمُحْسِنِينَ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا ، أو من العالمين. قال لهما مخبرا أنه عالم بتعبير الرؤيا. تُرْزَقانِهِ في منامكما. نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ في اليقظة أي بتفسيره الذي يؤول إليه في الواقع. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما تأويله ويتحقق المراد منه ، كأنه أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ، ويرشدهما إلى الطريق القويم ، قبل أن يجيبهما على سؤالهما.

ذلِكُما أي ذلك التأويل مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي بالإلهام والوحي ، وليس من قبيل التكهن أو التنجيم ، وهذا أيضا فيه حثّ على إيمانهما ثم قواه بقوله : إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ دين قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ هم : تأكيد كفرهم بالآخرة ، وهذا تعليل لما قبله ، أي علمني ذلك لأني تركت ملة أولئك.

(٢٧٠/١٢)

وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ .. معطوف على تَرَكْتُ أو كلام مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة ، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق به. وهو دليل على أنه يجوز لغير المعروف أن يصف نفسه حتى يعرف ، فيستفاد منه. ما كانَ لَنا أي ما كان ينبغي لنا أو ما صحّ لنا معشر الأنبياء. أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أي شيء كان ، لعصمتنا. ذلِكَ أي التوحيد. مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا بالوحي. وَعَلَى النَّاسِ وعلى سائر الناس ، ببعثتنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه.

وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ المبعوث إليهم ، وهم الكفار لا يَشْكُرُونَ اللّه على هذا الفضل ، فيشركون ويعرضون عنه.

ثم صرح يوسف بدعوتهما إلى الإيمان فقال : يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أي يا ساكنيه أو

ج ١٢ ، ص : ٢٦٢

يا صاحبيّ فيه. أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ .. استفهام تقرير. أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ أي هل الأرباب الشتى المتعددون خير أم اللّه الواحد المنفرد بالألوهية ، الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره ؟ مِنْ دُونِهِ أي غيره. سَمَّيْتُمُوها سميتم بها أصناما. ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها أي بعبادتها مِنْ سُلْطانٍ حجة وبرهان ، أي فليست

هي إلا أشياء ذات أسامي أطلقتم عليها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها فيها ، فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة ، والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة ، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها.

(٢٧١/١٢)

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أي ما القضاء في أمر العبادة إلا للّه وحده لأنه المستحق لها بالذات ، من حيث إنه الواجب لذاته ، الموجد للكل ، المالك لأمره. أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ أمر على لسان الأنبياء ألا تعبدوا إلا الذي دلت عليه الحجج. ذلِكَ التوحيد الدِّينُ الْقَيِّمُ المستقيم الحق ، وأنتم لا تميزون المعوج من القويم. وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة ، فإنه عليه السّلام بين لهم :

أولا- رجحان التوحيد على تعدد الآلهة.

وثانيا- برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الألوهية ، فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير ، وكلا القسمين منتف عن تلك الآلهة.

وثالثا- نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دود.

وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ وهم الكفار لا يَعْلَمُونَ فيخبطون في جهالاتهم ، ولا يدرون ما يصيرون إليه من العذاب ، فهم يشركون.

المناسبة :

بعد أن اتخذ العزيز وأهل مشورته قرارهم بحبس يوسف ، بالرغم من اقتناعهم بعفته ونزاهته وبراءته ، ذكر اللّه تعالى هنا تنفيذهم ذلك القرار الذي عزموا عليه ، من إدخاله السجن ، وأنهم لما أرادوا حبسه حبسوه وحبسوا معه اثنين من عبيد الملك ، وأن اللّه لطف بهم إذ علّمه تعبير الرؤيا ، وكان ذلك طريقا لإنقاذه من السجن.

ج ١٢ ، ص : ٢٦٣

التفسير والبيان :

لما أرادوا حبس يوسف حبسوه ، وحبسوا معه غلامين من عبيد الملك ، أحدهما : ساقيه ، والآخر : خبازه لأنه رفع إليه أنهما تمالا على سمه في طعامه وشرابه ، وليس ذلك مصادفة ، ولكن تقدير العزيز العليم ، وكان يوسف مشهورا في السجن بصدق الحديث وتعبير الرؤيا.

(٢٧٢/١٢)

فرأيا رؤيا ، فقال الساقي : إني رأيت في المنام أني أعصر عنبا يصير بعدئذ خمرا ، وقال الخباز : إني رأيت أني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه ، فقالا ليوسف : أخبرنا بتأويل وتفسير ما رأينا ، فهل سيحدث حقا أو هو مجرد أضغاث أحلام ؟ إِنَّا نَراكَ .. إنا نعلم أنك من الذين يحسنون تأويل الرؤيا ، أي من المحسنين في علم التعبير لأنه متى عبّر لم يخطئ ، كما قال : وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ أو من المحسنين الذين يريدون الخير والإحسان للناس.

فانتهز يوسف هذه الفرصة ، وهي ثقة هذين الرجلين به وبعلمه وإخلاصه ، فاندفع يدعوهما ومن معهما في السجن إلى توحيد اللّه الخالص ، وترك الأوثان ، فكان دخوله السجن لحكمة.

ومهد لدعوته بما يدل على المعجزة على صدقه ، فقال لهما : لا يأتيكما طعام في يومكما إلا أخبرتكما به قبل وصوله إليكما.

وهذا من تعليم اللّه إياي بوحي منه وإلهام ، لا بكهانة ولا عرافة ونحوهما من علوم البشر. وهذا يدل على أن يوسف أوحي إليه ، وهو في السجن ليدعو الضعفاء والفقراء والمظلومين والمذنبين ، فهم أقرب إلى التصديق بدعوته من غيرهم.

وسبب الوحي أني اجتنبت ملة الكافرين باللّه واليوم الآخر وهم الكنعانيون وغيرهم من أهالي فلسطين ، والمصريين الذين كانوا يعبدون آلهة متعددة كالشمس

ج ١٢ ، ص : ٢٦٤

(ع) والعجل (أبيس) والفراعنة (حكام مصر) فهؤلاء لا يرجون ثوابا ولا عقابا في المعاد ، وهم كافرون بالآخرة والحساب والجزاء على الوجه الصحيح الذي دعا إليه الأنبياء ، كالاعتقاد بأن الفراعنة يعودون إلى الآخرة بأجسامهم المحنطة ، ويكون لهم فيها الحكم والسلطان ، كما كانوا في الدنيا. وتكرير لفظ هُمْ للتأكيد وبيان اختصاصهم بالكفر ، ولمبالغتهم في إنكار المعاد.

(٢٧٣/١٢)

و قد هجرت طريق الكفر والشرك ، وتركت ملة الكافرين الذين لا يصدقون باللّه ولا يقرون بوحدانيته ، وأنه خالق السموات والأرض ، واتبعت ملة آبائي الأنبياء المرسلين : إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين يدعون إلى التوحيد الخالص. وتعبيره آبائِي مفيد أن الجد أب ، وأنه من بيت النبوة ، بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه لإخباره بالمغيبات ، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله.

وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين ، فإن اللّه يهدي قلبه ، ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماما يقتدى به في الخير ، وداعيا إلى سبيل الرشاد. وذلك ترغيب بالإيمان باللّه وتوحيده.

ثم قرر منهج الأنبياء بصفة عامة ، فقال : ما صح لنا وما ينبغي لنا معشر الأنبياء أن نشرك باللّه ، أي شيء كان ، من ملك أو جني أو إنسي ، فضلا عن أن شرك به صنما أو وثنا لا يسمع ولا يبصر.
ذلك التوحيد ، وهو الإقرار بأنه لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له هو من فضل اللّه علينا ، إذ هدانا إلى الإقرار بوجوده وتوحيده في ربوبيته وألوهيته ، وعلى الناس بإرسالنا إليهم ، ننبههم إلى الصواب ونرشدهم إليه ، ونبعدهم عن طريق الضلال ، فهو فضل إلهي على الرسل وعلى المرسل إليهم.
ج ١٢ ، ص : ٢٦٥
و لكن أكثر الناس المبعوث إليهم لا يشكرون فضل اللّه ، فيشركون ولا يتنبهون ، ولا يعرفون نعمة اللّه عليهم بإرسال الرسل إليهم ، بل بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ [إبراهيم ١٤/ ٢٨].

(٢٧٤/١٢)

و بعد أن أبطل يوسف عليه السّلام عبادة الشرك والمشركين ، وأثبت النبوة ، دعا إلى التوحيد الخالص القائم على الاعتراف بإله واحد ورب واحد ، لا بآلهة متعددة ، وهكذا مبدأ الأنبياء يهدمون عبادة الوثنية أولا ، ثم يقيمون الأدلة العقلية على وجود اللّه ووحدانيته ، فقال : أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ ...
أي يا صاحبيّ في السجن ، هل تعدد الآلهة وتشتت الأرباب المتفرقين في الذوات والصفات التي تدعو إلى النزاع والتصادم وفساد الكون خير لكما ولغيركما في طلب النفع ودفع الضر والإعانة في عالم الغيب ، أو اللّه الواحد الأحد الذي لا يحتاج لغيره ولا ينازع في تصرفه وتدبيره ، القهار بقدرته وإرادته ، الذي ذل كل شيء لجلاله وعظمته ؟ ! ثم بين حقيقة آلهتهم فقال : ما تَعْبُدُونَ ... أي إن تلك الآلهة التي تعبدونها وتسمونها آلهة إنما هي أسماء مجردة لمسميات وضعوها من تلقاء أنفسهم ، ليس لها مقومات ، ولا مستند من عند اللّه ، وما أنزل اللّه بتسميتها أربابا حجة ولا برهانا ، حتى تصح عبادتها ويطيعها الناس ، إنها تسمية لا دليل عليها من عقل ولا نقل سماوي.
ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله للّه ، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه ، وهذا الذي أدعوكم إليه من توحيد اللّه وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر اللّه به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه.
ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك هو الدين الحق الذي لا عوج فيه ، فلهذا كان أكثرهم مشركين ، كما قال تعالى : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف ١٢/ ١٠٣].
ج ١٢ ، ص : ٢٦٦
فقه الحياة أو الأحكام :
دلت الآيات على ما يلي :

١- قدّر اللّه تعالى مع سجن يوسف سجن اثنين آخرين من عبيد الملك ، كانا سبب الإفراج عنه من السجن في المستقبل.

(٢٧٥/١٢)

٢- إن تعبير الأحلام يحتاج لعلم وصلاح وتقوى وإحسان ، وإن الرؤيا قد تكون حقا ، قال صلى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أحمد والشيخان عن أنس : « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » .

٣- كان يوسف بشهادة السجناء من زمرة المحسنين ، وإحسانه : أنه كان يعود المرضى ويداويهم ، ويعزّي الحزانى. وأنه كان من العالمين الذين أحسنوا العلم ، فقولهم فيه يعني أنه عالم يؤثر الإحسان ، ويأتي بمكارم الأخلاق ، وجميع الأفعال الحميدة.

٤- أعلن يوسف للسائلين اللذين سألاه عن تفسير رؤيا في المنام : أنه كان يخبرهما عن نوع الطعام وصفاته الذي يأتيهما من جهة الملك أو غيره ، قبل الإتيان به ، بوحي من اللّه عز وجل ، لا تكهّنا وتنجيما ، وهو إخبار بالغيب دال على نبوته ، ومعجزة مثبتة لرسالته.

٥- النبي المكلف بالدعوة ينتهز كل الفرص المناسبة للقيام بواجبه ، وهذا ما فعله يوسف عليه السّلام ، فإنه دعا إلى محاربة الشرك والوثنية ، وإبطال عبادة المشركين ، وإلى توحيد اللّه تعالى ، متبعا ملة أجداده وآبائه الأنبياء :

إبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أنبياء على الحق ، وفائدة ذكر هؤلاء الأنبياء أنه عليه السّلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب ، قرن به كونه من أهل بيت النبوة.

ج ١٢ ، ص : ٢٦٧

و ليس من شأن الأنبياء الإشراك باللّه أيا كان نوع الشرك.

وهذا من فضل اللّه على الرسول مما يشير إلى عصمته من الزنى ، والمرسل إليهم هم المؤمنون الذين عصمهم اللّه من الشرك. وقوله مِنْ شَيْءٍ رد على كل أصناف الشرك كعبادة الأصنام ، وعبادة النار ، وعبادة الكواكب ، وعبادة الطبيعة ، وإرشاد إلى الدين الحق ، وهو أنه لا موجد إلا اللّه ، ولا خالق إلا اللّه ، ولا رازق إلا اللّه.

(٢٧٦/١٢)

و لكن أكثر الناس لا يشكرون على نعمة الإيمان والتوحيد. وقوله مِنْ فَضْلِ اللَّهِ يدل على أن عدم الإشراك وحصول الإيمان من اللّه تعالى.

٦- نفى يوسف بالدليل العقلي والنقلي تعدد الآلهة ، وأثبت صحة القول بوحدانية الإله وربوبيته.

٧- إن الآلهة المزعومة من الأصنام والأوثان وغيرها أسماء مخترعة من عند الناس أنفسهم ، ليس لها من الألوهية شيء إلا الاسم لأنها جمادات ، وأما مسمياتها فليست لها حقيقة موضوعية ، ويرفضها العقل والنقل.

٨- لا حكم إلا للّه ، لأنه خالق الكل ، فهو المستحق العبادة وحده لا شريك له ، لذا أمر ألا يعبد سواه.

٩- الدعوة إلى توحيد الإله هو الدين المستقيم أو القويم الذي لا عوج فيه ، ولكن أكثر الناس لا يدرون حقيقة الدين الصحيح.

١٠- أورد الرازي خمس حجج على بطلان تعدد الآلهة وهي بإيجاز وتصرف ما يأتي « ١ » :

---

(١) تفسير الرازي : ١٨/ ١٤٠ وما بعدها.

الأولى- أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم ، وهو المراد بقوله تعالى : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا [الأنبياء ٢١/ ٢٢] فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل والتنازع والصراع ، أما توحيد الإله فيقتضي حصول النظام وحسن الترتيب.

الثانية- أن هذه الأصنام ونحوها من البشر والكواكب معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة.

الثالثة- أن كونه تعالى واحدا يوجب عبادته لأنه لو كان له ثان ، لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا ، فيقع الشك في أنا نعبد هذا أم ذاك. وهذا دليل على فساد القول بعبادة الأوثان لأنها على فرض كونها نافعة ضارة لا نعلم حصول النفع ودفع الضرر من هذا الصنم ، أو من ذاك ، أو بالتعاون والاشتراك ، فلا يعرف المستحق للعبادة ، هو هذا أم ذاك.

الرابعة- لو فرض أن هذه الأصنام تنفع وتضر ، على ما يزعم أصحاب الطلاسم ، فإن ذلك في وقت مخصوص وواقعة مخصوصة ، والإله تعالى قادر على جميع المقدورات في كل الأوقات ، فكان الاشتغال بعبادته أولى.

الخامسة- إن اتصاف الإله بصفة الْقَهَّارُ يقتضي ألا يقهره أحد سواه ، وأن يكون هو قهارا لكل ما سواه

، وهذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكنا لكان مقهورا لا قاهرا ، ويجب أن يكون واحدا لا متعددا ، إذ لو تعدد لما كان قاهرا لكل ما سواه ، فالإله لا يكون قهارا إلا إذا كان واجبا لذاته وكان واحدا ، وهذا لا ينطبق على الأفلاك والكواكب والنور والظلمة والطبيعة ونحوها من الآلهة المزعومة.

١١- يستحسن للعالم إذا استفتاه أحد الجهال والفساق أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولا ، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك.

ج ١٢ ، ص : ٢٦٩

١٢- إذا جهلت منزلة العالم فوصف نفسه بما هو ملائم المسألة ، وكان غرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين ، لم يكن ذلك من باب تزكية النفس المنهي عنها « ١ » : فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ [النجم ٥٣/ ٣٢].

الفصل السابع من قصة يوسف

- ١- تأويل يوسف رؤيا صاحبيه في السجن ووصيته للناجي منهما [سورة يوسف (١(٢) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (٤١) وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

المفردات اللغوية :

أَمَّا أَحَدُكُما أي الساقي فيخرج بعد ثلاث رَبَّهُ سيده خَمْراً يسقيه خمرا على عادته وَأَمَّا الْآخَرُ الخباز ، فيخرج بعد ثلاث ، فيصلب ، فقالا : كذبنا وما رأينا شيئا ، فقال :

قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ أي قطع الأمر الذي سألتما عنه ، صدقتما أم كذبتما. والاستفتاء : طلب الفتوى عن السؤال المشكل ، والفتوى : جواب السؤال.

لِلَّذِي ظَنَّ أيقن أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا وهو الساقي اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ سيدك ، فقل له : إن في السجن غلاما محبوسا ظلما فَأَنْساهُ أي الساقي ذِكْرَ يوسف فَلَبِثَ مكث يوسف فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ البضع : من الثلاث إلى التسع ، قيل : إنه مكث سبعا في السجن.

---

(١) تفسير الكشاف : ٢/ ١٣٧

ج ١٢ ، ص : ٢٧٠

المناسبة :

بعد أن قرر يوسف عليه السّلام مسألة التوحيد وعبادة اللّه والنبوة ، عاد إلى الإجابة عن السؤال ، وتعبير الرؤيا.

التفسير والبيان :

قال يوسف : يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما وهو الساقي الذي رأى أنه يعصر خمرا- ولكنه لم يعينه في خطابه لئلا يحزن- فيسقي سيده خمرا كما كان في عادته. وقوله : رَبِّهِ لم يقصد ربوبية العبودية ، فإن ملك مصر في زمن يوسف لم يدّع الألوهية كفرعون مصر أيام موسى عليه السّلام. روي أن يوسف قال له : ما أحسن ما رأيت ، أما حسن العنبة فهو حسن حالك ، وأما الأغصان :

فثلاثة أيام ، يوجه إليك الملك عند انقضائهن ، فيردك إلى عملك ، فتصير كما كنت ، بل أحسن « ١ » . وهذا دليل على أنه كان بريئا من تهمة المشاركة في تسميم الملك.

(٢٧٩/١٢)

و أما الآخر : وهو الخباز الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه : فيصلب ، فتأكل الطيور الجوارح كالنسر والعقاب والصقر والحدأة والرخمة من رأسه. روي أن يوسف قال له : بئسما رأيت ، السلال الثلاث ثلاثة أيام ، يوجه إليك الملك عند انقضائهن ، فيصلبك ، وتأكل الطير من رأسك ، وهذا يدل على أن الخباز هو الذي اتهم بتسميم الملك وثبتت عليه التهمة. لكن تفاصيل هذه الرواية والتي قبلها تعارض ظاهر الآية.

ثم نقل في التفسير : أنهما قالا : ما رأينا شيئا فقال : قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ أي لا تناقشا فإن الأمر قد نفذ ، وسبق الحكم الذي تسألان عنه.

والاستفتاء لغة : السؤال عن المشكل ، والفتوى : جوابه.

---

(١) تفسير الرازي : ١٨/ ١٤٢

ج ١٢ ، ص : ٢٧١

و هذا صحيح لأن يوسف أعلم الصاحبين أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة لأن الرؤيا على رجل طائر ، ما لم تعبّر ، فإذا عبرت وقعت.

روى الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبي صلى اللّه عليه وسلّم قال : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت » .

وجواب يوسف ليس مجرد تعبير رؤيا مبني على الظن والحسبان ، وإنما اعتمد على الوحي من اللّه تعالى ، والوحي يفيد القطع واليقين ، لا الظن والتخمين.

ثم أخبر يوسف عليه السّلام خفية لمن ظن أي تيقن أنه ناج وهو الساقي ، دون علم الآخر ، لئلا يشعره أنه المصلوب ، وقال له : اذكر قصتي عند سيدك وهو الملك ، لعله يخرجني من السجن بعد أن علم براءتي ، وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب الظاهرية المطلوبة عادة وشرعا ، للنجاة والإنقاذ.

فأنسى الشيطان ذلك الناجي تذكير الملك بقصة يوسف ، وكان النسيان من جملة مكايد الشيطان ، لئلا يخرج نبي اللّه يوسف من السجن ، فيدعو إلى توحيد اللّه وعبادته ، ومقاومة الشرك ، ومطاردة وساوس الشيطان.

(٢٨٠/١٢)

فلبث يوسف في السجن منسيا مظلوما بضع سنين أي من الثلاث إلى التسع ، قيل : إنه مكث سبعا ، قال وهب بن منبّه : مكث أيوب في البلاء سبعا ، ويوسف في السجن سبعا ، وعذب بختنصّر سبعا.

وقال مقاتل : مكث يوسف في السجن خمسا وبضعا.

وقال ابن عباس : ثنتا عشرة سنة ، وقال الضحاك : أربع عشرة سنة.

والرأي الأول أصح لأنه داخل في معنى البضع.

ومن المعلوم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة ، إلا أن

الأولى بالصدّيقين ألا يلجأوا إلا إلى اللّه في رفع الأسباب ، فهو مسبب الأسباب ورافعها.

روي أن جبريل جاء إلى يوسف ، وهو في السجن ، معاتبا له إذ استغاث بالآدميين ، فقال له : يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوتك ؟ ! قال : اللّه تعالى ، قال : فمن أخرجك من الجبّ ؟ قال : اللّه تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : اللّه تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : اللّه تعالى ، قال : فكيف تركت ربك ، فلم تسأله ، ووثقت بمخلوق ؟ ! قال : يا ربّ ، كلمة زلّت مني ، أسألك يا إله إبراهيم وآله والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين « ١ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيتان إلى ما يلي :

١- إن تعبير الرؤيا يعتمد على العلم والصلاح والتقوى ، فلا يفيد ذلك من العالم إلا الظن ، وأما يوسف عليه السّلام فكان تعبيره الرؤيا مقترنا بالوحي من ربه ، فيفيد اليقين.

٢- من كذب في رؤياه ، ففسرها العابر له أيلزمه حكمها ؟ قال : العلماء :
لا يلزمه ، وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي ، وتعبير النبي حكم ، فأوجد اللّه تعالى ما أخبر به الرائي كما قال ، تحقيقا لنبوته.
٣- الاستعانة بغير اللّه في دفع الظلم جائزة في الشريعة ، لا إنكار عليه ،

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ١٩٥- ١٩٦

ج ١٢ ، ص : ٢٧٣
لكن الأمر بالنسبة ليوسف الصدّيق كان خلاف الأولى لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.
٤- كان من جملة مكايد الشيطان إنساء الناجي من السجن تذكير مولاه الملك بقصة يوسف عليه السّلام ، لئلا يطلع من السجن.
٥- لبث يوسف في السجن بضع سنين ، وهي إما خمس سنين ، وإما سبع سنين ، كما روي عن بعض المفسرين. وعلى أي حال فهي مدة طويلة ، صبر فيها يوسف على مراد اللّه ، وآثر السجن على الوقوع في معصية الزنى.
- ٢- تأويل يوسف رؤيا الملك [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٤٣ الى ٤٩]
وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ (٤٣) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (٤٤) وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)
ج ١٢ ، ص : ٢٧٤
الإعراب :

لِلرُّءْيا اللام زائدة للبيان أو لتقوية العامل ، كما في آية : لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ [الأعراف ٧/ ١٥٤] لأنها تزاد في المفعول به إذا تقدم على الفعل ، وقد جاء أيضا زيادتها معه ، وليس بمتقدم ، مثل قوله تعالى : عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ [النمل ٢٧/ ٧٢] لكن زيادتها مع التقديم أحسن. دَأَباً منصوب على المصدر ، وقرئ بسكون الهمزة وفتحها.

البلاغة :

إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ استعمل صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية بين كل من سِمانٍ ..

وعِجافٌ وخُضْرٍ .. ويابِساتٍ طباق.

أَضْغاثُ أَحْلامٍ شبه اختلاط الأحلام المشتملة على المحبوب والمكروه ، والسّار والمحزن باختلاط الحشيش المجموع من أصناف متنوعة.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ براعة استهلال تتضمن الاستعطاف بالثناء للوصول إلى الجواب.

يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ مجاز عقلي من قبيل الإسناد إلى الزمان والمراد به الناس لأن السنين لا تأكل ، وإنما يأكل الناس ما ادخروه فيها.

لمفردات اللغوية :

وَقالَ الْمَلِكُ ملك مصر وهو الريان بن الوليد إِنِّي أَرى أي رأيت سِمانٍ جمع سمينة يَأْكُلُهُنَّ يبتلعهن عِجافٌ سبع من البقر هزيلة ضعيفة ، جمع عجفاء وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ جمع سنبلة وهي التي تحمل الحب الذي انعقد ، واليابسات : ما آن حصاده الْمَلَأُ أشراف القوم تَعْبُرُونَ تفسرون ببيان المعنى المراد أَفْتُونِي فِي رُءْيايَ بينوا لي تعبيرها ، وهو الانتقال من الصور الخيالية إلى الواقع الحسي المشاهد.

(٢٨٣/١٢)

أَضْغاثُ أخلاط ، واحدها ضغث : وهو حزمة النبات أو مجموعة الحشيش فاستعير للرؤيا الكاذبة أَحْلامٍ جمع حلم بضم اللام وتسكينها : ما يرى في النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كأفكار اليقظة ، وقد يكون غامضا مضطربا يشبه مجموعة الحزم والحشائش التي لا تناسب بينها. وإنما جمعوا الأحلام للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان والكذب والزيف وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة ، أي ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة ، وهو مقدمة ثانية للاعتذار بالجهل بتأويله.

ج ١٢ ، ص : ٢٧٥

وَ قالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما أي من الفتيين وهو الساقي وَادَّكَرَ أي تذكر يوسف ، وفيه أبدل التاء في الأصل

دالا ، ثم أدغم في الدال أصله « اذتكر » بَعْدَ أُمَّةٍ أي تذكر يوسف بعد طائفة من الزمن مجتمعة أي مدة. فَأَرْسِلُونِ إلى من عنده علم أو إلى السجن ، فأتى يوسف.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أي يا يوسف الكثير الصدق أو المبالغ في الصدق لأنه جرب أحواله ، وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه إِلَى النَّاسِ أي إلى الملك وأصحابه أو إلى أهل البلد إذ قيل : إن السجن لم يكن فيه لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ تأويلها أو فضلك ومكانك ، وإنما لم يبت الكلام فيهما لأنه لم يكن جازما من الرجوع.

تَزْرَعُونَ ازرعوا دَأَباً متتابعة ، على عادتكم المستمرة ، وهي تأويل السبع السمان فَذَرُوهُ اتركوه وادخروه فِي سُنْبُلِهِ لئلا يفسد أو يسوس إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ في تلك السنين ، فادرسوه.

(١٢/٢٨٤)

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أي بعد السبع المخصبات سَبْعٌ شِدادٌ مجدبات صعاب ، وهي تأويل السبع العجاف يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ أي يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن ، فأسند إلى السنين على المجاز تطبيقا بين المعبر والمعبر به مِمَّا تُحْصِنُونَ تحرزون وتدخرون للبذر ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أي السبع المجدبات عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ بالمطر من الغوث والإغاثة من القحط وَفِيهِ يَعْصِرُونَ الأعناب وغيرها لخصوبته. وهذه بشارة ، بعد أن أوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة ، ولعله علم ذلك بالوحي ، أو بما جرت به السنة الإلهية على أن يوسع على عباده ، بعد ما ضيق عليهم.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى تأويل يوسف رؤيا صاحبيه في السجن ، ذكر تأويل رؤيا ملك مصر الذي كان من ملوك العرب المعروفين بالرعاة (الهكسوس) بعد أن أعلن الكهنة والعلماء وأهل الرأي عجزهم عن تأويلها ، وقالوا : أضغاث أحلام ، فكان هذا سببا في اتصال يوسف بالملك.

التفسير والبيان :

هذه رؤيا ملك مصر التي قدر اللّه أن تكون سببا لخروج يوسف عليه السّلام من السجن معززا مكرما ، والقصة أن الملك هالته هذه الرؤيا وتعجب من

أمرها ، وكيفية تفسيرها ، فجمع الكهنة وكبار رجال دولته وأمراءه ، فقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا عن تأويلها بأنها أَضْغاثُ أَحْلامٍ أي أخلاط أحلام.

والمعنى : وقال ملك مصر : إني رأيت في منامي رؤيا أدهشتني ، وهي أن سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس ، أكلتهن سبع بقرات عجاف هزيلات ، وسبع سنبلات خضر انعقد حبها ، غلبتها سبع أخر يابسات آن حصادها ، فالتوت عليها.

(٢٨٥/١٢)

فقال للملأ من قومه وهم الكهنة والعلماء : عبّروا على هذه الرؤيا ، إن كنتم تعلمون تعبير الرؤيا ، وبيان معناها الخيالي ، وترجمتها إلى الواقع الحقيقي.

فقالوا : هذه أحلام مختلطة من خواطر وخيالات تتراءى للنائم في دماغه ، ولا معنى لها ، وتنشأ من اضطراب الهضم ، وتلبّك المعدة ، وتعب النفس أحيانا ، ولسنا عالمين بتأويل أمثالها ، فلو كانت رؤيا صحيحة ، لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها.

وحينئذ تذكر الذي نجا من الموت من صاحبي يوسف في السجن ، وهو الساقي ، وكان الشيطان قد أنساه ما أوصاه به يوسف ، من عرض أمره للملك ، وكان تذكره بعد مدة من الزمان أي بعد نسيان ، فقال للملك والملأ الذين جمعهم حوله : أنا أخبركم بتأويل هذا المنام ، فابعثوني (و هو خطاب للملك والجمع ، أو للملك وحده على سبيل التعظيم) إلى يوسف الصديق الموجود حاليا في السجن.

فبعثوه فجاء فقال : يا يوسف ، أيها الرجل كثير الصدق في أقوالك وأفعالك وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام ، أفتنا في منام رآه الملك ، لعل اللّه يجعل لك فرجا ومخرجا بسبب تأويلك رؤياه.

فذكر له يوسف النبي عليه السّلام تعبيره من غير لوم وعتاب على نسيانه

ج ١٢ ، ص : ٢٧٧

ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، فقال : مبينا لهم خطة أربع عشرة سنة : إنه يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات.

ففسر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التي تكون سببا للثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضر.

(٢٨٦/١٢)

ثم أرشدهم إلى ما يفعلون في سني الخصب ، فقال : مهما جنيتم في هذه السبع السنين الخصب من الغلال والزروع ، فادخروه في سنبله ، لئلا يأكله السوس ، إلا المقدار القليل الذي تأكلونه ، فادرسوه ، ولا تسرفوا فيه لتنتفعوا بالباقي في السبع الشداد الصعاب ، وهن السبع السنين الجدب التي تعقب هذه السنوات السبع المتواليات ، وهن البقرات العجاف ، اللاتي تأكل السمان لأن سني الجدب يؤكل فيها

ما جمعوه في سني الخصب ، وهن السنبلات اليابسات ، ففي سني القحط لا تنبت الأرض شيئا ، وما بذروه لا يرجع منه شيء ، لهذا قال :

يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا .. أي إن أهلها يأكلون كل ما ادخرتم في تلك السنين السابقة لأجل السنين الجدباء ، إلا قليلا مما تحزنون وتحرزون وتدخرون لبذور الزراعة. ويلاحظ أنه نسب الأكل للسنين وأراد به أهلها.

والخلاصة : تأول يوسف عليه السّلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين محصبة ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة.

ثم بشرهم بمجيء عام يغاث فيه الناس أي يأتيهم الغيث وهو المطر ، وتغل البلاد ، ويعصر الناس فيه ما كانوا يعصرون عادة من زيت الزيتون وسكر القصب وشراب التمر والعنب ونحوها.

وهذا الإخبار بمغيبات المستقبل من وحي اللّه وإلهامه ، لا مجرد تعبير للرؤيا ، فهو بشارة في العام الخامس عشر بعد تأويل الرؤيا بمجيء عام مبارك خصيب ، كثير الخير ، غزير النعم ، وهو إخبار من جهة الوحي.

ج ١٢ ، ص : ٢٧٨

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع الآيات تعبير رؤيا الملك الذي كان سببا في خروج يوسف من السجن ، وقد دلت على الآتي :

١- لما دنا فرج يوسف عليه السّلام رأى الملك الأكبر : الرّيان بن الوليد رؤياه ، فعرضها على الكهنة والعلماء ، فاعتذروا عن تأويلها ، وكان عجزهم عن التعبير سببا في إحالة الأمر إلى يوسف.

٢- كانت رؤيا الملك في آخر الأمر بشرى ورحمة ليوسف.

(٢٨٧/١٢)

٣- الرؤيا نوعان : منها حق ، ومنها أضغاث أحلام وهي الكاذبة ، كما قال ابن عباس.

٤- في الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أوّل ما تعبر لأن القوم قالوا : أَضْغاثُ أَحْلامٍ ولم تقع كذلك فإن يوسف فسّرها على سنّي الجدب والخصب ، فكان كما عبّر ، وأما حديث أبي يعلى عن أنس مرفوعا :

« الرؤيا لأول عابر » فيظهر أنه ضعيف.

وفيها دليل أيضا على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فإذا عبرت وقعت.

وأما الحديث المتقدم الذي رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ والمعنى فلم تثبت صحته.

٥- إن تذكر الخير والإقدام على فعله بعد نسيان ، كما حدث للناجي الذي نسي ذكر أمر يوسف

للملك ، مردّه إلى القضاء والقدر والتوفيق الإلهي.

٦- كان ذهاب ساقي الملك إلى يوسف في سجنه سببا في معرفة مكانه في الفضل والعلم ، فخرج من السجن ، كما كان تأويل الرؤيا سببا في إنقاذ أهل مصر من المجاعة مدة سبع سنوات ، وهكذا فإن الأنبياء والرسل عليهم السلام رحمة

ج ١٢ ، ص : ٢٧٩

للناس جميعا ، سواء في تصحيح العقيدة وتقويم الأخلاق ، وتصحيح السلوك ، أو في الحياة المعيشية والاقتصادية.

وقد استفيد من فعل يوسف سلامة الخطة ونجاح سياسة التخطيط ، وتعليم الناس كيفية حفظ الحبوب من التسوس ، وهو إرشاد زراعي رفيع المستوى.

٧- قال القرطبي : آية تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ .. أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ولا خلاف في أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة اللّه تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من اللّه عز وجل ، ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا استحقاق « ١ » .

(٢٨٨/١٢)

٨- كان إخبار يوسف عليه السّلام عن عام الإنقاذ والخصب بعد أربع عشرة سنة وحيا من اللّه وإلهاما له ، وتلك معجزة تدل على صدق نبوته.

٩- دل قوله تعالى : إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ أي مما تحبسون أو تدخرون لتزرعوا ، على أن في استبقاء البذر تحصين الأقوات. وهو يدل أيضا على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة.

١٠- قال القرطبي أيضا : هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر ، وأنها تخرّج على حسب ما رأى ، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن فكيف إذا كانت آية لنبي ، ومعجزة لرسول ، وتصديقا لمصطفى للتبليغ ، وحجة للواسطة بين اللّه جل جلاله وبين عباده « ٢ » .

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ٢٠٣

(٢) المرجع السابق : ٩/ ٢٠٤

ج ١٢ ، ص : ٢٨٠

١١- لم يكن لإخبار يوسف عليه السّلام عن عام الغوث إشارة في رؤيا الملك ، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه اللّه ، وفيه تطمين لأهل مصر بشيوع الرخاء الاقتصادي ، والرفاه المعيشي ، واستقرار أحوال الناس بحسب عاداتهم القديمة بعصر الأعناب ، واستخراج الأدهان ، وحلب الألبان لكثرتها ، وكثرة النبات ، وذلك دليل على رحمة الإنسان والحيوان ، وهو فضل من اللّه وإحسان.

الفصل الثامن من قصة يوسف

- ١- طلب الملك رؤية يوسف والأمر بإخراجه من السجن وامتناعه من الخروج حتى تثبت براءته

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٥٠ الى ٥٢]

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (٥٢)

الإعراب :

لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ بِالْغَيْبِ حال من الفاعل أو المفعول ، أي لم أخنه وأنا غائب عنه ، أو وهو غائب عني ، أو ظرف مكان أي بمكان الغيب.

ج ١٢ ، ص : ٢٨١

المفردات اللغوية :

وَقالَ الْمَلِكُ بعد ما جاءه الرسول بتعبير الرؤيا وأخبره بتأويلها ائْتُونِي بِهِ أي بالذي عبرها فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ أي لما جاء الرسول إلى يوسف وطلبه للخروج قالَ قاصدا إظهار براءته فَسْئَلْهُ اطلب منه أن يسأل ما بالُ النِّسْوَةِ .. أي ما حال النسوة الذي يشغل البال إِنَّ رَبِّي سيدي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ حين قلن لي : أطع مولاتك ، وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم اللّه عليه ، وعلى أنه بريء مما قذف به ، والوعيد لهن على كيدهن ، فرجع فأخبر الملك فجمعهن. وإنما تريث يوسف في الخروج ، وقدم سؤال النسوة ليظهر براءته ، ويعلن أنه سجن ظلما ، وهذا يدل على أنه ينبغي على المرء أن يجتهد في نفي التهم ، ويتقي مواضعها. وإنما قال : فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ ولم يقل : فاسأله أن يفتش عن حالهن ، إغراء له بالبحث وتحقيق الحال. وإنما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كرما ومراعاة للأدب.

ما خَطْبُكُنَّ ما شأنكن وأمركن العظيم ، والخطب : أمر يحق أن يخاطب به صاحبه إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ هل وجدتن منه ميلا إليكن حاشَ لِلَّهِ تنزيه للّه وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله مِنْ سُوءٍ ذنب حَصْحَصَ الْحَقُّ ظهر الحق وثبت واستقر وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ في قوله : هي راودتني عن نفسي.

فأخبر يوسف بذلك فقال : ذلِكَ لِيَعْلَمَ أي طلب البراءة والتثبيت ليعلم العزيز أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ لم أخنه في أهله بظهر الغيب أي وراء الأستار والأبواب المغلقة وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ لا ينفذه ولا يسدده ، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم ، فأوقع فعل يَهْدِي على الكيد مبالغة. وفيه تعريض بامرأة العزيز : زليخا أو راعيل في خيانتها زوجها وتوكيد لأمانته.

المناسبة :

بعد أن عاد الساقي إلى الملك يخبره بتعبير يوسف عليه السّلام للرؤيا ، استحسنه ، وطلب الملك رؤيته حتى يتحقق بنفسه صدق ما تشير إليه الرؤيا ، إذ ليس الخبر كالعيان.

وهذا الطلب يدل على فضيلة العلم ، وأن العلماء يستشارون في مهام الأمور ، وأن العلم كان سببا لخلاص يوسف من المحنة الدنيوية ، وهو أيضا سبب للخلاص من المحن الأخروية ، لذا طلب يوسف التحقيق في التهمة المشهورة :

تهمة امرأة العزيز له.

ج ١٢ ، ص : ٢٨٢

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى في هذه الآيات عن موقف الملك الذي استراح لتعبير يوسف رؤياه ، فعرف فضل يوسف وعلمه ، وسعة اطلاعه ، واهتمامه بأهل بلده ورعاياه ، وأدرك أن تفسير الرؤيا بما سمع كلام خطير يدل على رجاحة عقل يوسف وقوة ذكائه ، فهو جدير بمقابلته شخصيا ليسمع منه الأمر.

(٢٩١/١٢)

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أي أخرجوه من السجن ، وأحضروه لي ، كي أستمع إلى كلامه ، وأتلمس مصداق الرؤيا بنفسي ، فلما جاءه الرسول بذلك ، امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز ، وأن هذا السجن كان ظلما وعدوانا.

وقد مدح النبي صلى اللّه عليه وسلّم موقف يوسف عليه السّلام ، ونبه على فضله وشرفه ، وعلو قدره وصبره ،

ففي مسند أحمد والصحيحين عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « .. ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ، لأجبت الداعي » .

قالَ : ارْجِعْ .. قال يوسف ردا على طلب مثوله أمام الملك : ارجع إلى سيدك ، فاسأله عن حال النسوة اللاتي جرحن أيديهن إذ لا أحب أن آتيه وأنا متهم بمسألة سجنت من أجلها ، واطلب من الملك أن يحقق في تلك القضية قبل أن آتيه ، ليعرف حقيقة الأمر ، إن ربي العالم بخفايا الأمور عليم بكيدهن وتدبيرهن وما دبرن لي من كيد.

فجمع الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطبا لهن كلهن ، وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز : ما خطبكن أي ما شأنكن وخبركن حين راودتن يوسف عن نفسه يوم الضيافة ، أو ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى ارتكاب الفاحشة ؟ !

ج ١٢ ، ص : ٢٨٣

قُلْنَ : حاشَ لِلَّهِ .. أجبن الملك : معاذ اللّه أن يكون يوسف أراد السوء ، وهو تعبير أريد به تبرئته والتعّجب من نزاهته وعفّته ، أي حاشا للّه أن يكون يوسف متّهما ، واللّه ما علمنا عليه سوءا في تاريخه الطويل.

(٢٩٢/١٢)

و حينئذ قالت امرأة العزيز : الآن تبيّن الحقّ وظهر ، أنا راودت يوسف عن نفسه ، لا هو ، فإنه استعصم وامتنع أيّما امتناع ، وإنه لصادق في قوله : هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وقد أرادت بذلك مكافأة يوسف على صون سمعتها ، وإخفاء أمرها ، وإعراضه عن شأنها. وهو اعتراف صريح من امرأة العزيز ببراءة يوسف من الذّنوب والعيوب.

ثم قالت : ذلك الاعتراف منّي بالحقّ ، ليعلم يوسف في سجنه أنّي لم أخنه أثناء غيبته ، أو أطعن في شرفه وطهارته وعفّته. ويجوز كما رأى الزّمخشري أن يكون ذلك الكلام كلام يوسف عليه السّلام وهو متّصل بقوله : إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ والمعنى : ذلك الأمر الذي فعلته من ردّ الرّسول والتّثبت ومطالبة الملك بالتّحقيق في أمري ، حتى تظهر براءتي أمام الملك والنّاس ، وليتيقّن العزيز أنّي لم أخنه في زوجته أثناء غيابه ، بل تعففت عنها « ١ » . وعقّب أبو حيان على ذلك فقال : ومن ذهب إلى أن قوله : ذلِكَ لِيَعْلَمَ .. إلخ من كلام يوسف يحتاج إلى تكلّف ربط بينه وبين ما قبله ، ولا دليل يدلّ على أنه من كلام يوسف « ٢ » . وقال الزّمخشري : كفى بالمعنى دليلا قائدا إلى أن يجعل من كلام يوسف عليه السّلام. والظاهر لي هو رأي أبي حيان.

وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ وليعلم الجميع أن اللّه تعالى لا ينفذ ولا يسدّد كيد الخائنين ، بل يبطله ويبدد أثره.

---

(١) الكشاف : ٢/ ١٤٢

(٢) البحر المحيط : ٥/ ٣١٧ [.....]

ج ١٢ ، ص : ٢٨٤

و إذا كان هذا من كلام يوسف فكأنه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها أمانة زوجها ، وتعريض بزوجها في خيانته أمانة اللّه حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١- دلّ رجوع الملك إلى يوسف عليه السّلام على فضيلة العلم والمعرفة التي تميّز بها يوسف عليه السّلام على جميع الكهنة والعلماء حول الملك في مصر.

٢- العلم المقرون بالعمل الصالح سبب للخلاص من المحنة الدّنيوية والأخروية ، فقد نجّى اللّه يوسف من السّجن ، وجعله من المحسنين الذين اختارهم اللّه لديه في الآخرة.

٣- لا بأس بانتهاز الفرصة لإثبات الحقّ والصّدق والبراءة ، فقد تريّث يوسف وتمهّل عن إجابة طلب الملك له.

٤- الاعتصام بالصّبر والحلم وعزّة النّفس وصون الكرامة من أصول أخلاق الأنبياء ، فإنّ يوسف تذرّع بالصّبر وحرص على إعلان براءته وعفّته ، وصون سمعته في المجتمع.

ورد في الصّحيحين مرفوعا : « و لو لبثت في السّجن ما لبث يوسف لأجبت الدّاعي » .

و

في رواية : « يرحم اللّه أخي يوسف ، لقد كان صابرا حليما ، ولو لبثت في السّجن ما لبثه ، أجبت الدّاعي ، ولم ألتمس العذر » ،

و

في رواية أحمد : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر »

، و

في رواية الطّبري : « يرحم اللّه يوسف ، لو كنت أنا المحبوس ، ثم أرسل إليّ ، لخرجت سريعا ، أن كان لحليما ذا أناة » .

٥- الواجب شرعا عدم المبادرة إلى الاتّهام بالسّوء والطّعن بالأعراض ، فإن

ج ١٢ ، ص : ٢٨٥

يوسف عفّ عن اتّهام النّساء بالسّوء حتى يتحقّق الملك ذاته من التّهمة. وقدّر جميل أو معروف سيدته امرأة العزيز ، فلم يذكرها بسوء ، وفاء لزوجها وبرّا له ، ورحمة لها وسترا عليها ، وعفّة القول أجدى في مستقبل الزّمان.

(٢٩٤/١٢)

٦- من الخصال الحسنة : الجرأة في إعلان الحقّ ، والصّراحة في إظهار الحقائق ، وعدم التّردد في إنصاف الأبرياء وتصديق الأتقياء ، فإن امرأة العزيز أعلنت براءة يوسف في مجتمع النّسوة أثناء الضّيافة فقالت : وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وكررت اعترافها بالحقّ بعد مضي سنوات على الحادث بعد أن زجّ بيوسف في قيعان السّجون ، فقالت : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ .. ثمّ أكدّت ذلك بقولها : ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ أي أقررت بالصدق ليعلم أنّي لم أكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وترفّعت عن الخيانة.

٧- المؤمن الصّادق هو الذي يؤثر مرضاة اللّه تعالى ، وإعزاز دينه على أي شيء في هذا الوجود ، فإن يوسف حرص على تمسّكه بدينه وبمرضاة ربّه في كلّ ظروف المحنة التي مرّ بها مع النّساء.

٨- إن مصير الخيانة والكيد الفشل وعدم تحقيق النّتائج : وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ ومعناه : أن اللّه لا يهدي الخائنين بكيدهم ، وإنما يبطله ، ولا يسدّده ، ولا ينفذه ، وتكون عاقبة الكيد الفضيحة والاضمحلال

(٢٩٥/١٢)

ج ١٣ ، ص : ٥

[الجزء الثالث عشر]

[تتمة سورة يوسف]

[تتمة الفصل الثامن]

بسم الله الرحمن الرحيم

- ٢- النّفس الأمّارة بالسّوء [سورة يوسف (١٢) : آية ٥٣]

وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

البلاغة :

لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ أمّارة : من صيغ المبالغة ، على وزن « فعّال » مبالغة في وصف النّفس بالاندفاع نحو

المعاصي والمهالك.

المفردات اللغوية :

وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي من الزّلل أو السّوء. إِنَّ النَّفْسَ جنس النّفس. لَأَمَّارَةٌ كثيرة الأمر ، مائلة بالطبع إلى الشّهوات. إِلَّا ما بمعنى « من » . والمعنى إلّا من رحم ربّي من النّفوس فعصمه ، أو إلا وقت رحمة ربّي ، وقيل : إن الاستثناء منقطع ، أي ولكن رحمة ربّي هي التي تصرف الإساءة.

والآية على الرّاجح حكاية قول امرأة العزيز : زليخا أو راعيل ، والمستثنى نفس يوسف وأمثاله. وقيل : ذلك من قول يوسف ، والمعنى : لا أنزهها ، تنبيها على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه والعجب بحاله ، بل إظهار ما أنعم اللّه عليه من العصمة والتّوفيق.

المناسبة :

هذه الآية من تتمة كلام امرأة العزيز ، متّصلة بما قبلها ، قال أبو حيان :

الظاهر أن هذا كلام امرأة العزيز ، وهو داخل تحت قوله : قالَتِ والمعنى :

ذلك الإقرار والاعتراف بالحقّ ، ليعلم يوسف أنّي لم أخنه في غيبته ، والذّبّ عنه ،

ج ١٣ ، ص : ٦

و أرميه بذنب هو منه بريء ، ثم اعتذرت عمّا وقعت فيه مما يقع فيه البشر من الشّهوات بقولها : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي ، والنّفوس مائلة إلى الشّهوات ، أمّارة بالسّوء « ١ » . وكذلك قال ابن كثير : هذا القول أقوى وأظهر : لأن سياق الكلام كله من امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السّلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك « ٢ » .

التفسير والبيان :

قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحقّ ، وليعلم يوسف أنّي لم أخنه في غيبته ، وهو سجين ، أو ليعلم زوجي أني لم أخنه بيوسف ، وأني لم أرتكب الفاحشة ، فلم يحدث مني إلا مجرد المراودة أو المغازلة ، فامتنع وأبى ولاذ بالفرار ، ولا أنزّه نفسي من الزّلل والخطأ ، إن النّفوس ميّالة بالطّبع إلى الشّهوات والأهواء.

إلا من رحمه اللّه الخالق ، فصرف عنه السّوء والفحشاء كيوسف وأمثاله.

ولكني لا أيأس من رحمة اللّه ، إنّ ربّي كثير المغفرة ، رحيم بالعباد.

و في قول مرجوح : إن هذه الآية حكاية لقول يوسف ، بمعنى : ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجه أثناء غيبته ، وحال ثقته بي ، وائتمانه على عرضه ، وما أبرئ نفسي البشريّة من خواطر القلب ، فكلّ نفس

ميّالة بالطّبع للشّهوات والأهواء ، إلا النّفس التي عصمها اللّه من الانزلاق في المعاصي ، ووفقها للاستقامة ، وتلك هي نفس الأنبياء ، وسيرة الصّلحاء ، إنّ ربّي غفّار لذنوب المخطئين ، رحيم بهم إذا بادروا إلى التّوبة والإنابة والتّضرّع إلى اللّه ، ليخلصهم من آثار الذّنوب ، ويطهّر نفوسهم من شوائب المعاصي.

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ٣١٧

(٢) تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٨٢

ج ١٣ ، ص : ٧

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآية على أنّ أكثر النّفوس نزّاعة للشّهوة ، ميّالة للهوى ، ذات نزعة شريرة ، تحتاج إلى مجاهدة ومكافحة ومراقبة وتحذير.

جاء في الخبر عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما تقولون في صاحب لكم ، إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية ، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية ؟ ! قالوا : يا رسول اللّه! هذا شرّ صاحب في الأرض. قال : فو الذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم » .

واستدلّ أهل السّنّة بآية : إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي على أن الطّاعة والإيمان لا يحصلان إلا من اللّه ، وعلى أن انصراف النّفس من الشّر لا يكون إلا برحمته.

ودلّت الآية أيضا على مدى فضل اللّه وإحسانه فهو غفور لذنوب عباده ، رحيم بهم إذا هم تابوا وأنابوا وأحسنوا العمل ، أي يغفر للمستغفر لذنوبه ، المعترف على نفسه ، ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

الفصل التّاسع من قصّة يوسف يوسف في رئاسة الحكم ووزارة الماليّة [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٥٤ الى ٥٧]

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

ج ١٣ ، ص : ٨

المفردات اللغوية :

أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي أجعله خالصا لنفسي دون شريك. فَلَمَّا كَلَّمَهُ أي فلما أتوا به فكلّمه ، وشاهد منه الرّشد والدّهاء. مَكِينٌ ذو مكانة ومنزلة. أَمِينٌ مؤتمن على كلّ شي ء.

خَزائِنِ الْأَرْضِ أرض مصر. إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ذو حفظ وعلم بأمرها ، وقيل : كاتب حاسب.

وَكَذلِكَ أي كإنعامنا عليه بالخلاص من السّجن. فِي الْأَرْضِ أرض مصر. يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ ينزل من بلاد مصر أي مكان أراد ، فصار صاحب الأمر والحكم بعد الضّيق والحبس. وفي القصّة كما يقول السّيوطي : أن الملك توّجه وختّمه وولاه مكان العزيز ، وعزله ، ومات بعد ، فزوّجه امرأته ، فوجدها عذراء ، وولدت له ولدين ، وأقام العدل بمصر ، ودانت له الرّقاب.

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ في الدّنيا والآخرة. وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ بل نوفّي أجورهم عاجلا وآجلا.

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ من أجر الدّنيا. وَكانُوا يَتَّقُونَ الشّرك والفواحش ، لعظمه ودوامه.

المناسبة :

بعد أن تحقق الملك الأكبر من أمر النّسوة بناء على طلب يوسف عليه السّلام ، وظهرت له براءته وعفّته ، طلب إحضاره إليه من السّجن ، ليصطفيه لنفسه ، فلما سمع منه تعبير رؤياه ، أعجب به وبعلمه وحسن أدبه ، وأعزّه وأنزله لديه مكانة عالية ، وآمنه على نفسه ، وائتمنه على كلّ شيء ، وسلّمه مقاليد الحكم والسّلطة ، وفوّض إليه تصريف وإدارة الأمور السياسيّة والماليّة في جميع أنحاء مصر.

التفسير والبيان :

المراد بالملك هنا : الملك الأكبر ، وليس العزيز على الرّأي الرّاجح ، لطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض ، ولأنه كان قبل ذلك خالصا للعزيز ، والآن يريد الملك الأكبر (الرّيان بن الوليد) استخلاصه لنفسه.

ج ١٣ ، ص : ٩

و المعنى : وقال الملك : أحضروه إليّ من سجنه ، أجعله من خاصّتي وأهل مشورتي وموضع ثقتي ، فلما خاطبه الملك وتعرّف عليه ، ورأى فضله وعلمه وبراعته ، وحسن أدبه ، وسموّ أخلاقه ، قال له : إنك عندنا اليوم وما بعده أصبحت ذا مكانة وعزّة وأمانة تؤتمن على كلّ شيء في أمور الحكم ، وصاحب التّصرف التّام في شؤون البلاد.

روي أن يوسف لما خرج من السّجن اغتسل وتنظّف ولبس ثيابا جددا ، فلما دخل على الملك قال :

اللهم إني أسألك من خيره ، وأعوذ بعزّتك وقدرتك من شرّه ، ثم سلّم عليه بالعربيّة ، فقال الملك : ما هذا اللسان ؟ فقال : لسان عمي إسماعيل ، ودعا له بالعبريّة ، فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان آبائي.

وكان إبراهيم وأولاده وحفدته من العرب القحطانيين ، وكان ملوك مصر من العرب الذين يسمون بالرّعاة (الهكسوس).

(٤/١٣)

قال يوسف : اجعلني أيها الملك على خزائن الأرض : وهي الخزن التي تخزن فيها الغلال ، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلّات لما يستقبلونه من السّنين التي أخبرهم بشأنها ، أي ولّني عليها ، لأشرف عليها ، وأتصرّف فيها حتى أجعل توازنا اقتصاديا بين سنوات الخصب وسني القحط ، فأنقذ البلاد من المجاعة التي تهدد أهلها ، بحسب الرؤيا التي رأيت لأني حفيظ عليم ، أي خازن أمين ، ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وفي هذا إيماء لأهمية التّخطيط والتّنظيم المالي وإقامة التوازن بين الموارد الماليّة والنفقات.

فأجابه الملك إلى طلبه ، وجعله وزير المال والخزانة ، وأطلق له سلطة التّصرف في شؤون الحكم ، لما لمس لديه من رجاحة عقل ، وخبرة وضبط وسياسة ، وحسن تصرّف ، وقدرة على إحكام النّظام.

وَكَذلِكَ مَكَّنَّا .. أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا على يوسف في

ج ١٣ ، ص : ١٠

تقريبه إلى قلب الملك ، وإنجائه من السّجن ، مكّنّا له في الأرض ، أي أقدرناه على ما يريد ، وجعلنا له مكانة ومنزلة في أرض مصر ، فانتقل من كونه مملوكا إلى أن أصبح مالكا آمرا ناهيا ، ذا نفوذ وسلطة ، مطاعا بعد أن كان تابعا لغيره مطواعا ، حرّا طليقا بعد أن كان سجينا أسيرا ، وذلك لما تحلّى به من صبر ، وإطاعة للّه عزّ وجلّ ، وعفّة وخلق وعقل حكيم ، فإنه صبر على أذى إخوته ، وفي الحبس بسبب امرأة العزيز ، وعفّ عن السّوء والفحشاء ، وامتنع من اقتراف المنكر ، فأعقبه اللّه النّصر والتّأييد ، وأصبح في منصب سيّده السّابق الذي اشتراه من مصر ، العزيز زوج التي راودته ، قال مجاهد : وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السّلام.

وما أضاعه ربّه ورحمه وصانه ، واللّه تعالى يخصّ برحمته من يشاء ورحمته وسعت كل شيء ، فيعطي الملك والغنى والصّحة ونحوها من يريد من عباده.

وقوله تعالى : بِرَحْمَتِنا أي بإحساننا ، والرّحمة : النّعمة والإحسان.

(٥/١٣)

وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ أي لا نضيع ثواب الذين يحسنون أعمالهم ، فنمنحهم في الدّنيا سعادة وعزّا ومكانة ، وفي الآخرة خلودا في الجنان.

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ .. أي إنّ ثواب الآخرة للمؤمنين الأتقياء ، وهو التّنعم في الجنان خير وأعظم وأكثر من خير الدّنيا وما فيها من متاع العزّ والسّلطان ، والجاه والملك ، والمال والزّينة ونحو ذلك.

واللّه تعالى يخبر بهذا أن ما ادّخره لنبيّه يوسف عليه السّلام في الدّار الآخرة أعظم وأكثر وأجلّ مما أنعم عليه من التّصرّف والنّفوذ في الدّنيا ، كقوله في حقّ سليمان عليه السّلام : هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ [ص ٣٨/ ٣٩- ٤٠].

ومن جمع له اللّه السّعادتين في الدّنيا والآخرة ، كان فضل اللّه عليهم أكثر ،

ج ١٣ ، ص : ١١

و عطاؤه أتمّ ، لقيامهم بواجب الطّاعة ، واجتنابهم المعصية ، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدتنا الآيات إلى ما يلي :

١- إنّ الحوار وسيلة التّعارف والتّعرف على فضائل الإنسان ومعارفه ، وبه يزن العاقل مقادير الرّجال.

٢- إن المقوّمات العالية من علم وخلق وأدب وحسن تصرّف تبوئ صاحبها المنزلة السّامية والمكانة الرّفيعة.

٣- يجوز طلب الولاية وإظهار كون الشّخص مستعدّا لها ، إذا كان من أجل التّعريف للمغمور غير المعروف ، وكان الشّخص واثقا من نفسه ودينه وعلمه ، وأهلا لما يطلب.

وأما النّهي عن طلب الإمارة في

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم لعبد الرّحمن بن سمرة فيما أخرجه الشيخان : « لا تسأل الإمارة »

والنّهي عن مدح النّفس في قوله تعالى :

فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ [النجم ٥٣/ ٣٢] فالمراد به في الحديث لمن لا يثق بنفسه من القيام بحقّ الولاية لضعفه وعجزه ، أو لأغراض نفسه ، والمراد بالآية تزكية النّفس حال العلم بكونها غير متزكية ، وكل من المحذورين لا ينطبق على النّبي يوسف عليه السّلام وأمثاله الأنبياء ، لأنه يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان ، ولأن السّعي في إيصال النّفع إلى المستحقين ودفع الضّرر عنهم أمر مستحسن في العقول ، وعلم يوسف أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الحقوق إلى الفقراء ، فرأى

أن قيامه بهذه الأمور فرض متعيّن عليه ، وقال يوسف عن نفسه : إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ عند من لا يعرفه ، فأراد تعريف نفسه.

ج ١٣ ، ص : ١٢

٤- يباح للرّجل الفاضل أن يعمل للرّجل الفاجر ، والسّلطان الكافر ، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحقّ وسياسة الخلق إلا بالاستعانة به ، وكان مفوّضا في فعله لا يعارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء. وأما إذا كان عمله بحسب مراد الفاجر وهواه ، فلا يجوز.

فإن كان المولّي ظالما فللعلماء قولان : أحدهما- جواز تولّي العمل له إذا عمل بالحقّ فيما تقلّده : لأن يوسف عليه السّلام ولّي من قبل فرعون ، ولأن الاعتبار بفعله لا بفعل غيره.

الثاني : أنه لا يجوز ذلك : لما فيه من إعانة الظّالم على ظلمه ، وتزكيته ودعمه وتأييده بتقلّد أعماله.

وأما فرعون يوسف فكان صالحا ، وعن مجاهد : أن الملك أسلم على يده. وإنما الطّاغي فرعون موسى ، ثم إنّ يوسف نظر في مصالح الأمة والبلاد وأملاك الملك دون أعماله ، فزالت التّبعة عنه.

٥- للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل إذا دعته الضرورة إليه ، كالكسب المعيشي ونحوه.

٦- قوله تعالى : وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ شهادة من اللّه تعالى على أن يوسف عليه السّلام كان من المحسنين.

٧- غمرت رحمة اللّه وفضله وإحسانه يوسف عليه السّلام لصبره وتقواه ، وإنه سبحانه ما أضاع يوسف لصبره في الجبّ ، وفي الرّقّ ، وفي السّجن ، وعلى أذى إخوته ، وصبره عن محارم اللّه عما دعته إليه المرأة.

٨- إن ثواب الآخرة وعطاء اللّه فيها أجلّ وأعظم وأكثر من عطاء الدّنيا لمن كان مؤمنا تقيّا ، لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدّنيا منقطع ، وظاهر الآية :

وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ ... العموم في كلّ مؤمن متّق ، وهي تدلّ دلالة خاصة على

ج ١٣ ، ص : ١٣

فضل اللّه على يوسف عليه السّلام ، فإن ما سيعطيه اللّه له في الآخرة خير وأفضل مما أعطاه إيّاه في الدّنيا من الملك والسّلطان والمكانة والسّمو.

ودلّت هذه الآية بخصوصها على أن يوسف عليه السّلام من الذين آمنوا وكانوا يتّقون ، وهذا تنصيص من اللّه عزّ وجلّ.

والخلاصة :

تضمّنت الآيات شهادتين من اللّه تعالى ليوسف عليه السّلام الأولى أنه كان من المحسنين ، والثانية أنه كان من المؤمنين المتّقين. ودلّت آية أخرى وهي :

إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ على أنه من المخلصين ، فصارت الشّهادات من اللّه تعالى ليوسف ثلاثة : كونه من المتّقين ، ومن المحسنين ، ومن المخلصين. وسبب هذه الشّهادات الصّبر على مراد اللّه فيه ، والطّاعة والتّقوى وإخلاص العمل وصفاء النّفس من الأحقاد والضّغائن.

الفصل العاشر من قصة يوسف أولاد يعقوب يشترون القمح من أخيهم يوسف ومطالبته إياهم بإحضار أخيهم [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٥٨ الى ٦٢]

وَ جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (٦١) وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

ج ١٣ ، ص : ١٤

البلاغة :

فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ بين عرف وأنكر : طباق.

المفردات اللغوية :

وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ وهم أحد عشر إلا بنيامين ليمتاروا لما بلغهم أن عزيز مصر يعطي الطعام بثمنه.

فَعَرَفَهُمْ أنهم إخوته ، والمعرفة وعرفان الشي ء : التّفكّر في أثره. وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ الإنكار : ضدّ المعرفة ، أي أنهم لم يعرفوه لبعد عهدهم به وظنّهم هلاكه. جَهَّزَهُمْ أو في لهم كيلهم من القمح الذي جاؤوا لطلبه من عنده ، أي جعله تاما وافيا. وجهاز السّفر : أهبته وحوائجه ، وجهاز العروس : حوائج الزّفاف.

بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أي بنيامين لأعلم صدقكم فيما قلتم. أُوفِي الْكَيْلَ أتمّه من غير بخس. الْمُنْزِلِينَ المضيفين الضيوف ، وكان أحسن إنزالهم وضيافتهم.

فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي أي ميرة. وَلا تَقْرَبُونِ نهي أو عطف على محل : فَلا كَيْلَ أي تحرموا ولا تقربوا ، أي فلا تقربوني ولا تدخلوا دياري. سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ سنجتهد في طلبه من أبيه ، ونستميله لتحقيق هذه الرّغبة برفق. وَإِنَّا لَفاعِلُونَ ذلك لا نتوانى فيه. لِفِتْيانِهِ لغلمانه الكيالين ، جمع فتى. بِضاعَتَهُمْ ثمن ما أتوا به من الطعام ، وكانت دراهم فضة ، وإنما فعل ذلك توسيعا وتفضّلا عليهم وترفّعا من أن يأخذ ثمن الطّعام منهم. فِي رِحالِهِمْ أوعيتهم.

لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها لعلهم يعرفون حقّ ردّها ، أو لكي يعرفوها. إِذَا انْقَلَبُوا انصرفوا ورجعوا إلى أهلهم ، وفتحوا أوعيتهم. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرّجوع.

أضواء من التّاريخ :

قال ابن عباس وغيره « ١ » : لما أصاب النّاس القحط والشدّة ، ونزل ذلك بأرض كنعان ، بعث يعقوب عليه السّلام ولده للميرة ، وذاع أمر يوسف عليه السّلام في الآفاق ، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته ، وكان يوسف عليه السّلام حين نزلت الشّدّة بالنّاس يجلس عند البيع بنفسه ، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم ، لكلّ رأس وسقا « ٢ » .

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ٢٢٠

(٢) الوسق : ستون صاعا ، والصّاع (٢٧٥١ غم) ، وعند الحنفيّة (٣٩٠٠ غم).

و ذكر السّدّي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين : أن السّبب الذي من أجله أقدم إخوة يوسف بلاد مصر : أن يوسف عليه السّلام ، لما باشر الوزارة بمصر ، ومضت السّبع السّنين المخصبة ، ثم تلتها السّبع السّنين المجدبة ، وعمّ القحط بلاد مصر بكمالها ، ووصل إلى بلاد كنعان : وهي التي فيها يعقوب عليه السّلام وأولاده ، وحينئذ احتاط يوسف عليه السّلام للنّاس في غلّاتهم ، وجمعها أحسن جمع ، فحصل من ذلك مبلغ عظيم ، وهدايا متعددة ، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات ، يمتارون لأنفسهم وعيالهم ، فكان لا يعطي الرّجل أكثر من حمل بعير في السّنة ، وكان عليه السّلام لا يشبع نفسه ، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النّهار ، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدّة السّبع السنين ، وكان رحمة من اللّه تعالى على أهل مصر « ١ » .

وغير هذه الرّوايات هي من الإسرائيليات.

التفسير والبيان :

وجاء إخوة يوسف عليه السّلام من أرض كنعان (فلسطين) إلى مصر ، يطلبون شراء القمح ، لأن القحط عمّ بلاد الشّام ومصر ، لما بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه.

فلما دخلوا على يوسف ، وهو في منصبه الرّفيع ، عرفهم حين نظر إليهم ، لأن ملامح الكبار لا تتغيّر كثيرا ، وهم له منكرون ، أي لا يعرفونه ، لأنهم فارقوه ، وهو صغير حدث ، وباعوه للسّيّارة ، والملامح في حال الصّغر تتغيّر كثيرا في حال الكبر ، ولأنهم قدروا هلاكه ، وما دار في خلدهم أنه سيصير إلى ما صار إليه ، ولنسيانهم له بطول العهد.

وزاد في الأمر أنه- كما ذكر السّدّي- شرع يخاطبهم ، فقال لهم كالمنكر

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٨٣

عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ فقالوا : أيّها العزيز ، إنّا قدمنا للميرة ، قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ اللّه ، قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيّ اللّه ، قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم ، كنّا اثني عشر ، فذهب أصغرنا هلك في البريّة ، وكان أحبّنا إلى أبيه وبقي شقيقه ، فاحتبسه أبوه ليتسلّى به عنه ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

لكن يبعد من يوسف عليه السّلام أن يتّهم إخوته وينسبهم إلى أنهم جواسيس وعيون ، لأنه يعرف براءتهم عن هذه التّهمة. وعلى كل حال إنه سؤال لا يقتضي صحته.

ولما جهّزهم بجهازهم ، أي لما أوفى لهم كيلهم ، وحمل أحمالهم من القمح ، وهي عشرة أحمال وزادهم حملين آخرين لأبيهم وأخيهم ، قال : ائتوني في المرة القادمة بأخ لكم من أبيكم ؟ وهو بنيامين ، ألا ترون أني أتمّ لكم الكيل الذي تريدون دون بخس ، وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم ، وأنا خير المنزلين ، المضيفين للضيوف ، وكان أحسن ضيافتهم ؟ وقصده من ذلك ترغيبهم في الرّجوع إليه ، وكان السّبب في سؤال يوسف عن حال أخيهم أنهم ذكروا أن لهم أبا شيخا كبيرا وأخا بقي في خدمة أبيه ، ولا بدّ لهما أيضا من شيء من الطعام ، فجهّز لهما أيضا بعيرين آخرين من الطعام ، فقال يوسف : فهذا يدلّ على أن حبّ أبيكم له أزيد من حبّه لكم ، فجيئوني به حتى أراه.

ثم أنذرهم بقوله : فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ، فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي أي إن لم تقدموا به في المرة الثّانية فليس لكم عندي ميرة ، وَلا تَقْرَبُونِ أي ولا تدخلون بلادي.

قالُوا : سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ سنجتهد في طلبه من أبيه ، ونحاول إقناعه بذلك برفق ، وإنّا لفاعلون ذلك لا

محالة ، أي سنحرص على مجيئه إليك بكلّ إمكاناتنا ولا نبقي مجهودا نبذله ، لتعلم صدقنا فيما قلناه.
ج ١٣ ، ص : ١٧

و قال لفتيانه أي لغلمانه ، اجعلوا بضاعتهم في رحالهم أي اجعلوا البضاعة التي اشتروا بها الطعام ، وقدموا بها للميرة معاوضة ، في أمتعتهم التي لهم من حيث لا يشعرون.
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها .. لعلهم يعرفون حقّ ردّها وحقّ إكرامنا لهم بإعادتها إليهم ، لعلهم يرجعون إلينا ، بعد عودتهم إلى أهلهم ، وفتح متاعهم.
فقه الحياة أو الأحكام :
يفهم من الآيات ما يأتي :
١- قد لا يعرف الأخ أخاه بسبب طول العهد والمدّة ، لا سيما إذا تبدل حال الأخ من أدنى درجات الحال إلى أعلاها ، مما يبعد عن التّصور في الذّهن احتمال معرفته.
٢- تحقيق الغايات قد يستعمل من أجله التّرغيب والتّرهيب معا ، كما فعل يوسف من أجل إحضار أخيه بنيامين ، فالتّرغيب هو قوله : أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ، وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ، والتّرهيب هو قوله : فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ، فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام ، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، فإذا منعهم من الحضور عنده ، كان ذلك نهاية التّرهيب والتّخويف.
٣- اتّفق أكثر المفسّرين على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم.
٤- السّبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم : هو ترغيبهم في العود إليه ، والحرص على معاملته ، حينما يعلمون أن بضاعتهم ردت إليهم ، كرما من يوسف ، وسخاء محضا.
ج ١٣ ، ص : ١٨
٥- استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ، لأنه يجوز أن يكون اللّه عزّ وجلّ أمره بذلك ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثّواب ، فاتّبع أمره فيه ، وهذا هو الأظهر كما قال القرطبي. وربّما كان السّبب تنبيه أبيه على حاله ، أو لتتضاعف المسرّة لأبيه برجوع ولديه عليه ، أو إيثارا لأخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ، لميله إليه.

الفصل الحادي عشر من قصّة يوسف مفاوضة إخوة يوسف أباهم لإرسال أخيهم بنيامين معهم في المرة القادمة [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٦٣ الى ٦٦]

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٦٣) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

الإعراب :

خَيْرٌ حافِظاً وقرئ : حفظا : وهما منصوبان على التّمييز ، مثل قولهم : للّه درّه فارسا.

ما نَبْغِي : ما : استفهامية في موضع نصب ، لأنها مفعول نَبْغِي وتقديره :

أي شيء نبغي. لَتَأْتُنَّنِي بِهِ اللام لام القسم.

ج ١٣ ، ص : ١٩

إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ قال الزمخشري : هذا استثناء متّصل ، مفعول له أي لأجله ، والكلام المثبت الذي هو قوله : لَتَأْتُنَّنِي بِهِ في تأويل المنفي ، ومعناه : لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم ، أي لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة ، وهي أن يحاط بكم.

المفردات اللغوية :

مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ حكم بمنعه بعد هذا إن لم ترسل أخانا بنيامين. نَكْتَلْ نتمكن من اكتيال ما نحتاج إليه.

وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ من أن يناله مكروه. قالَ يعقوب لهم هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ أي ما آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه يوسف من قبل ، وقد قلتم فيه : وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ثم فعلتم به ما فعلتم.

فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً فأتوكّل عليه وأفوض أمري إليه. وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فأرجو أن يرحمني بحفظه ، ولا يجمع عليّ مصيبتين. ما نَبْغِي ما : استفهامية ، أي : أيّ شيء نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا ؟ وكانوا ذكروا له إكرامه لهم. هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا استئناف موضح لقوله : ما نَبْغِي.

وَنَمِيرُ أَهْلَنا نأتي بالميرة لهم وهي الطعام ، وهو معطوف على محذوف ، أي ردّت إلينا ، فنستظهر بها ، ونمير أهلنا بالرّجوع إلى الملك. وَنَحْفَظُ أَخانا من المخاوف في ذهابنا وإيابنا.

وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ لأخينا ، أي مكيل بعير. ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ سهل على الملك لسخائه ، أو سهل لا عسر

فيه لتوافر الغلال لديه.

حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً حتى تعطوني عهدا. مِنَ اللَّهِ بأن تحلفوا به. إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ بأن تموتوا أو تغلبوا ، فلا تطيقوا ذلك ولا تستطيعوا الإتيان به ، وهو استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ، والتّقدير : لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم. فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ أعطوه عهدهم بذلك. قالَ : اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ من طلب الموثق وإتيانه وَكِيلٌ شهيد ، ورقيب مطّلع.

المناسبة :

الكلام وثيق الصّلة بما قبله ، فبعد أن ذكر اللّه تعالى مطالبة يوسف عليه السّلام إخوته بإحضار أخيه بنيامين ، ذكر هنا مفاوضتهم أباهم لإنجاز المطلوب ، وإبداءه مخاوفه عليه كمخاوفه القديمة التي أظهرها عند ما تآمروا على أخذ يوسف عليه السّلام للصّحراء بقصد الرّتع واللعب.

ج ١٣ ، ص : ٢٠

التفسير والبيان :

حينما رجع أولاد يعقوب إلى أبيهم قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم : إن عزيز مصر منع عنّا الكيل في المستقبل إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين ، فإن لم ترسله لا نكتل ، فأرسله معنا نكتل من الطعام بقدر عددنا ، وإنّا له لحافظون من كلّ مكروه وسوء في الذّهاب والإياب ، فلا تخف عليه ، فإنه سيرجع إليك.

قال يعقوب : هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيّبونه عنّي وتحولون بيني وبينه ، وقد فرّطتم في يوسف ، فكيف آمنكم على أخيه ؟

فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً أي فإني أثق به وأتوكّل عليه وأفوض أمري إليه ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أي هو أرحم الرّاحمين بي ، وسيرحم كبري وضعفي وتعلّقي بولدي ، وأرجو اللّه أن يرحمني بحفظه ، وأن يردّه عليّ ، ويجمع شملي به ، إنه أرحم الرّاحمين.

وهذا دليل على موافقته على إرساله معهم ، للحاجة الشّديدة إلى الطعام ، وعدم ملاحظته وجود قرائن تدلّ على الحسد والحقد فيما بينهم وبين بنيامين ، خلافا لحال يوسف.

ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وأوعية طعامهم ، وجدوا فيها بضاعتهم أي ثمن الطعام ، ردّت إليهم ، وهي التي كان يوسف أمر غلمانه بوضعها في رحالهم.

فلما وجدوها في رواحلهم قالوا : يا أبانا ، ماذا نريد زيادة على هذا الإكرام وإحسان الملك إلينا ، كما حدثناك ، هذه دراهمنا ردّها إلينا ، وإذا ذهبنا بأخينا نزداد كيل بعير بسبب حضوره. وهذا إذا جعلت ما استفهامية ، فإن كانت نافية كان المعنى : لا نبغي شيئا آخر ، هذه بضاعتنا ردّت إلينا ، فهي كافية لثمن الطعام في الذّهاب الثّاني ، ثم نفعل كذا وكذا من جلب الميرة وغيرها.

ج ١٣ ، ص : ٢١

إننا إذا ذهبنا مع أخينا في المرّة الثّانية وأرسلته معنا ، نأتي بالميرة إلى أهلنا من مصر.

ونحفظ أخانا بنيامين بعنايتنا ورعايتنا ، فلا تخف عليه.

ونزيد مكيال بعير لأجله ، لأن عزيز مصر كان يعطي لكلّ رجل حمل بعير ، دون زيادة ولا نقص ، اقتصادا وحسن تدبير.

وذلك الحمل الزّائد أمر يسير قليل ، أو سهل لا عسر فيه على هذا الرّجل السّخي الرّحيم في مقابلة أخذ أخينا.

قال يعقوب ، وقد تذكّر ماضي يوسف : لن أرسل بنيامين معكم حتى تعاهدوني عهدا موثقا باليمين ، لتعودنّ به على أي حال كنتم ، إلا في حال يمتنع ذلك عنكم بأن تهلكوا وتموتوا أو تغلبوا على أمركم وتقهروا كلكم ، ولا تقدرون على تخليصه. ويلاحظ أن العهد المؤكّد باليمين يسمّى يمينا ، وإن أكّد ووثّق بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به بغير اليمين يسمّى ميثاقا.

فلما آتوه أي أعطوه موثقهم ، أي عهدهم المؤكّد باليمين ، قال يعقوب : اللّه على ما نقول جميعا وكيل ، أي شهيد رقيب حفيظ مطّلع ، وأفوض أمري إليه ، وقد وافق على إرساله اضطرارا من أجل الميرة التي لا غنى لهم عنها.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١- كان أولاد يعقوب فيما أخبروا به أباهم من منع الكيل صادقين ، حتى يرسل معهم أخاهم ، كما وعدوا عزيز مصر.

٢- تعهد أولاد يعقوب عليه السّلام بالمحافظة على أخيهم بنيامين ، وكأنهم لم

ج ١٣ ، ص : ٢٢

يريدوا تكرار مأساة يوسف عليه السّلام ، لأنهم كانوا يحملون في صدورهم الحقد والحسد عليه ، خلافا لحال بنيامين.

٣- تعلّق إخوة يوسف بزيادة الكسب والرّبح ، وطمحوا أن يأتوا مرة أخرى بطعام لهم من مصر من غير ثمن.

٤- كان إكرام يوسف لإخوته وردّه ثمن الطعام إليهم عاملا مرغّبا قويّا في عودتهم إليه مرة أخرى ، مصطحبين معهم أخاهم بنيامين.

٥- إن يعقوب النّبي عليه السّلام كان في حديثه مع أولاده مطمئنا إلى حفظ اللّه ورحمته ، فهو نعم الوكيل الحافظ ، وهو أرحم الرّاحمين بعباده ، لا سيّما حال الضّعفاء وكبار السّن أمثاله ، فحفظ اللّه له خير من حفظكم إيّاه.

٦- تشدّد يعقوب عليه السّلام هذه المرة مع أولاده أكثر مما حدث عند إذنه بإرسال يوسف عليه السّلام ، بعد تلك التّجربة القاسيّة وما أعقبها من حزن شديد وألم ، فطلب منهم الميثاق وهو العهد المؤكّد باليمين على إحضاره إليه إلا في حال العذر القاهر والإحاطة بهم ، قال مجاهد معناها : إلا أن تهلكوا أو تموتوا.

وقد دلّ قوله تعالى : هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ .. على أنه أجابهم إلى إرساله معهم.

٧- أراد أولاد يعقوب عليه السّلام تطييب نفس أبيهم بقولهم : ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا .. ؟ فهم حشدوا لإقناعه وتطييب نفسه كلّ الأسباب والبواعث المادية واستغلّوا حاجتهم الشديدة : أخذ الطعام دون ثمن ، إعالة الأهل ، إضافة حمل بعير ، وضمّوا إلى ذلك كلّه التّعهد بالحفظ والرّعاية ، فلم يجد بدّا من الموافقة على إرسال بنيامين معهم.

٨- قوله تعالى : لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ

دليل على جواز الكفالة (الحمالة) بالعين والوثيقة بالنّفس (كفالة النّفس) وللعلماء فيها رأيان : رأي الجمهور : هي جائزة إذا كان المكفول به مالا. ولا تجوز الكفالة بالحدود والقصاص في رأي المذاهب الأربعة ، وأجاز الشافعية الكفالة بالقصاص ، والقذف ، والتّعزير ، لما فيها من حقّ العبد. وقال بعضهم : لا تجوز الكفالة بالنّفس ، لتعذّر إحضار المكفول بنفسه ، ولقوله تعالى على لسان العزيز في قصّة يوسف عليه السّلام : قالَ : مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ ، إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ.

الفصل الثاني عشر من قصة يوسف وصية يعقوب لأولاده بالدخول إلى مصر من أبواب متفرقة [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٦٧ الى ٦٨]

وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ

الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨)

الإعراب :

مِنْ شَيْءٍ إما مفعول وإما فاعل ، والتقدير على المفعولية : ما كان يغني من قضاء اللّه شيئا ، وعلى الفاعلية : ما كان يغني عنهم من اللّه شيء مع قضائه.

البلاغة :

لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ فيه طباق السلب ، وفيه إطناب : وهو زيادة اللفظ على المعنى ، للتأكيد والتقرير وتمكين المعنى في النفس.

ج ١٣ ، ص : ٢٤

المفردات اللغوية

لا تَدْخُلُوا مصر. وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ لأنهم كانوا ذوي جمال وأبهة مشتهرين في مصر بالكرامة والحظوة عند العزيز ، فخاف عليهم أن يدخلوا جماعة واحدة فتصيبهم العين.

ولعله لم يوصهم بذلك في المرة الأولى ، لأنهم كانوا مجهولين حينئذ. وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أي وما أدفع عنكم بقولي ذلك شيئا قدره اللّه عليكم وقضاه ، وإنما ذلك شفقة ، فإن الحذر لا يمنع القدر. ومن : صلة زائدة لتمكين النفي.

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أي ما الحكم إلا للّه وحده ، يصيبكم لا محالة إن قضي عليكم سوء ، ولا ينفعكم ذلك. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ به وثقت. فَلْيَتَوَكَّلِ الفاء لإفادة التسبب ، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم. والواو في قوله وَعَلَيْهِ للعطف ، وقدم عَلَيْهِ في عطف الجملة على الجملة للاختصاص.

مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ أي من أبواب متفرقة في البلد. ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ أي ما كان يفيد رأي يعقوب واتباعهم له مما قضاه اللّه عليهم شيئا ، فحدث وضع الصواع في رحل بنيامين ، وتضاعفت المصيبة على يعقوب.

إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها استثناء منقطع ، أي ولكن حاجة في نفسه يعني شفقته عليهم وحرصه على ألا يعانوا (تصيبهم العين) وقضاها أي أظهرها ، ووصى بها. وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ إن يعقوب عليم بحقائق الأمور وأن العين لا توقع ضررا إلا بإذن اللّه ، لتعليمنا إياه بالوحي وإقامة الحجج ، ولذلك قال : وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ولم يغتر بتدبيره.

وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ وهم الكفار. لا يَعْلَمُونَ سر القدر ، وأنه لا يغني عنه الحذر ، وأن الحكم للّه. وهذا ثناء من اللّه على يعقوب عليه السّلام.

المناسبة :

(٢٠/١٣)

بعد أن أبان اللّه تعالى موافقة يعقوب على إرسال بنيامين مع إخوته إلى مصر ، ذكر هنا وصيته لأولاده لما عزموا على الخروج إلى مصر ، وهي الدخول من أبواب متفرقة ، ليروا مدى الاهتمام والاستقبال لكل واحد منهم حين رؤية بنيامين شقيق يوسف ، أو لئلا يحسدهم الحساد ، وتصيبهم العين جميعا.

ج ١٣ ، ص : ٢٥

التفسير والبيان :

أمر يعقوب بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر ألا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، لأنهم كانوا من أهل جمال وكمال ، وذلك في رأي جمهور المفسرين لئلا تصيبهم العين ، فإنه خاف من العين عليهم ، والعين حق أي أنها سبب حق في الظاهر قد تؤدي إلى الضرر ، ولكن بإذن اللّه وإرادته ، بدليل قوله بعدئذ : وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ ءٍ. أو ليروا من العزيز فرق الاستقبال بينهم وبين أخيهم بنيامين.

وَما أُغْنِي .. أي وما أدفع عنكم بوصيتي وتدبيري من قضاء اللّه شيئا ، إذ لا يغني حذر من قدر ، أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر اللّه وقضاءه ، فإن اللّه إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع ، ولكنا مأمورون باتخاذ وسائل الحيطة والحذر :

وَخُذُوا حِذْرَكُمْ [النساء ٤/ ١٠٢] أخذا بالأسباب العادية الظاهرية التي لا تؤثر في الواقع شيئا إلا بإذن اللّه ، واستعانة باللّه ، وفرارا منه إليه ، وليس دفعا للقدر ، وتحديا للقضاء ، فلا يملك الإنسان من أمره شيئا ، فما أراد اللّه بكم سوءا لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به من التفرق ، وهو مصيبكم لا محالة.

وما إنفاذ الأحكام وتدبير الأمور إلا للّه وحده ، عليه وحده توكلت ، وبه وثقت ، وإليه فوضت أمري ، دون حولي وقوتي ، وعليه تعالى وحده فليتوكل المتوكلون ، لا على أنفسهم ولا على أمثالهم من البشر.

(٢١/١٣)

و لما دخلوا أي أولاد يعقوب مصر ، التي كان لها أربعة أبواب ، من حيث أمرهم أبوهم ، أي من أبواب متفرقة ، ما كان رأي يعقوب ودخولهم على هذا النحو متفرقين يفيدهم شيئا قط ، حيث أصابهم ما ساءهم ، مع تفرقهم ، من نسبة السرقة إليهم ، وافتضاحهم بذلك ، وأخذ أخيهم فداء لوجدان الصواع في رحله ، وتضاعف المصيبة على أبيهم.

ج ١٣ ، ص : ٢٦

و لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها ، أي مجرد شيء في نفسه أظهره ، وهي شفقته عليهم ، وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به.

وإنه أي يعقوب لذو علم بأن الحذر لا يمنع القدر ، لتعليمنا إياه بالوحي.

وقال قتادة والثوري : لذو عمل بعلمه ، وهذا ثناء من اللّه على يعقوب عليه السّلام.

ولكن أكثر الناس وهم المشركون أو الكفار لا يعلمون ذلك أي مثل ما علم يعقوب ، أو لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم ، فإنهم لا يعلمون كيف أرشد اللّه أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة. ومن تلك العلوم الأخذ بالأسباب الظاهرة وتفويض الأمر للّه تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- قول يعقوب لأولاده : لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ دليل في رأي جمهور المفسرين على التحرز من العين ، والعين في الظاهر حق ، ومرد النتيجة في الحقيقة إلى اللّه وحده ، وتكون العين مجرد سبب ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فيما أخرجه أحمد بسند صحيح « العين حق »

أي شيء ذو أثر موجود عند الناس ، وذكر النسفي : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر »

و

كان صلّى اللّه عليه وسلم يتعوّذ فيقول : « أعوذ بكلمات اللّه التامة من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامّة »

و

كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول : « أعيذكما بكلمات اللّه التّامة من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامة »

ويقول : وهكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق صلوات اللّه عليهم.

و روى عبادة بن الصامت قال : دخلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في أول النهار ، فرأيته شديد الوجع ، ثم عدت إليه آخر النهار ، فرأيته معافى ، فقال : إن

ج ١٣ ، ص : ٢٧

جبريل عليه السّلام أتاني فقال فيما أخرجه أحمد عن عائشة وعبادة. « بسم اللّه أرقيك من كل شيء يؤذيك ، ومن كل عين وحاسد ، اللّه يشفيك » .

وعلى كل مسلم أعجبه شيء أن يبرّك ، فإنه إذا دعا بالبركة ، صرف المحذور لا محالة ،

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم لعامر : « ألا برّكت »

فدل على أن العين لا تضر إذا برّك العائن. والتبريك أن يقول : تبارك اللّه أحسن الخالقين ، اللهم بارك فيه.

ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار.

والعائن إذا أصاب بعينه ولم يبرّك ، يؤمر بالاغتسال ، ويجبر على ذلك إن أباه ، لأن الأمر على الوجوب ، وقد أمر صلّى اللّه عليه وسلّم في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعين ، وأمر بالرقية.

ومن عرف بالإصابة بالعين ، منع من مداخلة الناس ، دفعا لضرره.

٢- دل قوله تعالى : وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ على أن الحذر لا ينفع مع القدر ، فدخول أولاد يعقوب مصر من أبواب متفرقة ما كان ذلك التفرق يغني من اللّه من شي ء. قال ابن عباس : ذلك التفرق ما كان يرد قضاء اللّه ولا أمرا قدره اللّه.

٣- الحكم للّه ، أي الأمر والقضاء للّه وحده ، وعلى المؤمن الاتكال على اللّه ، أي الاعتماد عليه والثقة به وحده ، لأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من اللّه تعالى.

٤- إن وصية يعقوب لأولاده بالدخول من أبواب متفرقة مجرد خاطر خطر بقلبه ، . وتحرز ظاهري ، مع أنه عليم من طريق الوحي بأمر دينه ، وأكثر الناس لا يعلمون ما يعلم يعقوب من أمر دينه. وقيل : المقصود بالعلم هنا العمل ، أي لذو عمل بعلمه ، فإن العلم أول أسباب العمل ، فسمي بما هو بسببه.

ج ١٣ ، ص : ٢٨

٥- أفادت الآية أن على المسلم أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه ، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة ، فإن الدين النصيحة ، والمسلم أخو المسلم.

الفصل الثالث عشر من قصة يوسف معرفة يوسف أخاه بنيامين واتخاذه التدابير لإبقائه لديه [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٦٩ الى ٧٦]

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (٧٠) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (٧(١) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧(٢) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (٧٣)

قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (٧(٤) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

الإعراب :

(٢٤/١٣)

جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ جَزاؤُهُ مبتدأ ، والهاء عائد للسّرق ، وتقديره : جزاء

ج ١٣ ، ص : ٢٩

السّرق أخذ من وجد في رحله. وقوله : مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ جملة هي في موضع خبر المبتدأ ، أي فالاستعباد جزاء السّرق ، وفاء : فَهُوَ متضمنة معنى الشرط أو جواب له على أن مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ شرطية ، والجملة الشرطية كما هي : خبر المبتدأ الاول : جَزاؤُهُ على إقامة الظاهر فيها مقام الضمير ، كأنه قيل : جزاؤه من وجد في رحله ، فهو هو ، إلا أنه أقام الظاهر مقام المضمر للتأكيد والمبالغة في البيان.

فَهُوَ جَزاؤُهُ مبتدأ وخبر ، والجملة خبر المبتدأ مَنْ وُجِدَ الذي هو الاسم الموصول.

البلاغة :

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ فيه جناس الاشتقاق. أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ فيه أيضا جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية :

آوى إِلَيْهِ أَخاهُ ضم إليه بنيامين على الطعام أو في المنزل. فَلا تَبْتَئِسْ تحزن. بِما كانُوا يَعْمَلُونَ من الحسد لنا ، وأمره ألا يخبرهم ، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقيه عنده. جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ أعد لهم الطعام بسرعة. السِّقايَةَ في الأصل : المشربة أو وعاء يسقى به ، والمراد به هنا المكيال الذي كان يكال به الطعام للناس ، وهو صواع الملك ، فهو كان مشربة ، ثم جعل صاعا يكال به ، ويقدر بكيلة مصرية ١٢/ ١ من الإردب المصري ، والإردب ١٩٨ لترا ، أو ١٥٦ كغ. قيل : كان من فضة ، وقيل : كان من ذهب. فِي رَحْلِ أَخِيهِ بنيامين.

أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ نادى مناد ، أو أعلم وأخبر ، وهو يفيد الكثرة والتكرار. أَيَّتُهَا الْعِيرُ القافلة أو الجمال التي

تحمل الطعام ، والمراد أصحابها. ما ذا تَفْقِدُونَ أيّ شيء ضاع منكم ، والفقد : غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه.

(٢٥/١٣)

صُواعَ الْمَلِكِ صاعه أو مكياله. حِمْلُ بَعِيرٍ من الطعام جعلا له. وَأَنَا بِهِ بالحمل. زَعِيمٌ كفيل وضامن ، أؤديه إلى من ردّه.

تَاللَّهِ قسم فيه معنى التعجب. لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ .. استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم ، لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم ، مما يدل على فرط أمانتهم ، مثل ردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم.

قالُوا : فَما جَزاؤُهُ أي قال المؤذن وأصحابه ، فما جزاء السارق. إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ في قولكم : ما كنا سارقين ، ووجد فيكم. قالُوا : جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ أي عقوبة السارق استعباد أو استرقاق من وجد في رحله. فَهُوَ جَزاؤُهُ تأكيد لما سبق أي فأخذ السارق جزاء

ج ١٣ ، ص : ٣٠

المسروق لا غير ، وكان ذلك سنة آل يعقوب. كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أي مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين بالسرقة ، وهذا تصريح منهم ليوسف بتفتيش أوعيتهم.

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ففتشها. قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ قبل تفتيش وعاء أخيه بنيامين لئلا يتهم. ثُمَّ اسْتَخْرَجَها أي السقاية أو الصواع. كَذلِكَ كِدْنا أي مثل ذلك الكيد (أي التدبير الخفي) كدنا ليوسف ، علمناه الحيلة في أخذ أخيه وأوحينا به إليه. ما كانَ يوسف.

لِيَأْخُذَ أَخاهُ رقيقا من السرقة. فِي دِينِ الْمَلِكِ في قانون أو نظام أو حكم أو شرع ملك مصر لأن جزاءه في ذلك النظام الضرب وتغريم مثلي المسروق ، لا الاسترقاق. إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك ، وهو أخذه بحكم أبيه ، أي لم يتمكن من أخذه إلا بمشيئة اللّه بإلهامه سؤال إخوته ، وجوابهم بنظامهم أو سنتهم. والاستثناء متصل من أعم الأحوال ، ويجوز أن يكون استثناء منقطعا ، أي لكن أخذه بمشيئة اللّه وإذنه.

نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ بالعلم كيوسف. وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ من المخلوقين.

(٢٦/١٣)

عَلِيمٌ أعلم منه ، حتى ينتهي إلى اللّه تعالى.

المناسبة :

الربط بين الآيات هنا واضح ، إذ هي تعرض أجزاء ومشاهد قصة واحدة ذات حلقات متسلسلة ، فبعد أن اتجه أولاد يعقوب إلى مصر لجلب الميرة ، مزودين بوصية والدهم ، وصلوا إلى مكان وجود العزيز الذي يتولى بيع الطعام للناس ، فلما دخلوا عرف أخاه وضمه إليه.

التفسير والبيان :

حينما دخل أولاد يعقوب على يوسف في مجلسه الخاص ومنزل ضيافته ، ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، بعد أن كانوا دخلوا القصر من أبواب متفرقة ، ضم إليه أخاه واختلى به ، وأطلعه على شأنه ، وعرّفه أنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس أي لا تأسف ولا تحزن على ما صنعوا بي ، وأمره ألا يطلع إخوته على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيتخذ تدبيرا يبقيه عنده معززا مكرما.

روي أنهم قالوا له : هذا أخونا ، قد جئناك به ، فقال لهم : أحسنتم

و أصبتم ، وستجدون ذلك عندي ، فأنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقي بنيامين وحده ، فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه ، فقال يوسف : بقي أخوكم وحيدا ، فأجلسه معه على مائدته ، وجعل يواكله ، وقال : أنتم عشرة ، فلينزل كل اثنين منكم بيتا ، وهذا لا ثاني له ، فيكون معي ، فبات يوسف يضمه إليه ، ويشم رائحته ، حتى أصبح وسأله عن ولده ، فقال : لي عشرة بنين ، اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك ، فقال له :

أ تحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخا مثلك ؟ ! ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل (أمهما) فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ، وقال له : إني أنا أخوك يوسف ، فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا في الماضي ، فإن اللّه قد أحسن إلينا ، وجمعنا على خير ، ولا تعلمهم بما أعلمتك « ١ » .

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ .. فلما أعدّ لهم الطعام ، وحمل لهم أبعرتهم طعاما ، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية (الصواع أو المكيال ، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين ، وقيل : من ذهب) في رحل أخيه بنيامين ، دون علم أحد.

ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ثم نادى مناد حينما عزموا على الخروج : أيتها العير أي يا أصحاب العير ، إنكم قوم سارقون ، فقفوا. فبهتوا وذهلوا.

فالتفتوا إلى المنادي وقالوا : أي : قال إخوة يوسف للمنادي ومن معه : أيّ شيء تفقدونه ؟ فأجابوهم : نفقد صاع الملك الذي يكيل به ، ولمن أتى به حمل بعير من القمح ، وهذا يدل على أن عيرهم الإبل ، وأنا به زعيم أي كفيل ضامن ، وهذا من باب الجعالة والضمان والكفالة.

قال إخوة يوسف بعد اتهامهم بالسرقة : واللّه لقد خبرتمونا وجربتمونا في المرة الأولى وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا إليكم ، وتحققتم منذ عرفتمونا ، وشاهدتم

---

(١) الكشاف : ٢/ ١٤٧

ج ١٣ ، ص : ٣٢

سيرتنا الحسنة أنا ما جئنا لنفسد في أرض بسرقة ولا غيرها من التعدي على حقوق الناس ، ولم نكن يوما ما سارقين ، فليست سجايانا تقتضي هذه الصفة.

فقال لهم فتيان يوسف : فما جزاء السارق إن كان فيكم ، إن كنتم كاذبين في نفي التهمة عنكم ؟ أي أيّ عقاب للسارق في شرعكم إن وجدنا فيكم من أخذه ، وأنتم تدّعون البراءة ؟

فأجابوهم : جزاؤه أخذ من وجد في رحله ، ومثل هذا الجزاء نجزي الظالمين للناس بسرقة أموالهم في شريعتنا أن يسترقوا ، وهكذا كانت شريعة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام : أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، فيصيرا عبدا له ، وهذا هو ما أراده يوسف عليه السلام.

ولهذا بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه للتورية وحتى لا يتهم ، ثم استخرج السقاية من وعاء أخيه بنيامين ، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزاما لهم بما يعتقدونه ويحكمون به.

(٢٨/١٣)

قوله : فَهُوَ جَزاؤُهُ تقرير للحكم السابق وتأكيد له ، بعد تأكيد ثقتهم وبراءتهم بأنفسهم.

كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ أي مثل ذلك الكيد وهو التدبير الخفي ، كدنا ليوسف ، أي دبرنا له في الخفاء وأوحينا إليه أن يفعله. وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه اللّه ويرضاه ، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. وهو دليل على جواز التوصل إلى الأغراض المشروعة بما ظاهره الحيلة إذا لم يخالف نصا تشريعيا أو حكما مقررا ، فهي حيلة جائزة مشروعة ، لا ممنوعة محظورة ، لما يترتب عليها من الخير والمصلحة ، دون إلحاق ضرر بأحد ، مع اطمئنان بنيامين إلى البراءة ، بسبب التواطؤ السابق بينه وبين أخيه يوسف.

ج ١٣ ، ص : ٣٣

و سبب ذلك التدبير الخفي أن يوسف ما كان يتمكن من أخذ أخيه في حكم ملك مصر الذي لا يبيح

استرقاق السارق ، ولكن قيض اللّه له أن التزم له إخوته بما التزموه وهو أن يستعبد السارق ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ولهذا مدحه اللّه تعالى بقوله : نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ بالعلم ، كما قال تعالى :

يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ [المجادلة ٥٨/ ١١].

وقوله : إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ استثناء من أعم الأحوال أي ما كان ليأخذ أخاه في نظام الملك في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة اللّه ، فإنه فعل ذلك بإذن اللّه ووحيه ، مما يدل على أن تلك الحيلة بإقرار الشرع ، ووحي اللّه تعالى.

وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ أي فوق كل عالم من هو أعلم منه ، قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى اللّه عز وجل. فإذا كان إخوة يوسف علماء فإن يوسف كان أعلم منهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- كانت فرحة غامرة من أفراح العمر لقاء الأخوين : يوسف وبنيامين ، فضم يوسف أخاه إليه ، وتعرّف عليه بعد فراق دام أكثر من ربع قرن ، وتواطأ معه على خطة إبقائه لديه.

٢- دل قول يوسف لأخيه فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ على التحلي بصفة العفو والتسامح ، وإظهار الحب والود لإخوته ، ونسيان الماضي وتجاوز أخطائهم معه في مقتبل العمر.

٣- كان وضع الصواع في رحل بنيامين بأمر يوسف عليه السلام تعليما

ج ١٣ ، ص : ٣٤

و إلهاما ووحيا من اللّه ، وكان إبقاء أخيه لديه عملا بشريعة إبراهيم ويعقوب ، وإلزاما لإخوته بما حكموا به.

٤- لم يكن وصف أولاد يعقوب بأنهم سارقون كذبا من يوسف عليه السلام ، وإنما المراد أيتها العير حالكم حال السّرّاق ، والمعنى : إن شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه. أو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ، أو أنهم سارقون باعتبار ما كان منهم حينما أخذوا يوسف من أبيه ، فألقوه في الجبّ.

٥- دل قوله : وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ على جواز الجعالة « ١ » وضمان الجعل قبل إنجاز العمل أو قبل إتمامه. وقد أجيز للضرورة ، فجاز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره ، وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه ، إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع بالعمل وبعده ، إذا رضي

بإسقاط حقه ، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجعالة حضور المتعاقدين ، كسائر العقود لقوله تعالى : وَلِمَنْ جاءَ بِهِ .. وبهذا كله قال الشافعي ، وكذا المالكية والحنابلة ، ولم يجز الحنفية الجعالة للجهالة.

(٣٠/١٣)

و لم يكن قوله حِمْلُ بَعِيرٍ ضمان المجهول ، لأن حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوسق (٦٠ صاعا) فصح ضمانه ، غير أنه كان بدل مال عن المسروق ، وهو كفالة بما لم يجب ، لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئا على رد السرقة ، فلعله كان يصح في شرعهم ، أو كان هذا جعالة.

---

(١) الجعالة : التزام بعوض على شيء معلوم أو مجهول ، وهو تصرف بإرادة منفردة ، مثل الإعلان عن مكافأة أو جعل لمن يجد شيئا ضائعا ، أو يكتشف علاجا لمرض معين ، أو لمن يتفوق في قضية علمية أو اكتشاف علمي.

ج ١٣ ، ص : ٣٥

٦- دل قوله : وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ على جواز الكفالة بنوعيها : الكفالة بالمال والكفالة بالنفس ، وهذا مطابق للحديث النبوي الذي أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن حسان وصححه عن أبي أمامة الباهلي وغيره : « الزعيم غارم » وهو رأي المذاهب الأربعة ، ولم يجز بعضهم الكفالة بالنفس لعجز الكفيل عن إحضار المكفول بنفسه.

وهل يلزم الكفيل بالنفس ضمان المال أو لا ؟ قال الحنفية : لا يلزمه إن مات المكفول بنفسه : لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال ، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به. وقال المالكية والليث والأوزاعي : يغرم المال ، ويرجع به على المطلوب لأن الكفيل يعلم أن المضمون بنفسه إنما يطلب بمال ، فإذا ضمن إحضاره ولم يأته به ، فكأنه فوّته عليه ، فلزمه المال.

وإذا انعقدت الكفالة جاز في رأي الجمهور للدائن المكفول له أن يطالب بالمال أو الدين من شاء من المدين الأصيل أو الكفيل. ورأي مالك الأخير : ألا يطالب الكفيل إلا أن يفلس الغريم (المدين) أو يغيب لأن البدء بمطالبة من عليه الحق أولى إلا أن يكون معدما ، فيؤخذ الدين من الكفيل ، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة.

(٣١/١٣)

و الكفالة لا تصح إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان الدين ثابتا مستقرا ، أي لازما. فلا تصح الكفالة بنجوم (أقساط) الكتابة لأنها ليست بدين لازم أو ثابت مستقر. وأما الحقوق التي لا يمكن لأحد القيام بها عن أحد كالحدود فلا كفالة فيها عند الأكثرين لأن درء هذه الحدود مطلوب ما أمكن ، ويسجن المدعى عليه الحد ، حتى ينظر في أمره.

وأجاز أبو يوسف ومحمد الكفالة في الحدود والقصاص ، لجواز الكفالة بالنفس.

وأجاز الشافعية كفالة تسليم النفس في الحدود الخالصة للآدمي كقصاص وحد قذف وتعزير لأنها حق لآدمي ، فصحت الكفالة ، كسائر حقوق الآدميين المالية.

ج ١٣ ، ص : ٣٦

٧- كان استرقاق أو استعباد السارقين دين يعقوب عليه السلام وحكمه ، وقد فهم هذا من جواب أولاده : جَزاؤُهُ : مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ، فَهُوَ جَزاؤُهُ وفي الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع ، فهذا جزاؤه لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله.

وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ.

وأما قطع يد السارق في شريعتنا فهو ناسخ لما تقدم من الشرائع ، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق.

٨- يجوز التوصل إلى الأغراض أو الحقوق المشروعة إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا. وأجاز الحنفية والشافعية الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ، لفعل يوسف بوضع الصواع في رحل أخيه ، ولفعل أيوب مع امرأته :

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ [ص ٣٨/ ٤٤] ولأمر النبي صلّى اللّه عليه وسلم ببيع التمر الرديء بالدراهم ، ثم شراء التمر الجيد (الجنيب) بالدراهم.

و اجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ، فإذا حال الحول لا يحل له التحيل ولا النقصان ، ولا أن يفرّق بين مجتمع ، ولا أن يجمع بين متفرق.

وقال مالك : إذا فوّت من ماله شيئا ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه ، لزمته الزكاة عند الحول ، أخذا منه

بقوله صلّى اللّه عليه وسلم : « خشية الصدقة » .

وقال أبو حنيفة : إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضرّه لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام

الحول ، ولا يتوجه إليه معنى
الحديث السابق : « خشية الصدقة » « ١ »
إلا حينئذ.

---

(١) نص الحديث الذي أخرجه البخاري عن أنس : « و لا يجمع بين متفرّق ولا يفرّق بين مجتمع خشية الصدقة » (سبل السلام ٣/ ٥٩١ ، ط بيروت).

٩- شاء اللّه أن يجري على ألسنة أولاد يعقوب حكم بني إسرائيل في استرقاق السارق ، مع أنه كان حكم الملك الضرب والتغريم ضعفي المسروق.

١٠- للّه في خلقه شؤون ، يعزّ قوما ويذلّ آخرين ، ويرفع من يشاء درجات بالعلم والإيمان. قال ابن عباس : يكون ذا أعلم من ذا ، وذا أعلم من ذا ، واللّه فوق كل عالم. وقال أيضا : اللّه العليم ، وهو فوق كل عالم. والآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات.

الفصل الرابع عشر من قصة يوسف نقاش حادّ بين أولاد يعقوب وبين يوسف وبين أبيهم حول السرقة المزعومة [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٧٧ الى ٨٧]

قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (٧٧) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (٨١) وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٨٢) قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (٨٥) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٦)

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (٨٧)

(٣٤/١٣)

ج ١٣ ، ص : ٣٨

الإعراب :

أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً بدل من أسرّها. مَعاذَ اللَّهِ منصوب على المصدر ، حذف فعله وأضيف إلى المفعول.

اسْتَيْأَسُوا استفعلوا من يئس ييأس نَجِيًّا حال من خَلَصُوا ونَجِيًّا لفظه لفظ المفرد ، والمراد به الجمع ، كعدو وصديق ، فإنهما يوصف بهما الجمع على لفظ المفرد.

ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَمَّا إما مصدرية في موضع نصب بالعطف على قوله تعالى :

أَباكُمْ وتقديره : ألم تعلموا أن أباكم وتفريطكم ، وإما أن تكون زائدة ، أي ومن قبل فرطتم ، مثل فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ أي فبرحمته.

يا أَسَفى في موضع نصب لأنه منادى مضاف ، وأصله : يا آسفي ، فأبدل من الكسرة فتحة ، فانقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصار : يا أَسَفى . وعَلى يُوسُفَ في موضع نصب لأنه من صلة المصدر.

ج ١٣ ، ص : ٣٩

البلاغة :

فَأَسَرَّها .. وَلَمْ يُبْدِها بينهما طباق. شَيْخاً كَبِيراً فيه إطناب للاستعطاف.

وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ مجاز مرسل علاقته المحلية أي أهل القرية. يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ بينهما جناس الاشتقاق.

تَاللَّهِ تَفْتَؤُا إيجاز بالحذف ، أي واللّه لا تفتأ.

وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ استعار الروح وهو تنسيم الريح الطيبة النسيم ، للفرج بعد الكرب ، واليسر بعد الشدة.

المفردات اللغوية :

إِنْ يَسْرِقْ بنيامين. فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ قيل : ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام ، وكانت تحضن يوسف وتحبه ، فلما شبّ أراد يعقوب انتزاعه منها ، فشدت المنطقة على وسطه ، ثم أظهرت ضياعها ، فتفحص عنها ، فوجدها محزومة عليه ، فصارت أحق به في حكمهم. وقيل : كان لأبي أمه صنم من ذهب ، فسرقه ، وكسره ، وألقاه في الجيف ، لئلا يعبده.

فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لم يظهرها لهم ، والضمير يعود للكلمة أو الجملة التي في قوله : قالَ : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً أي فأسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً.

لَ

في نفسه. أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً أي شر منزلة من يوسف وأخيه ، لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ أي واللّه عالم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة ، وليس الأمر كما تذكرون من أمره ، أو وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً في السن أو القدر ، يحبه أكثر منا ، ويتسلى به عن ولده الهالك ، ويحزنه فراقه ، وهذا استعطاف له عليه. فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ استعبده بدلا منه ، فإن أباه مستأنس به. مِنَ الْمُحْسِنِينَ في أفعالك إلينا ، فأتمم إحسانك ، أو من المتعوّدين الإحسان ، فلا تغير عادتك. مَعاذَ اللَّهِ أي نعوذ باللّه ونلجأ إليه. أَنْ نَأْخُذَ من أن نأخذ ، ولم يقل :

من سرق ، تحرزا من الكذب. إِنَّا إِذاً إن أخذنا غيره مكانه لَظالِمُونَ في مذهبكم ، لو أخذنا غيره مكانه ، كنا من الظلمة.

اسْتَيْأَسُوا يئسوا يأسا كثيرا من يوسف وإجابته إياهم ، وزيادة السين والتاء للمبالغة.

خَلَصُوا انفردوا واعتزلوا الناس. نَجِيًّا متناجين متشاورين سرا ، يناجي بعضهم بعضا ، وإنما وحده لأنه مصدر أو بزنة المصدر ، كما قيل : هم صديق ، وجمعه أنجية كنديّ وأندية.

قالَ كَبِيرُهُمْ سنا : روبيل أو يهوذا ، أو كبيرهم في الرأي وهو شمعون. مَوْثِقاً عهدا. مِنَ اللَّهِ في أخيكم ، وإنما جعل حلفهم باللّه موثقا منه ، لأنه بإذن منه وتأكيد من

جهته. وَمِنْ قَبْلُ هذا. ما فَرَّطْتُمْ قصرتم في شأنه ، وفَلَمَّا زائدة أو مصدرية في موضع نصب بالعطف على مفعول : تعلموا ، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف ، أو معطوف على اسم أن ، وخبره : فِي يُوسُفَ. ويصح كونه مبتدأ وخبره : من قال قال البيضاوي : وفيه نظر : لأن قبل إذا كان خبرا ، أو صلة ، لا يقطع عن الإضافة ، حتى لا ينقص. ويصح أن تكون موصولة ، أي ما فرطتموه بمعنى : ما قدمتموه في حقه من الخيانة.

فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ لن أفارق أرض مصر حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي بالعودة أو الرجوع إليه أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي أو

يقضي اللّه لي بخلاص أخي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ أعدلهم لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.
وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا وما شهدنا عليه إلا بما تيقنا من مشاهدة الصاع في رحله واستخراجه من وعائه وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ لما غاب عنا وهو باطن الحال ، حين إعطاء الموثق حافِظِينَ أي فلا ندري أنه سرق ، أو ما كنا للعواقب عالمين ، فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق.
وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ .. واسأل أهل مصر وَالْعِيرَ أصحاب الإبل الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وهم قوم من كنعان وَإِنَّا لَصادِقُونَ في قولنا ، فرجعوا إليه ، وقالوا له ذلك سَوَّلَتْ زينت أَمْراً ففعلتموه ، اتهمهم لما سبق منهم من أمر يوسف فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أي صبري صبر جميل أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ يوسف وأخويه الْعَلِيمُ بحالي الْحَكِيمُ في صنعه.
وَتَوَلَّى عَنْهُمْ أعرض عنهم تاركا خطابهم يا أَسَفى يا حزني وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ انمحق سوادهما وتبدل بياضا من بكائه مِنَ الْحُزْنِ عليه كَظِيمٌ مملوء غيظا ، مغموم مكروب لا يظهر كربه تَاللَّهِ تَفْتَؤُا لا تفتأ أي لا تزال تذكره تفجعا عليه حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً مريضا مشرفا على الهلاك ، لطول مرضك ، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث الْهالِكِينَ الموتى.

(٣٧/١٣)

لَ
يعقوب لهم ثِّي
هو عظيم الحزن الذي لا يصبر عليه حتى يبث إلى الناس من.
البث : وهو النشر حُزْنِي إِلَى اللَّهِ
لا إلى غيره ، فهو الذي تنفع الشكوى إليه ، فخلوني وشكايتي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ من أن رؤيا يوسف صدق وهو حي ، وأعلم من اللّه أي من صنعه ورحمته فإنه لا يخيب داعيه فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ اطلبوا خبرهما وَلا تَيْأَسُوا تقنطوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ رحمته وفرجه.
المناسبة :
هزت السرقة أعماق نفوس أولاد يعقوب ، فثار النقاش الحاد والحوار الشديد
ج ١٣ ، ص : ٤١
بين أولاد يعقوب أنفسهم ، وبينهم وبين يوسف ، وبينهم وبين أبيهم ، لعودتهم إليه دون ولدين آخرين : وهما أكبر أولاده « روبيل أو يهوذا » وأصغر أولاده وهو بنيامين. ولم يجد أبناء يعقوب سبيلا للدفاع إلا الحجة الساذجة السطحية وهو تأكيد حادثة السرقة من أخيهم كما سرق أخوه يوسف من قبل ، وقالوا :

هذه الواقعة عجيبة أن « راحيل » ولدت ولدين لصين ، ثم قالوا : يا بني راحيل ، ما أكثر البلاء علينا منكم ، فقال بنيامين : ما أكثر البلاء علينا منكم ، ذهبتم بأخي وضيعتموه في المفازة ، ثم تقولون لي هذا الكلام ، قالوا له : فكيف خرج الصواع من رحلك ؟ فقال : وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم « ١ » .

التفسير والبيان

قال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من وعاء بنيامين ، بعد أن نفوا السرقة نفيا باتا ، والتزموا على أنفسهم استعباد من وجد في رحله : إن يسرق بنيامين ، فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فهما من أصل واحد ، ومرادهم التنصل إلى العزيز من التشبه بالأخوين ، وتأنيب أخيهم على ما فعل.

وهذا يعني أن الطبائع والعادات والأخلاق تورث ، وأن الحقد والكراهية والحسد عندهم ما يزال موجودا لديهم.

و نسبة السرقة إلى يوسف في أصح الروايات ما روى ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال : سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبي أمه من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه في الطريق ، فعيره بذلك إخوته. وقال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنما لجده أبي أمه ، فكسره.

وروى محمد بن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان أول

---

(١) تفسير الرازي : ١٨/ ١٨٣

ج ١٣ ، ص : ٤٢

ما دخل على يوسف من البلاء- فيما بلغني- أن عمته ابنة إسحاق ، وكانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت عندها منطقة إسحاق ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان من اختبأها ممن وليها ، كان له سلما لا ينازع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته ، وكان لها به وله ، فلم تحب أحدا حبها إياه ، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات ، تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام ، فأتاها ، فقال : يا أخية ، سلّمي إليّ يوسف ، فو اللّه ما أقدر على أن يغيب عني ساعة ، قالت : فو اللّه ، ما أنا بتاركته ، ثم قالت : فدعه عندي أياما ، أنظر إليه ، وأسكن عنه ، لعل ذلك يسليني عنه.

فلما خرج من عندها يعقوب ، عمدت إلى منطقة إسحاق ، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت :

اكشفوا أهل البيت ، فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف ، فقالت : واللّه ، إنه لي لسلم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب ، فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك ، فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته ، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، قال :

فهو الذي يقول إخوة يوسف ، حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ.

(٣٩/١٣)

فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ أي فأخفى في نفسه مقالتهم هذه ، أو أخفى الجملة أو الكلمة التي بعدها وهي قوله : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً ...

وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ أي لم يظهر ما في نفسه من مؤاخذتهم بمقالتهم ، بل صفح عنهم.

قالَ : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً أي وقال لهم في نفسه دون إعلان لهم : أنتم شر مكانا ومنزلة ممن تتهمونه بالسرقة ، إذا أنكم سرقتم من أبيكم أخاكم ، وطرحتموه في البئر ، بقصد الهلاك والتخلص منه.

ج ١٣ ، ص : ٤٣

وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ أي واللّه عالم بما تذكرون وما تصفونه به.

وهذا من قبيل الإضمار قبل الذكر ، وهو كثير في اللغة والقرآن والحديث.

ثم استعطفوه واستشفعوا لديه لعله يأخذ أحدهم مكانه ، فالفداء أو العفو أيضا جائز في شرعهم : قالُوا : يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ أي قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أبا شيخا هرما متعلقا به ، فهو يحبه حبا شديدا ، ويتسلى به عن ولده الذي فقده ، أو هو كبير القدر والمقام جدير بالرعاية والمجاملة والعناية.

فخذ أحدا منا بدله ، يكون عندك عوضا عنه ، إنا نراك من المحسنين لنا في ميرتنا وضيافتنا ، أو من العادلين المنصفين ، القابلين للخير ، أو من عادتك الإحسان مطلقا ، فأحسن إلينا.

فأجابهم : قالَ : مَعاذَ اللَّهِ .. أي نعوذ باللّه معاذا أو نستعيذ باللّه أن نأخذ غير من وجدنا الصواع عنده ، كما قلتم واعترفتم ، ولم يقل : إلا من سرق ، تحاشيا للكذب ، إنا إذا أخذنا غيره كان ذلك ظلما في مذهبكم ، فهو أخذ بريء بمتهم ، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم. والمقصود الحقيقي من هذا الكلام بيان أن اللّه أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة في ذلك ، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه ، كنت ظالما وعاملا على خلاف الوحي. وهو رد قوي لهم ، متضمن الاستعاذة من رأيهم ، لأنه ظلم. ثم جاء دور حوارهم مع بعضهم.

(٤٠/١٣)

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا .. أي فلما يئس إخوة يوسف من إطلاق سراح أخيهم بنيامين الذي التزموا لأبيهم برده إليه ، وعاهدوا على ذلك ، انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم ويتشاورون في أمرهم. قال كبيرهم في السن أو في العقل والرأي وهو روبيل أو يهوذا الذي أشار بإلقائه في البئر عند ما هموا بقتله : إن هذا الأمر عظيم ، ألم تذكروا أخذ أبيكم موثقكم لتردّنه إليه ، إلا أن يحاط بكم ، وألم

ج ١٣ ، ص : ٤٤

تعلموا أيضا تفريطكم في الماضي بأخيكم يوسف وإضاعته عن أبيكم ، مما جعله رهين الحزن والأسى عليه ؟ ! فَلَنْ أَبْرَحَ ... فلن أغادر أرض مصر أبدا ، وأترك بنيامين فيها ، حتى يأذن لي أبي في العودة إليه ، أو يحكم اللّه لي بأن يمكنني من أخذ أخي أو بالخروج من مصر ، وهو خير الحاكمين ، فلا يحكم أبدا إلا بالحق والعدل.

هذا قراره الشخصي ، وأما رأيه فيما يقولون لأبيهم فهو ارْجِعُوا .. أي عودوا إلى أبيكم وقولوا له : يا أبانا إن ابنك سرق صواع الملك ، فاسترقه العزيز القائم بأمر الحكم في مصر ، على وفق شريعتنا التي أخبرناه بها ، وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه وشاهدنا من إخراج الصواع من وعاء بنيامين ، وما كنا للغيب حافظين ، أي وما علمنا أنه سيسرق ويسترق حين أعطيناك الموثق ، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ، وفي الجملة : حقيقة الحال غير معلومة لنا ، فإن الغيب لا يعلمه إلا اللّه تعالى.

(٤١/١٣)

وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ .. أي واسأل يا أبانا عما حدث أهل القرية التي كنا فيها وهي مصر ، فقد اشتهر أمر هذه السرقة فيهم ، واسأل أصحاب العير الذين كانوا يأتون بالميرة (الطعام) معنا. وهذا مبالغة منهم في إزالة التهمة عن أنفسهم ، لأنهم مشكوك فيهم ، وكانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام. ثم أكدوا صدقهم بقوله : وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما أخبرناك به من أنه سرق ، وأخذوه بسرقته ، وهذا مقال كبيرهم ، ثم ذكر تعالى مقال أبيهم :

قالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ .. أجابهم أبوهم بما يدل على عدم تصديقهم فيما قالوا ، كما أجابهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب : بَلْ سَوَّلَتْ ..

بل زينت لكم أنفسكم أمرا آخر أردتموه ، وكيدا جديدا فعلتموه ؟ وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم!

ج ١٣ ، ص : ٤٥

فأمري الاعتصام بالصبر الجميل وهو الذي لا جزع فيه ولا شكاية لأحد ، وإنما أرضى بقضاء اللّه

وقدره ، وأشكو إلى اللّه وحده ، ثم ترجى أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف وبنيامين ، وروبيل الذي أقام بمصر ، ينتظر أمر اللّه فيه : إما أن يرضى عنه أبوه ، فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، فقال : عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً .. أي لعل اللّه الذي أطلب منه إرجاع أولادي الثلاثة أن يعيدهم إلي جميعا ، وقد كان ملهما أن يوسف لم يمت ، إنه هو العليم بحالي من الكبر والحزن ، الحكيم في أفعاله وقضائه وقدره ، فما بعد الشدة إلا اليسر ، وما بعد الكرب إلا الفرج.

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ .. وأعرض يعقوب عن بنيه كارها لما قالوا ووصفوا ، وقال متذكرا حزن يوسف القديم : يا حزني ويا أسفي على يوسف ، والأسف : أشد الحزن والحسرة ، فجدد له حزن الابنين الحزن الدفين. وهو دليل على تمادي أسفه على يوسف ، وأن المصاب فيه دائم متجدد لم ينس مع تقادم العهد.

(٤٢/١٣)

وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ .. أي أصيبت عيناه بسبب الحزن بغشاوة بيضاء ، حجبت البصر والرؤية فأصبح كظيما أي ساكتا لا يشكو أمره إلى مخلوق ، كاظما غيظه على أولاده. قيل : ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف ، إلى حين لقائه ، ثمانين عاما ، وما على وجه الأرض أكرم على اللّه من يعقوب.

والجزع البالغ والحزن الشديد أمر إنساني عند الشدائد والمصائب ، وهو غير مذموم شرعا إذا اقترن بالصبر ، وضبط النفس ، حتى لا يخرج إلى مالا يحسن ، ولقد

بكى رسول صلّى اللّه عليه وسلم على ولده إبراهيم ، وقال فيما رواه الشيخان : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

وإنما الجزع المذموم : ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور

و الوجوه ، وتمزيق الثياب.

عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم « أنه بكى على ولد بعض بناته ، وهو يجود بنفسه ، فقيل : يا رسول اللّه ، تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ؟ فقال : ما نهيتكم عن البكاء ، وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين : صوت عند الفرح ، وصوت عند الترح » .

وقال الحسن البصري حينما بكى على ولد أو غيره : « ما رأيت اللّه جعل الحزن عارا على يعقوب » .

وعند ما شاهد أولاد يعقوب ما حدث لأبيهم ، رقوا له ، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه : واللّه لا تزال تذكر يوسف ، حتى تصير مريضا ضعيف القوة ، أو تموت ، أي إن استمر بك هذا الحال ، خشينا عليك الهلاك والتلف.

فأجابهم عما قالوا : نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

أي لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم حزني ، إنما أشكو همّي الشديد وأسفي وما أنا فيه إلى اللّه وحده داعيا له وملتجئا إليه ، فخلوني وشكايتي ، وأعلم من اللّه ما لا تعلمون ، أي أرجو منه كل خير ، لأني أعلم من صنعه وإحسانه ورحمته وحسن ظني به أن يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب. روي أنه رأى ملك الموت في منامه ، فسأله ، هل قبضت روح يوسف ؟ فقال : لا واللّه ، هو حيّ فأطلبه. وقال ابن عباس في قوله تعالى : أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ..

يعني رؤيا يوسف أنها صدق ، وأن اللّه لا بد أن يظهرها.

يا بَنِيَّ ، اذْهَبُوا .. يا أولادي اذهبوا إلى مصر ، وتعرفوا أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، فهو قد ندبهم على الذهاب إلى مصر للتعرف على أخبار إخوتهم ، وأمرهم ألا ييأسوا من روح اللّه أي من فرجه وتنفيسه الكرب ، ولا يقطعوا رجاءهم وأملهم من اللّه فيما يقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ، ولا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون أي

ج ١٣ ، ص : ٤٧

الذين يجحدون قدرته ورحمته ، ويجهلون حكمة اللّه في عباده. أما المؤمنون فلا ييأسون من رحمة اللّه وتفريجه الكروب ، وإزالته الشدائد. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : « إن المؤمن من اللّه على خير ، يرجوه في البلاء ، ويحمده في الرخاء » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- لم يتغير موقف أولاد يعقوب العشرة في حال الصغر والكبر معا ، وظلوا على حقدهم وحسدهم وكراهيتهم لأخويهما : يوسف وبنيامين ، وقد فهم هذا من محاولة تبرئة أنفسهم بأنهم على منهج وطريقة وسيرة تختلف عن منهج وسيرة أخويهم ، فأخواهما مختصان بهذه الطريقة واحتراف السرقة ، لأنهما من أم أخرى.

والحق أن سرقة يوسف كانت رضى للّه ، وكانت على ما يبدو في حال الصغر ، والصغير غير مكلف ، ولم يكن وضع الصواع في رحل بنيامين منه إنما كان من غيره.

٢- لم يقابلهم يوسف بالإساءة والتصريح عما في نفسه ، وإنما أسرّ في نفسه مقالتهم ، وقولهم هو : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ وقيل : إنه أسرّ في نفسه على طريقة الإضمار قبل الذكر قوله : أَنْتُمْ

شَرٌّ مَكاناً ثم جهر فقال : وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ.

٣- استعطفوه لإطلاق سراح أخيهم بنيامين أو قبول الفداء عنه بأخذ أحدهم بدله ، بحال أبيه الشيخ الكبير أي كبير القدر ، ولم يريدوا كبير السن ، لأن ذلك معروف من حال الشيخ ، واستعطفوه أيضا بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم.

ج ١٣ ، ص : ٤٨

و أما عرضهم أخذ البدل عنه فهو إما مجاز ، لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل المتهم ، وإنما هو مبالغة في استنزاله ، كما تقول لمن تكره فعله :

اقتلني ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ في استنزاله.

وإما أن يكون قولهم : فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ حقيقة ، من طريق الكفالة بالنفس ، ليصل بنيامين إلى أبيه ، ويعرف جلّية الأمر ، والكفالة بالنفس جائزة على التحقيق في المذاهب الإسلامية الأربعة ، حتى عند الشافعي على الراجح.

وعلى كل حال كما أن الاستعباد للسارق في شرع إسحاق ويعقوب جائز ، كذلك العفو وأخذ الفداء كان جائزا أيضا.

٤- رفض يوسف عليه السلام أخذ البدل ، ووصف ذلك بأنه ظلم.

٥- تشاور أولاد يعقوب فيما يفعلون أمام الميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم مؤكدا باليمين باللّه ، وتذكروا تفريطهم السابق بيوسف ، فقرر أكبرهم في السن أو في الرأي والعقل وهو شمعون أو يهوذا أو روبيل البقاء في مصر ، حتى يأذن له أبوه بالرجوع إليه ، لاستحيائه منه ، أو يحكم اللّه له بالمضي مع أخيه إلى أبيهما.

وهذا دليل على أن التناجي والمشاورة في أمر ما مطلوب شرعا.

وقد ذكر القاضي عياض في « الشفا » أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ هذه الآية :

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام. إذ أن هذه الجملة تضمنت معاني كثيرة ، يعبر عنها اليوم بجمل كثيرة لعقد اجتماع سري ، وتشاور فيه ، ومداولة فيما يجابهون به أباهم ، وكيفية بيان الحادث له.

٦- اتفق أولاد يعقوب بمشورة كبيرهم الذي بقي في مصر على مصارحة أبيهم بما حدث من واقعة السرقة ، وشهادتهم في الظاهر عليها ، حيث أخرج الصواع

ج ١٣ ، ص : ٤٩

من متاع بنيامين ، وجهلهم بالمغيب ، فلم يعلموا وقت أخذ الميثاق عليهم أنه يسرق ، ويصير أمرهم إلى ما آل إليه ، من الاستعباد أو الاسترقاق ، عملا بما هو المقرر من جزاء في شريعتهم.

وعلى كل حال فإنهم لما تفكروا في الأصوب ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع وأن يذكروا لأبيهم كيفية الواقعة على نحو ما حدثت.

٧- تضمنت آية وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها ، فتصح شهادة المستمع والمعاين والأعمى والأخرس إذا فهمت إشارته ، وكذلك تصح الشهادة على الخط إذا تيقن الشاهد أن الخط خط الكاتب أو خط فلان ، فكل من حصل له العلم بشيء ، جاز أن يشهد به ، وإن لم يشهده المشهود عليه ، قال اللّه تعالى : إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [الزخرف ٤٣/ ٨٦] و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فيما أخرجه مسلم عن زيد بن خالد الجهني : « ألا أخبركم بخير الشهداء : خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها » .

وقد شهد أولاد يعقوب بما رأوه حين إخراج الصواع من رحل أخيهم ، فغلب على ظنهم أنه هو الذي أخذ الصواع.

وأما شهادة المرور بأن يقول : مررت بفلان فسمعته يقول كذا ، فالصحيح أنه إذا استوعب القول ، جاز أداء الشهادة عليه.

وإذا ادعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ، ردّت ، لأنه ادّعى باطلا ، فأكذبه العيان ظاهرا.

(٤٦/١٣)

و الخلاصة : أن الشهادة تكون بالاعتماد على الحواس الظاهرة ، أما حقيقة الغيب فلا يعلمها إلا اللّه تعالى.

٨- استعان أولاد يعقوب لإقناع أبيهم بصدق قولهم بسؤال أناس من أهل

ج ١٣ ، ص : ٥٠

مصر ، وسؤال قوافل الطعام التي كانت معهم من قوم من الكنعانيين ، وهذا يدل على أن كل من كان على حق ، وعلم أنه قد يظن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم : أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه ، ويصرح بالحق الذي هو عليه ، حتى لا يبقى لأحد كلام ، وقد فعل هذا نبينا صلّى اللّه عليه وسلم-

فيما رواه البخاري ومسلم- بقوله للرجلين اللذين مرّا ، وهو مع صفية يردّها من المسجد : « على رسلكما ، إنما هي صفية بنت حيي » . فقالا : سبحان اللّه! وكبر عليهما ، فقال : « إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا » .

ثم إنهم بالغوا في التأكيد والتقرير فقالوا : وَإِنَّا لَصادِقُونَ يعني سواء نسبتنا إلى التهمة ، أو لم تنسبنا إليها ، فنحن صادقون.

٩- الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل والرضا والتسليم ، ويقتدي بنبي اللّه يعقوب وسائر النبيين عليهم السلام. قال يعقوب في واقعتي يوسف وبنيامين : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ إلا أنه قال في واقعة يوسف : وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ وقال في واقعة بنيامين : عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً.

١٠- قول يعقوب عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً صادر عن علمه بالوحي أو بالإلهام أو بسؤال ملك الموت أن يوسف عليه السلام لم يمت ، وإنما غاب عنه خبره. والذين تمنى إحضارهم ثلاثة : كبير أولاده ويوسف وبنيامين.

(٤٧/١٣)

١١- تجدد مصاب يعقوب وحزنه على يوسف بغياب ولدين آخرين هما أكبر أولاده وأصغرهم ، فأسف أسفا شديدا ، والأسف : شدة الحزن على ما فات ، وعمي فلم يعد يبصر بعينيه ست سنين من البكاء ، الذي كان سببه الحزن.

ج ١٣ ، ص : ٥١

و لكن اللّه العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة هيأ لجمع الأسرة كلها.

١٢- إن الحزن ليس بمحظور إذا اقترن بالصبر والرضا والتسليم لقضاء اللّه وقدره ، فذلك من طبع الإنسان وعاطفته ، وإنما المحظور هو السخط على القضاء والقدر ، والولولة ، وشق الثياب ، والكلام بما لا ينبغي ،

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم فيما أخرجه الشيخان : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » .

وبناء عليه لما سمع يعقوب عليه السلام كلام أبنائه ، ضاق قلبه جدا ، وأعرض عنهم ، وفارقهم ، ثم طلبهم أخيرا وعاد إليهم.

١٣- أشفق أولاد يعقوب على أبيهم ، ورقوا ، وذكروا له مخاطر الاستمرار في حال الحزن ، وهي إما المرض المضعف القوة ، وإما الهلاك والموت ، وهذا أمر واقعي مطابق لأحوال الناس.

١٤- كانت شكاية يعقوب وحزنه ولجوءه بالدعاء إلى اللّه وحده ، لا إلى أحد من الخلق ، وهذا هو المطلوب شرعا في كل شاك حزين.

١٥- إن نبي اللّه يعقوب يعلم مالا يعلم غيره من الناس بما عند اللّه من رحمة وإحسان وتفريج كرب ، ويعلم أيضا أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنه وزوجته وأبناؤه سيسجدون له ، تصديقا لرؤياه السابقة وهو صغير.

١٦- تيقن يعقوب عليه السلام حياة ابنه يوسف إما بالرؤيا ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه ، وهو أظهر ، فعاد يكلم أولاده باللطف ، وطلب منهم الذهاب إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه.

(٤٨/١٣)

١٧- لا يقنط من فرج اللّه إلا القوم الكافرون ، وهذا دليل على أن الكافر يقنط في حال الشدّة ، وعلى أن القنوط من الكبائر ، أما المؤمن فيرجو دائما فرج اللّه تعالى.

ج ١٣ ، ص : ٥٢

قال الرازي : واعلم أن اليأس من رحمة اللّه تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال ، أو غير عالم بجميع المعلومات ، أو ليس بكريم ، بل هو بخيل ، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة ، وكل واحد منها كفر ، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا « ١ » .

الفصل الخامس عشر من قصة يوسف تعرّف أولاد يعقوب على يوسف في المرة الثالثة واعترافهم بخطئهم وعفوه عنهم [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٨٨ الى ٩٣]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (٨٩) قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (٩١) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

---

(١) تفسير الرازي : ١٨/ ١٩٩

ج ١٣ ، ص : ٥٣

الإعراب :

(٤٩/١٣)

لَأَنْتَ يُوسُفُ اللام : لام الابتداء ، وأنت : مبتدأ ، ويُوسُفُ : خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر : في موضع رفع خبر « إن » ويجوز أن تكون لَأَنْتَ ضمير فصل على قول البصريين ، أو عمادا على قول الكوفيين.

مَنْ يَتَّقِ مَنَّ شرطية مبتدأ ، وخبره : فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وكان الأصل أن يقال : فإن اللّه لا يضيع أجرهم ، ليعود من الجملة إلى المبتدأ ذكر ، إلا أنه أقام المظهر مقام المضمر ، كقول الشاعر : لا أرى الموت يسبق الموت شي ء. أي يسبقه شي ء. وهو كثير في كلام العرب. والجملة من المبتدأ والخبر خبر إن الأولى ، والهاء فيها : ضمير الشأن والحديث.

ويَصْبِرْ : مجزوم بالعطف على يَتَّقِ. ومن قرأ « يتقي » على جعل من بمعنى « الذي » وإذا كانت بمعنى الذي ، ففيها معنى الشرط ، ولهذا تأتي الفاء في خبرها في الأكثر ، مثل :

فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ [المنافقين ٦٣/ ١٠].

لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ لا : نافية للجنس ، وتَثْرِيبَ : اسمها ، وعَلَيْكُمُ متعلق بالخبر المحذوف ، وتقديره : لا تثريب مستقر عليكم ، واليوم منصوب بالخبر المحذوف. ولا يجوز أن يتعلق أحدهما بتثريب ، لأنه لو كان متعلّقا به ، لوجب أن يكون منونا ، كقولهم : لا خيرا من زيد.

المفردات اللغوية :

الضُّرُّ أي شدة الجوع بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ أي بدراهم رديئة أو زيوف ، يدفعها التجار ، من أزجى الشي ء : إذا دفعه برفق ، كما في قوله تعالى : يُزْجِي سَحاباً [النور ٢٤/ ٤٣].

فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ أي فأتم لنا الكيل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا بالمسامحة عن رداءة بضاعتنا ، أو برد أخينا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ يثيبهم أحسن الجزاء ، والتصدق : التفضل مطلقا ، ولكنه اختص عرفا بما يبتغى به ثواب من اللّه تعالى.

ثم قال لهم توبيخا : هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ من الضرب والبيع وغير ذلك وَأَخِيهِ فعلهم بأخيه : إفراده عن يوسف وإذلاله ، حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز

و ذلة إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ قبح أو عاقبة فعلكم ، فأقدمتم عليه. وإنما قال ذلك تحريضا لهم على التوبة وشفقة عليهم ، لما رأى من عجز هم وتمسكنهم ، لا معاتبة وتثريبا.

قالُوا بعد أن عرفوه ، لما ظهر من شمائله أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ استفهام تقرير وإثبات ، وحقق بأن ودخول

اللام عليه وَهذا أَخِي من أبي وأمي ، ذكره تعريفا لنفسه به ، وتفخيما لشأنه قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا أنعم علينا بالاجتماع والسلامة والكرامة مَنْ يَتَّقِ يخف اللّه وَيَصْبِرْ على ما يناله من البليات ، أو على الطاعات وعن المعاصي فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وضع الظاهر الْمُحْسِنِينَ موضع الضمير أجرهم للتنبيه على أن المحسن : من جمع بين التقوى والصبر.

آثَرَكَ فضلك ، واختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة وبالملك والسلطة وغيرها وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ إن مخففة من الثقيلة ، أي إنا كنا ، أي والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك ، وآثمين في أمرك. والخاطئ : الذي يتعمد الخطيئة ، والمخطئ : الذي يريد الصواب فيخطئه ويصير إلى غيره. والخطء : الذنب.

لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ لا لوم ولا تأنيب عليكم الْيَوْمَ خصه بالذكر ، لأنه مظنة التثريب ، فغيره أولى. وهو متعلق بالتثريب ، أو بالخبر المحذوف وتقديره : لا تثريب كائن أو حاصل عليكم يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ لأنه صفح عن جريمتهم التي اعترفوا بها حينئذ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ، ويتفضل على التائب.

(٥١/١٣)

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا هو قميص إبراهيم الذي لبسه ، حين ألقي في النار ، كان في عنقه في الجبّ ، فهو القميص المتوارث ، أو القميص الذي كان عليه. يَأْتِ بَصِيراً يصر مبصرا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ أي ائتوني أنتم وأبي وزوجته بنسائكم وذراريكم ومواليكم.

المناسبة :

الكلام مرتبط بما قبله ، بتقدير محذوف ، وهو أن يعقوب لما قال لبنيه :

اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ قبلوا من أبيهم هذه النصيحة ، وعادوا إلى مصر للمرة الثالثة ، يبحثون عن يوسف وأخيه ، بلا يأس ، وإنما بأمل وجدّ في البحث ، فلما التقوا مع يوسف العزيز ، ورق قلبه لاستعطافهم ، عرّفهم بنفسه ، وتم اجتماع الإخوة الاثني عشر.

ج ١٣ ، ص : ٥٥

التفسير والبيان :

فلما ذهبوا في المرة الثالثة ، فدخلوا مصر ، ودخلوا على يوسف عليه السلام ، فقالوا مختبرين بذكر حالهم ، واستعطافهم ، وشكواهم إليه رقة الحال وقلة المال مما يرقق القلب : يا أيها العزيز- وكان أبوهم يرى أن هذا العزيز هو يوسف- قد أصابنا وأهلنا الضرر الشديد من الجدب والقحط والجوع وقلة الطعام ، وأتينا إليك بثمن الطعام الذي نمتاره ، وهو ثمن قليل أو رديء زيوف لا يروج بين التجار في

الأسواق ، فأتم لنا الكيل كما عودتنا من إحسانك ، وتصدّق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتسامح فيها بعد أن تتغاضى عن قلتها أو رداءتها ، إن اللّه يجزي المتصدقين أحسن الجزاء ، فيخلف لهم ما ينفقون ، ويضاعف الثواب لهم.

وكان القصد من هذا الكلام الرقيق والتضرع والتذلل اختبار حال العزيز ، هل يرق قلبه ، ويظهر نفسه ، ويعلن عن شخصه ؟ بعد أن ذكروا له ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام ، وما لدى أبيه من الحزن لفقد ولديه.

(٥٢/١٣)

و قد نجحوا في هذا الاستعطاف ، فأخذته رقة ورأفة ورحمة على أبيه وإخوته ، وهو في حال الملك والتصرف والسعة ، فأجابهم بقوله ، مستفهما عن مدى استقباح فعلهم السابق بيوسف : هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه بنيامين ؟ حيث ألقيتم يوسف في الجبّ ، وعرضتموه للهلاك ، وفرقتم بينه وبين أخيه ، وما عاملتم به أخاه من معاملة جافّة قاسية ، حال كونكم جاهلين قبح ما فعلتموه ، من عقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم والقرابة ، وذلك كما قال بعض السلف : كل من عصى اللّه فهو جاهل ، وقرأ : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ الآية [النحل ١٦/ ١١٩].

والمراد بهذا الاستفهام التقريع والتوبيخ ، ومراد يوسف تعظيم الواقعة ، أي ما أعظم ما ارتكبتم بيوسف ، كما يقال : هل تدري من عصيت ؟ والصحيح أنه

ج ١٣ ، ص : ٥٦

قال جاهِلُونَ تأنيسا لقلوبهم وبيانا لعذرهم ، كأنه قال : إنما دفعكم لهذا الفعل القبيح جهالة الصبا أو الغرور ، وكأنه لقنهم الحجة ، كقوله تعالى :

ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ [الانفطار ٨٢/ ٦] « ١ » .

وهذا تذكير رقيق بذنوبهم ، تمهيدا لتعريفهم بنفسه ، لا معاتبة ولوما وتوبيخا ، بعد أن حان الوقت في هذه المرة الثالثة من لقاء يوسف مع إخوته ، وكان قد أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بتقدير اللّه وأمره ، وهو مصداق قوله تعالى : وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [يوسف ١٢/ ١٥].

(٥٣/١٣)

فاغتنموا فرصة هذا التذكير وتساؤل العارف الخبير بأحوالهم ، فسألوه سؤال المتعجب المستغرب المقرّر المثبت أنه أخوهم يوسف : أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ أي إنهم استفهموا استفهام تعجب من موقفه أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر ، وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، ولكنهم في هذه المرة عرفوه بقولهم ذلك ، وتوسموا أنه يوسف ، واستفهموه استفهام استخبار ، وقيل : استفهام تقرير ، وهو أولى في تقديري ، لأنهم كانوا عرفوه بعلامات.

قال ابن عباس : إن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه ، وكان في قرنه علامة ، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة ، فلما قال لهم : هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ رفع التاج عنه ، فعرفوه ، فقالوا : أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ أي إنهم قالوا : من المؤكد قطعا أنك أنت يوسف.

قالَ : أَنَا يُوسُفُ قال : نعم أنا يوسف المظلوم العاجز ، الذي نصرني اللّه وقواني وصرت إلى ما ترون ، وهذا أخي بنيامين الذي فرقتم بيني وبينه ،

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ٣٤١

ج ١٣ ، ص : ٥٧

و مقصوده : أن هذا أيضا كان مظلوما كما كنت ، ثم صار منعما عليه من قبل اللّه تعالى ، كما ترون.

قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا أي قد أنعم اللّه علينا بالاجتماع بعد الفرقة وبعد طول المدة ، وأعزنا في الدنيا والآخرة. وفيه إشارة إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين ، لأنه أخي.

إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ .. أي إن كل من يتقي اللّه حق التقوى فيما أمر به ونهى ، ويصبر على طاعة اللّه وعلى المحن التي يتعرض لها ، فإن اللّه حسبه وكافيه من كل سوء ، ومنجيه من كل مكروه ، واللّه لا يضيع أجر من أحسن عملا في الدنيا والآخرة. وهذه شهادة من اللّه بأن يوسف من المتقين الصابرين المحسنين.

قالُوا : تَاللَّهِ لَقَدْ .. أجابوه إعلانا للحق واعترافا له بالفضل ، واللّه لقد فضلك اللّه علينا ، وآثرك بالعلم ، والحلم ، والخلق ، والملك والسعة والتصرف ، والنبوة أيضا ، وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه ، وأخطئوا في حقه ، وأعلنوا بأنهم المذنبون الخاطئون ، الذين لا يعذرون.

وبعد اعتذارهم وإعلان توبتهم صفح عنهم فقال : لا لوم ولا تعيير ولا توبيخ ولا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ، وكذا فيما قبله من الأيام ، وخص اليوم بالذكر ، لأنه مظنة التثريب والعتاب.

ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة ، فقال : يغفر اللّه لكم ذنوبكم وظلمكم ، وهو أرحم الراحمين لمن تاب

إليه وأناب إلى طاعته.

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا .. لما عرف يوسف نفسه إخوته ، سألهم عن أبيهم ، فقالوا : ذهب بصره ، أي عمي من كثرة البكاء ، فقال لهم بما عرف بالوحي :

اذهبوا بقميصي هذا الذي على بدني ، أو المتوارث عن أجدادي وآبائي إبراهيم

ج ١٣ ، ص : ٥٨

و إسحاق ويعقوب ، فألقوه على وجه أبي فور وصولكم إليه ، يأت مبصرا (ذا بصر) كما كان ، فإن الغشاوة التي ألمت به تزول بالفرح والبشرى ، وذلك بفضل اللّه وكرمه ، وأتوني بجميع أهليكم من الرجال والنساء والأولاد ، روي أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- جواز الشكوى عند الضّرّ ، أي الجوع ، بل يجب على الإنسان إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره ، أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع ، كما يجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه ، ولا يكون ذلك معارضا التوكل :

و هذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط. ويظل الصبر والتجلّد في النوائب أحسن ، والتعفف عن المسألة أفضل ، وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ، كما قال يعقوب : إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

أي من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائدته على عباده.

أما الشكوى لمن لا يؤمل منه إزالتها فهو عبث وسفه ، إلا أن يكون على وجه البثّ والتسلي.

٢- جواز طلب الزيادة على الحق على سبيل الصدقة ، والصدقة كما ذكر مجاهد لم تحرم إلا على نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم. و

روى ابن جرير أن سفيان بن عيينة سئل : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي صلّى اللّه عليه وسلم ؟ فقال : ألم تسمع قوله : فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ.

ج ١٣ ، ص : ٥٩

٣- استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع : لأن إخوة يوسف قالوا له : فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ فكان يوسف هو الذي يكيل.

وكذلك الوزّان والعدّاد وغيرهم ، لأن على البائع تسليم المبيع وتمييزه عما عداه ، إلا إذا باع شيئا معينا

أو ما لا يحتاج إلى الكيل أو الوزن أو العدد ، ولأن البائع لا يستحق الثمن إلا بعد إيفاء الحق بالكيل أو الوزن.

وكذلك أجرة النقد (فحص الدراهم التي هي الثمن) على البائع أيضا ، لأنه هو الذي يدّعي الرداءة ، ولأن النفع يقع له ، فصار الأجر عليه.

ويكره للرجل أن يقول في دعائه : اللهم تصدق عليّ ، لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغي الثواب ، واللّه تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم ، لا رب غيره.

(٥٦/١٣)

٤- استنباط الأحكام من فحوى الكلام وما يصحبه من إشارات ، فإن يوسف وجّه لإخوته استفهاما بمعنى التذكير والتوبيخ بقوله : هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ؟ ففهموا منه أنه يوسف ، فقالوا على سبيل استفهام التقرير والإثبات : أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ .

ودل قوله إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ على أنهم كانوا صغارا في وقت أخذهم ليوسف ، وليسوا أنبياء ، لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته ، ويدل على أنه حسنت حالهم الآن ، أي فعلتم فعلكم إذ أنتم صغار جهال.

وتعرف إخوة يوسف عليه ، فتجاوب معهم وعرفهم بنفسه قائلا : أَنَا يُوسُفُ أي أنا المظلوم.

قال ابن عباس : كتب يعقوب إلى يوسف بطلب ردّ ابنه ، وفي الكتاب :

من يعقوب صفيّ اللّه ابن إسحاق ذبيح اللّه ، ابن إبراهيم خليل اللّه إلى عزيز مصر :

ج ١٣ ، ص : ٦٠

أما بعد ، فإنا أهل بيت بلاء ومحن ، ابتلى اللّه جدّي إبراهيم بنمروذ وناره ، ثم ابتلى أبي إسحاق بالذبح ، ثم ابتلاني بولد كان لي أحبّ أولادي إلي ، حتى كفّ بصري من البكاء ، وإني لم أسرق ولم ألد سارقا ، والسّلام.

فلما قرأ يوسف الكتاب ارتعدت مفاصله ، واقشعرّ جلده ، وأرخى عينيه بالبكاء ، وعيل صبره ، فباح بالسرّ.

وأعلن يوسف عن مزيد فضل اللّه عليه بقوله : قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا أي بالاجتماع بعد الفرقة ، وبالعز بعد الذل ، وبالنجاة والملك.

٥- إن من اتقى اللّه بالتزام ما أمر واجتناب ما نهى ، وصبر على المصائب وعن المعاصي ، فإن اللّه يدخر له ثواب إحسانه العمل ، ولا يضيع منه شيئا.

٦- الاعتراف بالذنب أو الخطأ سبيل الحظوة بالعفو والصفح ، فإن قول إخوة يوسف : وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ أي مذنبين ، متضمن سؤال العفو ، وقد ظفروا به.

(٥٧/١٣)

و لا مانع من العفو عن الخطأ وإن كان عمديا ، فهو تجاوز للحق ، أيا كانت صفته ، وكل من اقترف ذنبا متجاوز لمنهاج الحق ، واقع في الشبهة والمعصية.

٧- شهد اللّه تعالى لنبيه يوسف عليه السّلام بصفات المتقين الصابرين المحسنين ، وكفى بشهادة الحق فخرا ، وهذا تعليم وتدريب ومثل عملي لنا.

٨- كانت عبارة يوسف : لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ مثلا رائعا في السماحة والعفو والصفح ، فهو عفو لا لوم فيه ولا تعيير ، وهو صفح في حال المقدرة على العقاب ، وهو تنازل عن أي حق دون أي حقد أو كراهية ، وأضيف إليه الدعاء بالمغفرة على الذنب والستر ، والرحمة في عالم الآخرة بين يدي أرحم الراحمين. وهو لا يكون إلا عن وحي ، فكان مرد الفضل في النهاية إلى اللّه تعالى.

ج ١٣ ، ص : ٦١

و احتذى نبينا عليه الصلاة والسّلام حذو أخيه يوسف عليه السّلام في هذا القول العظيم يوم فتح مكة بإعلان العفو عن قريش ،

روى ابن مردويه عن ابن عباس ، والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أخذ بعضادتي الباب يوم فتح مكة ، وقد لاذ الناس بالبيت فقال : « الحمد للّه الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : ماذا تظنون يا معشر قريش ؟ قالوا :

خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت ، قال : وأنا أقول كما قال أخي يوسف : لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ فخرجوا كأنما نشروا من القبور » .

وقال عطاء الخراساني : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ، ألم تر قول يوسف : لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وقال يعقوب :

سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي.

٩- حدثت الفرحة الصغرى بعودة البصر إلى يعقوب حينما ألقي عليه قميص يوسف. وهو- في القول الأصح

(٥٨/١٣)

المروي مرفوعا عن أنس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فيما ذكر القشيري- قميص إبراهيم الذي ألبسه اللّه أثناء إلقائه في النار من حرير الجنة
، وكان كساه إسحاق ، وكان إسحاق كساه يعقوب ، ويعقوب علقه في عنق يوسف ، لما كان يخاف عليه من العين ، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة ، وإن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفي. وهذا بإعلام اللّه يوسف به. وقيل : إنه قميص يوسف الذي خلعه من على بدنه ، فإنه إذا ألقي على أبيه انشرح صدره ، وحصل في قلبه الفرح الشديد ، والفرح يقوي الروح ، ويزيل الضعف عن القوى الحسية ، فيقوى بصره ، ويزول عنه ما غشيه بسبب البكاء ، والطب يؤيد ذلك.
١٠- تمت الفرحة الكبرى بطلب يوسف عليه السّلام من إخوته إحضار جميع أسرته إلى مصر لاتخاذها دارا ، وكان عددهم سبعين أو ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة.
ج ١٣ ، ص : ٦٢
الفصل السادس عشر من قصة يوسف إخبار يعقوب بريح يوسف وتأييده ببشارة البشير [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٩٤ الى ٩٨]
وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (٩٧) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)
الإعراب :
فَلَمَّا أَنْ جاءَ أن لتأكيد الربط بين شرط « لما » وهو جاءَ وجوابها وهو أَلْقاهُ.
البلاغة :

تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ هذا استنكار من القوم الحاضرين مجلس يعقوب الذين أخبرهم بأن يوسف حي ، وأكدوا كلامه بمؤكدات ثلاثة : القسم وإنّ واللام.
المفردات اللغوية :
وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ انفصلت عن بلد مصر وجاوزت حدودها وخرجت من العريش قالَ أَبُوهُمْ لمن حضره من ولد ولده ومن حوله من قومه إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لأحس برائحة يوسف ، أشعره اللّه برائحة القميص حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخا « ١ » أي حملته إليه ريح الصبا بإذنه تعالى من مسيرة ثلاثة أيام أو ثمانية أو أكثر تُفَنِّدُونِ تنسبوني إلى الفند : وهو ضعف العقل الحادث بسبب الهرم

، أو الخرف ، وجواب لَوْ لا محذوف ، تقديره : لصدقتموني ، أو لقلت : إنه قريب.

---

(١) الفرسخ : ٥٥٤٤ م

ج ١٣ ، ص : ٦٣

قالُوا أي الحاضرون لَفِي ضَلالِكَ خطئك ، أو في إفراطك في حبه ، وإكثار ذكره ، وتوقع لقائه بعد طول العهد فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ يهوذا ، روي أنه قال : كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه ، فأفرحه بحمل هذا إليه ، وأن : زائدة أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ طرح البشير القميص على وجه يعقوب عليه السّلام. فَارْتَدَّ رجع بصيرا ، لما انتعش فيه من القوة ، بسبب الفرح والبهجة.

المناسبة :

عمت الفرحة أولاد يعقوب في أرجاء مصر ، بعد تعارفهم ، وانتقل أثر الفرح إلى أرض كنعان في أسعد عودة من رحلتهم الثالثة إلى مصر ، وأظهر اللّه المعجزة على يد يعقوب عليه السّلام بإحساسه برائحة يوسف ، وأيّد اللّه ذلك الشعور ببشارة البشير ابنه الأكبر الذي اعتصم في مصر ، حتى يأذن له أبوه بالرجوع بعد بقاء أخيه بنيامين.

روى الواحدي عن أنس بن مالك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : أما قوله :

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي ، يَأْتِ بَصِيراً فإن نمروذ الجبار ، لما ألقى إبراهيم في النار ، نزل عليه جبريل عليه السّلام بقميص من الجنة ، وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص ، وأجلسه على الطنفسة ، وقعد معه يحدثه ، فكسا إبراهيم عليه السّلام ذلك القميص إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب ، وكساه يعقوب يوسف ، فجعله في قصبة من فضة ، وعلقها في عنقه ، فألقي في الجب ، والقميص في عنقه.

التفسير والبيان :

ولما خرجت إبل أولاد يعقوب من حدود مصر عائدة إلى أرض كنعان (فلسطين) من بلاد الشام ، قال يعقوب النبي عليه السّلام لمن حضره من حفدته وقومه : إني لأشم رائحة يوسف وقميصه ، لولا أن تنسبوني إلى الفند (الخرف وضعف العقل) والكبر.

ج ١٣ ، ص : ٦٤

أخرج عبد الرزاق عن ابن عباس قال : لما خرجت العير ، هاجت ريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ، فقال : إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ، لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام.

قال الرازي : والتحقيق أن يقال : إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات ، لأن وصول الرائحة من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة ، فيكون معجزة ليعقوب عليه السّلام على الأظهر أو الأقرب « ١ » .

قالُوا : تَاللَّهِ .. قال الحاضرون في مجلس يعقوب له : واللّه ، إنك لفي خطئك القديم الذي طال أمده بظنك أن يوسف حي يرزق يرجى لقاؤه. قال قتادة : أي من حب يوسف ، لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي اللّه عليه السّلام.

(٦١/١٣)

فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ .. فحينما وصل البريد ، وهو ابنه يهوذا يحمل قميص يوسف ، مبشرا له ببقائه حيا هو وأخوه بنيامين ، ألقاه على وجه يعقوب ، فانقلب فورا بصيرا كما كان ، من شدة الفرح قال السّدّي : إنما جاء به (أي يهوذا بن يعقوب) لأنه هو الذي جاء بالقميص ، وهو ملطّخ بدم كذب ، فأحبّ أن يغسل ذلك بهذا ، فجاء بالقميص ، فألقاه على وجه أبيه ، فرجع بصيرا.

قالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ .. قال يعقوب لأولاده وحفدته ومن حوله : ألم أقل لكم حين طلبت منكم أثناء ذهابكم إلى مصر : ابحثوا عن يوسف ، ولا تيأسوا من روح اللّه ورحمته : إني أعلم من اللّه تعالى بوحي منه أشياء لا تعلمونها ، وأعلم أن اللّه سيردّ يوسف إليّ. وقوله تعالى : إِنِّي أَعْلَمُ كلام مستأنف مبتدأ لم يقع

---

(١) تفسير الرازي : ١٨/ ٢٠٨

ج ١٣ ، ص : ٦٥

عليه القول ، ويجوز إيقاع القول عليه وهو ما قاله لهم سابقا : نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

.

وحين ذاك قالوا لأبيهم مترفّقين معظّمين متوسّلين : اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا ، فإنّا كنّا مذنبين عاصين للّه ، فقد تبنا وأنبنا وندمنا على ما فعلنا معك ومع أخوينا : يوسف وبنيامين.

أجابهم والدهم يعقوب : سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي في المستقبل ، لأنّ ربّي غفور ساتر للذّنوب ، رحيم بالعباد.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- يمتاز الأنبياء عن غيرهم بأن اللّه تعالى يظهر على أيديهم معجزات خارقة للعادة ، خارجة عن المألوف ، وهذا هو الذي مكّن يعقوب من الإخبار برائحة يوسف وقميصه ، قبل وصول أولاده إليه ، حاملين البشارة بلقائهم الحارّ مع أخيهم يوسف عليه السّلام.

(٦٢/١٣)

و قال ابن عباس : هاجت ريح ، فحملت ريح قميص يوسف إليه ، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وعلى هذا القول أيضا يكون الإحساس بالرّائحة محتاجا إلى عناية ربّانيّة ، وتأييد روحاني عميق الإدراك.

٢- وظهرت معجزة أخرى بشفاء يعقوب عليه السّلام بوضع القميص على وجهه ، بإرادة اللّه تعالى وعونه ، فهو إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون.

٣- كان كلام الحاضرين في مجلس يعقوب عليه السّلام مشوبا بالغلظة والتّهكّم ، مما لا يليق توجيهه لنبيّ إطلاقا ، وهو من بنيه زيادة في العقوق.

٤- لم يجد يعقوب عليه السّلام عنده شيئا يعطيه مكافأة للبشير ، وإنّما دعا

ج ١٣ ، ص : ٦٦

له قائلا : هوّن اللّه عليك سكرات الموت. وهذا الدّعاء من أعظم الجوائز وأفضل العطايا والهبات.

والآية دالّة على جواز البذل والهبات عند البشائر.

جاء في حديث كعب بن مالك : « فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني ، نزعت ثوبيّ ، فكسوتهما إيّاه ببشارته » .

وتدلّ الآية أيضا على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغمّ والتّرح ، بتفريح الصّبيان وإطعام الطّعام ونحوهما ، وقد نحر عمر بعد حفظه سورة البقرة جزورا.

٥- نصر اللّه نبيّه يعقوب عليه السّلام على أولاده وكلّ من حوله ، كما ينصر أنبياءه الكرام في نهاية المطاف وفي عاقبة الأمور ، وتبيّن أنّ الناس مع الأنبياء كالأقزام مع العمالقة ، فلم يجد أولاد يعقوب عليه السّلام بدّا من الاعتذار من أبيهم ، وطلب الدّعاء منه أن يغفر اللّه لهم ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يرتفع الإثم عنه أو يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله وتسامحه وعفوه عنهم ، كما عفا عنهم أخوهم يوسف.

(٦٣/١٣)

و هذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له ، فإنه يجب عليه أن يتحلّل منه ويطلب صفحة عنه ومسامحته عليه ، ويخبره بالمظلمة وقدرها ، والصّحيح أنه لا ينفعه التّحليل المطلق دون بيان السّبب ، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ، ربّما لم تطب نفس المظلوم في التّحلل منها.

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء ، فليحلله منه اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح ، أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيّئات صاحبه ، فحمل عليه »

، فقولهصلّى اللّه عليه وسلّم : « أخذ منه بقدر مظلمته »

يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر ، مشارا إليها مبيّنة « ١ » .

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ٢٦٢ [.....]

ج ١٣ ، ص : ٦٧

٦- لم يستعجل يعقوب عليه السّلام بطلب المغفرة لأولاده والدّعاء لهم ، وإنّما أخّر ذلك- كما قال ابن عباس- إلى السّحر ، قال طاوس : سحر ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء. وهذا رأي الأكثرين.

وهذا الموقف من يعقوب يختلف عن موقف يوسف عليهما السّلام ، لأنّ دعاء الأول كان مؤجّلا ، ودعاء الثّاني كان في الحال. والسبب أن حال الأب حال المربّي ، فهو يريد تعظيم الذّنب في أنفسهم ، ولأنّ ذنبهم لم يكن موجّها إليه مباشرة ، وإنما إلى يوسف عليه السّلام وأخيه ، ولأن خطأهم ذنب كبير حدثت منه أضرار كثيرة ، فيحتاج إلى توبة نصوح ، وندم شديد ، ولا يمحى بمجرد طلب الاستغفار ، ثمّ إن يوسف عليه السّلام كان قادرا على عقابهم وهم ضعاف ، فأراد المبادرة إلى تأمينهم من خوف الانتقام منهم ، وتهدئة نفوسهم ، وإظهارا للسّرور عقب المفاجأة بأنه أخوهم ، وليرى الناس فضل العفو عند المقدرة ، ويصبح للنّاس أسوة حسنة.

الفصل السابع عشر من قصة يوسف لقاء أسرة يعقوب عليه السّلام في مصر [سورة يوسف (١٢) : الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ

أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)

ج ١٣ ، ص : ٦٨

الإعراب :

سُجَّداً جمع ساجد ، كشهّد جمع شاهد ، وهو حال من واو خَرُّوا وهي حال مقدّرة.

البلاغة :

إِنْ شاءَ اللَّهُ جملة دعائية للتّبرّك وجعل الأمان بمشيئة اللّه تعالى ، وهي متقدّمة على قوله تعالى : آمِنِينَ ، والتّقدير : ادخلوا مصر آمنين إن شاء اللّه.

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً المراد بأبويه أبوه وأمه أو خالته من باب التّغليب للأب ، والسّجود متقدّم على الرّفع على السّرير ، لكن قدّم الرّفع لفظا للاهتمام بتعظيمه أبويه.

المفردات اللغوية :

فَلَمَّا دَخَلُوا في الكلام حذف ، تقديره : فرحل يعقوب عليه السّلام بأهله أجمعين ، وساروا حتى تلقوا يوسف عليه السّلام. آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ضمّ إليه أباه وأمه ، أو خالته ، نزلت منزلة الأم تنزيل العمّ منزلة الأب في قوله تعالى : وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ [البقرة ٢/ ١٣٣] وإسماعيل كان عمّا ليعقوب عليه السّلام.

وَ قالَ يوسف عليه السّلام لهم. وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ سرير الملك. وَخَرُّوا لَهُ أي أبواه وإخوته الأحد عشر. سُجَّداً سجود تحية وتكرمة له ، وسجود انحناء لا سجود عبادة ، ولا وضع جبهة على الأرض ، فإن ذلك كان تحيتهم في زمانهم. تَأْوِيلُ رُءْيايَ مآلها وعاقبتها. إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ لم يقل من الجبّ تكرّما ، لئلا يخجل إخوته. الْبَدْوِ البادية. نَزَغَ أفسد ووسوس ، يقال : نزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحثّ على الشّرّ ، وأصل النّزغ : النّخس ، يقال : نزغ الرّائض الدّابة : إذا نخسها وحملها على الجري ، ونزغه الشيطان :

نخسه ، ليحثّه على المعاصي. لَطِيفٌ لطيف التّدبير لما يشاء ، إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته. الْعَلِيمُ بخلقه وبوجوه المصالح والتّدابير. الْحَكِيمُ في صنعه ، الذي يفعل كلّ شيء في وقته ، وعلى وجه يقتضي الحكمة.

المناسبة :

بعد أن طلب يوسف عليه السّلام من إخوته أن يأتوه بأهله أجمعين ، أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان

إلى مصر ، فخرج يوسف عليه السّلام للقائهم ، ومعه بأمر الملك أكابر دولته.

ج ١٣ ، ص : ٦٩

فتمّ لقاء الأسرة في المرّة الرّابعة من رحلات أولاد يعقوب عليه السّلام إلى مصر ، ورأوا يوسف عليه السّلام في عزّ وأبهة ، وتحققت رؤيا يوسف عليه السّلام بسجود إخوته الأحد عشر مع أبيه وأمه أو خالته ، فتمّ الاجتماع بعد الفرقة ، والأنس بعد الكدر.

روي أن يوسف عليه السّلام وجّه إلى أبيه جهازا ومائتي راحلة ، ليتجهّز إليه بمن معه ، وخرج يوسف عليه السّلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر للقاء يعقوب نبيّ اللّه عليه السّلام.

قيل : إن يعقوب وولده دخلوا مصر ، وهم اثنان وسبعون ، ما بين رجل وامرأة ، وخرجوا منها مع موسى ، والمقاتلون منهم ست مائة ألف وخمس مائة ، وبضع وسبعون رجلا سوى الصبيان والشّيوخ.

(٦٦/١٣)

و أقام يعقوب عليه السّلام عند ابنه يوسف عليه السّلام أربعا وعشرين سنة ، أو سبع عشرة سنة ، وكانت مدّة فراقه ثماني عشر ، أو أربعين أو ثمانين سنة ، وحضره الموت ، فوصّى يوسف عليه السّلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه ، فمضى بنفسه ودفنه ثمة ، ثم عاد إلى مصر ، وأقام بعده ثلاثا وعشرين سنة.

التّفسير والبيان :

بناء على طلب يوسف عليه السّلام من إخوته إحضار أهله أجمعين إليه من بلاد كنعان إلى مصر ، للإقامة معه فيها ، حضر أبوه وخالته وإخوته وأسرهم ، فلما أخبر يوسف عليه السّلام باقترابهم ، خرج لتلقّيهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف عليه السّلام ، لتلقي نبيّ اللّه يعقوب عليه السّلام ، فلما دخلوا على يوسف عليه السّلام في أبهة سلطانه ، بعد أن استقبلهم في الطريق مع جموع غفيرة ، ضمّ إليه أبويه وعانقهما : وهما أبوه وأمه على القول الذي رجّحه

ج ١٣ ، ص : ٧٠

ابن جرير ، بأنّها كانت حيّة ، أو أبوه وخالته لأن أمه قد ماتت ، فتزوّج أبوه خالته.

وقال لأسرته جميعا : ادخلوا مصر إن شاء اللّه آمنين على أنفسكم وأموالكم وأهليكم ، لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

ورفع أبويه على سرير ملكه بأن أجلسهما معه ، تكريما لهما ، وسجد له الإخوة الأحد عشر والأبوان سجود تحيّة وإكرام له ، لا سجود عبادة وتقديس ، وكان سجود الانحناء هو تحيّة الملوك والعظماء في زمنهم.

ويلاحظ أن في الآية حذفا في مطلعها تقديره : فجاء يعقوب وأسرته حتى وصلوا إلى مصر ، وفيها تقديم المشيئة إِنْ شاءَ اللَّهُ على قوله : آمِنِينَ لأن القصد اصطحاب الدّخول بالأمان والسّلامة والغنيمة ، وكذلك فيها تقديم وتأخير بين الرّفع على العرش وبين السّجود ، فالسّجود متقدّم على الرّفع على السّرير الملكي ، لكن قدّم الرّفع ، اهتماما بتعظيم أبويه.

(٦٧/١٣)

و حينئذ أعادت الذّاكرة إلى ذهن يوسف عليه السّلام رؤياه السابقة في عهد الصّغر ، فقال لما رأى سجود أبويه وإخوته : يا أبت ، هذا السّجود تأويل رؤياي القديمة حال صغري ، وهي : إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ وتأويل رؤياي : ما آل إليه الأمر.

إن تلك الرؤيا أصبحت حقيقة واقعة وصحيحة صدقا ، فإن رؤيا الأنبياء حقّ ثابت ، كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده ، صار سببا لوجوب ذلك الذّبح عليه في اليقظة ، فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف عليه السّلام ، وحكاها ليعقوب من قبل ، سببا لوجوب ذلك السّجود.

وقد أحسن اللّه تعالى إليّ وأفاض عليّ من نعمه ، إذ أطلق سراحي من

ج ١٣ ، ص : ٧١

السّجن ، ورزقني الملك ، وجاء بكم من البادية ، وكانوا أهل بادية وماشية وشظف عيش ، فنقلكم إلى الحضر وترف المدينة.

ولم يذكر إخراجه من البئر ، ترفّعا عن لوم إخوته ، وتكريما لهم ، وحفاظا على حيائهم ، ولأن السّجن كان آخر المحن ، وأخطر من السّقوط في الجبّ لما فيه من اتّهام بالنّساء ، ولأنه بعد خروجه من البئر صار عبدا لا ملكا ، وصار بعد السّجن ملكا ، فكان الإخراج منه أقرب إلى الإنعام الكامل.

حدث هذا كلّه من بعد أن نزغ الشّيطان ، أي أفسد وأغوى بيني وبين إخوتي ، وقد أضاف النّزغ إلى الشّيطان لأنه سبب الإفساد ، وتكريما لإخوته.

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ أي إذا أراد أمرا قيّض له أسبابا وقدّره ويسّره ، إنه هو العليم بمصالح عباده ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريده.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

(٦٨/١٣)

١- إن العاطفة بين الولد وأبويه طبيعية فطرية ، لذا كان إكرام يوسف عليه السّلام لأبويه أشدّ من إكرام إخوته ، فعانقهما وضمّهما إليه ، وأجلسهما على سرير الملك معه ، واكتفى بأن قال لجميع الأسرة : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ.

٢- دلّ قوله تعالى : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ على تأمين الحاكم الدّاخلين إلى بلاده من قطر آخر ، وهو أمان يشمل الأنفس والأهل والأموال.

والمراد بقوله تعالى : ادْخُلُوا مِصْرَ كما ذكر ابن عباس : أقيموا بها آمنين ، سمّى الإقامة دخولا لاقتران أحدهما بالآخر.

ج ١٣ ، ص : ٧٢

و الأمان الحقيقي لا يكون إلا بمشيئة اللّه ، لذا علقه بقوله : إِنْ شاءَ اللَّهُ مثل قوله تعالى : لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [الفتح ٤٨/ ٢٧].

٣- أجمع المفسّرون على أنّ سجود أسرة يوسف عليه السّلام له كان سجود تحيّة وانحناء على عادتهم المألوفة في التّحية ، لا سجود عبادة ولا على الأرض. وقد نسخ اللّه تعالى ذلك كله في شرعنا.

وبالرّغم من نسخ الانحناء في التّحية ، فإن بعض المسلمين مع الأسف ، لا يتنبهون لذلك ، وينحنون في التّحية والسّلام ، كما يفعل الغربيون الآن.

روى ابن عبد البرّ في التّمهيد عن أنس بن مالك قال : قلنا : يا رسول اللّه ، أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : « لا » ، قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضا ؟ قال : « لا » ، قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا ؟ قال : « نعم » .

وأمّا القيام للقادم ، كما أمر النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم جماعة الأوس

بقوله في الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود عن أبي سعيد : « قوموا إلى سيّدكم وخيركم » يعني سعد بن معاذ ، فهو جائز إذا لم يؤثّر ذلك في نفسه ، فإن أثّر فيه ، وأعجب به ، ورأى لنفسه حظّا ، لم يجز إعانته على ذلك ،

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « من سرّه أن يتمثّل له النّاس قياما ، فليتبوأ مقعده من النّار » .

وتجوز الإشارة بالإصبع للبعيد عنك ، دون الدّاني القريب ، وإذا سلّم لا ينحني ، ولا أن يقبّل مع السّلام يده ، ولأن الانحناء على معنى التّواضع لا ينبغي إلا للّه. وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم.

ولا بأس بالمصافحة ، فقد صافح النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، و

قال فيما أخرجه ابن عدي عن ابن عمر ، وهو ضعيف : « تصافحوا يذهب الغلّ » .
وروى غالب التّمار عن الشّعبي أن أصحاب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم كانوا إذا التقوا تصافحوا ،
ج ١٣ ، ص : ٧٣
٤- عدّد يوسف عليه السّلام بعض النّعم عليه وعلى آله ، منها الخروج من السّجن ، ومجيء أهله من البادية في أرض كنعان ، واللطف أو الرّفق الإلهي بالعباد حيث جمع الأسرة هذا الجمع الكريم الحافل السّارّ ، بعد إيقاع الشّيطان الحسد بينه وبين إخوته ، وتمّ ذلك كلّه بفعل اللّه تعالى وفضله.
٥- تحققت رؤيا يوسف الّتي رآها في عهد الصّغر ، واختلف العلماء في مقدار المدة بين تحقق الرؤيا وبين حدوثها ، فقيل : ثمانون سنة ، وقيل : سبعون ، وقيل : أربعون ، وهو قول الأكثرين ، ولذلك يقولون : إن تأويل الرؤيا إنّما صحّت بعد أربعين سنة.
٦- إذا أراد اللّه تعالى شيئا هيّأ أسبابه ويسّرها ، فحصول الاجتماع بين يوسف عليه السّلام وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة ، وطيب العيش ، وفراغ البال ، كان في غاية البعد ، إلا أنه تعالى لطيف بعباده ، لأنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها ، وحكيم محكم في فعله ، حاكم في قضائه ، حكيم في أفعاله ، مبرّأ عن العبث والباطل.
الفصل الثامن عشر من قصّة يوسف دعاء جامع يتضمّن تحدّث يوسف بنعم اللّه عليه وطلبه من ربّه حسن الخاتمة [سورة يوسف (١٢) : آية ١٠١]

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)
ج ١٣ ، ص : ٧٤
الإعراب :
فاطِرَ السَّماواتِ .. منصوب على أنه صفة المنادي أو منادى مستقل.
المفردات اللغوية :
مِنَ الْمُلْكِ بعض الملك وهو ملك مصر. وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ تأويل الكتب الإلهيّة ، وتعبير الرؤيا ، ومِنَ أيضا للتّبعيض لأنه لم يؤت كلّ التّأويل. فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خالقهما ومبدعهما. أَنْتَ وَلِيِّي ناصري أو متولّي أمري أو منعم عليّ.
وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ من آبائي ، أو بعامة الصالحين في الرّتبة ، فعاش بعد ذلك أسبوعا أو أكثر ، ومات وله مائة وعشرون سنة ، أو مائة وسبعة أعوام.

فتنازع المصريون في مدفنه ، فجعلوه في صندوق من مرمر ، ودفنوه في أعلى النّيل ، لتعمّ البركة جانبيه ، ثم نقله موسى عليه السّلام إلى مدفن آبائه في فلسطين. أما يعقوب عليه السّلام فأقام مع يوسف أربعا وعشرين سنة ، ثم توفي وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه ، فذهب به ، ودفنه ثمّة ، وعاد وعاش بعده ثلاثا وعشرين سنة.

المناسبة :

بعد أن حمد يوسف عليه السّلام ربّه على لطفه ونعمه ، باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما منّ اللّه به عليه من النّبوة والملك ، دعا هذا الدّعاء ، وسأل ربّه عزّ وجلّ ، كما أتمّ نعمته عليه في الدّنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة ، وأن يتوفّاه مسلما ، وأن يلحقه بالصّالحين.

التفسير والبيان :

(٧١/١٣)

قال يوسف بعد اجتماعه بأبويه وإخوته : ربّ قد أعطيتني ملك مصر ، وجعلتني حاكما مطلق التّصرف فيها دون منازع ولا معارض ولا حاسد. روي أن يوسف عليه السّلام أخذ بيد يعقوب عليه السّلام ، وطاف به في خزائنه ، فأدخله خزائن الذهب والفضة ، وخزائن الحلي ، وخزائن الثياب ، وخزائن السّلاح ، فلما أدخله خزائن القراطيس ، قال : يا بني ما أغفلك! عندك هذه

ج ١٣ ، ص : ٧٥

القراطيس ، وما كتبت إليّ على ثمان مراحل ، قال : نهاني جبريل عليه السّلام عنه ، قال : سله عن السّبب ، قال : أنت أبسط إليه ، فسأله ، فقال جبريل عليه السّلام : أمرني اللّه تعالى بذلك ، لقولك : وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ فهلا خفتني ؟ ! وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ أي الكتب السّماوية وأسرار كلامك ، وتعبير الرؤيا ومصداقيتها ، فتقع كما ذكرت.

ومِنَ في قوله : مِنَ الْمُلْكِ ، ومِنْ تَأْوِيلِ .. للتّبعيض ، لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدّنيا وهو ملك مصر ، وبعض التّأويل.

فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أنت خالق السّموات والأرض ومبدعهما.

أَنْتَ وَلِيِّي .. أنت ناصري ومتولّي أموري وشأني كلّه في الدّنيا والآخرة ، فإن نعمك غمرتني في الدّنيا ، وأملي فيها في الآخرة.

تَوَفَّنِي مُسْلِماً أمتني على الإسلام منقادا خاضعا طائعا أوامرك. قال ابن عباس : « ما تمنّى نبيّ قط الموت قبل يوسف عليه السّلام » .

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ اجعلني ملحقا بالأنبياء والمرسلين ، على العموم ، وبآبائه على الخصوص وهم

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، فتوفّاه اللّه طيّبا طاهرا بمصر ، ودفن في النّيل في صندوق من رخام ، ثم نقل موسى عليه السّلام تابوته بعد أربع مائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفن مع آبائه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى أن سيرة الأنبياء عليهم السّلام مثل أعلى في القدوة ، فإن نعم اللّه تعالى على يوسف عليه السّلام في الدّنيا من إيتاء الملك وتعبير الرؤيا ، لم تحجبه عن طلب مرضاة اللّه تعالى في الآخرة ، لأن العبرة بحسن الخاتمة ،

ج ١٣ ، ص : ٧٦

و بما يلقاه المؤمن من نعيم خالد في الآخرة ، ولأن الآخرة خير وأبقى. وبما أنه نبيّ لم يطلب أقلّ من مرتبة الأنبياء وكرامتهم ، فسأل اللّه أن يجعله مع الصالحين ، وهم الأنبياء والرّسل عليهم السّلام ، في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم.

أما تمني الموت فلم يكن مطلقا ، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام ، أي إذا جاء أجلي توفّني مسلما ، وهذا قول الجمهور ، فاللهم اجعل وفاتنا على الإيمان.

ولا يجوز في شريعتنا تمنّي الموت ، بدليل ما

ثبت عند الإمام أحمد وفي الصّحيحين عن أنس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به ، فإن كان لا بدّ متمنّيا ، فليقل : اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرا لي »

، و

عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أحمد ومسلم : « لا يتمنى أحدكم الموت ، ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا » .

الفصل التّاسع عشر من قصّة يوسف إثبات نبوّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم الإخبار عن المغيبات والإعراض عن التّأمل في الآيات ودعوة النّبي إلى التّوحيد [سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٠٢ الى ١٠٨]

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠(٢) وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠(٣) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (١٠(٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)

أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)

ج ١٣ ، ص : ٧٧

الإعراب :

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ .. ذلِكَ : مبتدأ ، ومِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ ، نُوحِيهِ إِلَيْكَ :

خبران له.

وَما أَكْثَرُ النَّاسِ .. بِمُؤْمِنِينَ ما : نافية حجازية ، وأَكْثَرُ : اسمها ، وبِمُؤْمِنِينَ : متعلّق بخبرها. ووَ لَوْ حَرَصْتَ اعتراضية. بَغْتَةً منصوب على الحال ، وأصله المصدر.

عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي أَنَا : تأكيد للضمير المستتر في أَدْعُوا وفي عَلى بَصِيرَةٍ لأنه حال من أَدْعُوا ومَنِ اتَّبَعَنِي عطف عليه ، يريد : أدعو إليها أنا ، ويدعو إليها من اتّبعني. ويجوز أن يكون أَنَا مبتدأ وخبره عَلى بَصِيرَةٍ خبر مقدّم ، أي على حجة وبرهان ، لا على هوى. هذِهِ سَبِيلِي مبتدأ وخبر.

البلاغة :

وَلَوْ حَرَصْتَ اعتراضية بين اسم ما الحجازية وخبرها ، للدّلالة على أن الهداية بيد اللّه وحده.

وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ على حذف مضاف ، أي وما تسألهم على تبليغ القرآن الكريم من أجر.

مُعْرِضُونَ ومُشْرِكُونَ سجع : وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية :

ذلِكَ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه السّلام ، والخطاب للرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم. مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ أخبار ما غاب عنك يا محمد. لَدَيْهِمْ لدى إخوة يوسف عليه السّلام. إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ في كيده ، أي إلقائه في الجبّ ، وأَجْمَعُوا : عزموا عليه. وَهُمْ يَمْكُرُونَ به ، أي لم تحضرهم ، فتعرف قصّتهم ، فتخبر بها ، وإنما ذلك من تعليم اللّه تعالى لك ، وقوله : وَما كُنْتَ

ج ١٣ ، ص : ٧٨

لَدَيْهِمْ ..

إلخ الآية دليل على صدق الإخبار بالمغيب عنك ، والمعنى : هذا النّبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي ، لأنك لم تحضر إخوة يوسف عليه السّلام حين عزموا على ما همّوا به من أن يجعلوه في غيابة الجبّ ، وهم يمكرون به وبأبيه ، ليرسله معهم. ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحدا سمع ذلك ، فتعلّمته منه. وإنما حذف هذا الكلام استغناء بذكره في غير هذه القصة مثل :

ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا [هود ١١/ ٤٩].

وَما أَكْثَرُ النَّاسِ أي أهل مكة. وَلَوْ حَرَصْتَ على إيمانهم ، وبالغت في إظهار الآيات لهم. بِمُؤْمِنِينَ لعنادهم وتصميمهم على الكفر. وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ على الإنباء أو القرآن الكريم. مِنْ أَجْرٍ من جعل تأخذه كما يفعل حملة الأخبار. إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ما هو أي القرآن الكريم إلا عظة للعالمين من الإنس والجنّ. وَكَأَيِّنْ وكم من آية ، والمراد بها كثير من الآيات الدّالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده ، فالآية هنا : دليل على وجود الصانع ووحدانيته. يَمُرُّونَ عَلَيْها يمرّون على الآيات ، أي يشاهدونها. وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ لا يتفكّرون فيها ، ولا يعتبرون بها.

(٧٥/١٣)

وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ حيث يقرّون بوجوده وخالقيته ، أي أنه الخالق الرّازق.

إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ به بعبادة الأصنام ، فكانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك لبيك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » ، أو يشركون باتّخاذ الأحبار أربابا من دون اللّه ، ونسبة التّبنّي إليه ، أو القول بالنور والظلمة. قيل : الآية في مشركي مكة ، وقيل : في المنافقين ، وقيل :

في أهل الكتاب ، والأولى حملها على العموم.

غاشِيَةٌ نقمة تغشاهم أو عقوبة تحيط بهم وتعمّهم أو تشملهم. بَغْتَةً فجأة. وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بوقت إتيانها.

هذِهِ سَبِيلِي طريقي. أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ إلى دين اللّه. عَلى بَصِيرَةٍ حجة واضحة ومعرفة تامة. وَمَنِ اتَّبَعَنِي ومن آمن بي. وَسُبْحانَ اللَّهِ أنزهه تنزيها عن الشّركاء. وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

و ما أنا من جملة المشركين ، وهو من جملة سبيله أيضا.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى قصة يوسف عليه السّلام ، أراد الحقّ تعالى أن يثبت بها نبوّة النّبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، عن طريق أنها إخبار بالغيب ، والغيب لا يعلمه إلا اللّه تعالى ، ولم يشاهده النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ولا قومه ، مما يدلّ على كون القرآن كلام اللّه تعالى ، وكون نبوّة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم حقّا وصدقا.

ثم ندّد اللّه تعالى بموقف المشركين من الإيمان باللّه تعالى ، فذكر أن هناك

ج ١٣ ، ص : ٧٩

كثيرا من الآيات الدّالة على وجود الصانع ووحدانيته ، ولكن لا يلتفت إليها أولئك المشركون ، وإنّما يعرضون عنها.

وحسم الحقّ تعالى الموقف ، فأبان أن سبيل دعوة النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم هو الدّعوة إلى التّوحيد ، ورفض الشّرك بمختلف أشكاله وأنواعه.

التّفسير والبيان :

(٧٦/١٣)

ذلك المذكور من قصة يوسف بدءا من رؤياه الرؤيا وإلقائه في الجبّ إلى أن أصبح حاكم مصر الفعلي ، وبيان موقف إخوته منه ، وحال أبيهم يعقوب عليه السّلام ، هو من أخبار الغيب الّتي لم يطّلع عليها النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ولم يرها هو وقومه ، والخطاب له ، وهي وحي من اللّه تعالى إليه ، لتثبيت فؤاده ، وصبره على أذى قومه وإعراضهم عن دعوته.

والمقصد الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزا ، لأنه صلّى اللّه عليه وسلّم ما طالع الكتب ، ولم يتتلمذ لأحد ، ولم يكن حاضرا معهم ، فإخباره بهذه القصة الطويلة من غير تحريف ولا غلط إعجاز.

وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ .. بمثابة الدّليل على كونه من الغيب ، أي وما كنت حاضرا عندهم ، ولا مشاهدا لهم ، حين عزموا على إلقائه في الجبّ ، وهم يمكرون به وبأبيه ، ولكنّا أعلمناك به وحيا إليك ، وإنزالا عليك ، كقوله تعالى في قصّة مريم : وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ [آل عمران : ٣/ ٤٤] ، وقوله سبحانه : وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ إلى قوله تعالى : وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا [القصص ٢٨/ ٤٤- ٤٦] ، وقوله عزّ وجلّ : وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا [القصص ٢٨/ ٤٥].

ج ١٣ ، ص : ٨٠

و بالرّغم من هذه الأخبار المعجزة التي فيها عبرة وعظة لم يؤمن أكثر النّاس ، كما قال تعالى : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ .. أي وليس أكثر النّاس بمصدّقين بدعوتك ورسالتك ، ولو حرصت وتهالكت على إيمانهم ، لتصميمهم على الكفر وعنادهم.

(٧٧/١٣)

و المراد بالآية العموم ، كقوله تعالى : وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ [الرّعد ١٣/ ١]. وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما : أراد أهل مكة. ووجه اتصال الآية بما قبلها على قول ابن عباس : أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على سبيل التّعنّت ، واعتقد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه إذا ذكرها ، فربّما آمنوا ، فلمّا ذكرها أصرّوا على كفرهم ، فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى قوله تعالى : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ [القصص ٢٨/ ٥٦] « ١ » .

ومعنى الحرص : طلب الشّيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد ، وجواب لَوْ محذوف لأن جواب لَوْ لا يكون مقدّما عليها ، فلا يجوز أن يقال : قمت لو قمت.

ثم نفى تعالى أن يكون للمشركين عذر بعدم الإيمان بدعوتك فقال :

وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. أي ما تسأل منكري نبوّتك يا محمد على هذا النّصح والدّعاء إلى الخير والرّشد من أجر ، أي من جعل ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه اللّه ونصحا لخلقه ، فما عليهم إلا الاستجابة لدعوتك ، لأنك لا تقصد إلا اتّباع أمر ربّك ونصحهم الخالص.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ أي ما هذا القرآن الذي أرسلك به ربّك إلا تذكير وموعظة لكلّ العالمين من الإنس والجنّ ، به يتذكّرون وبه يهتدون ، وينجون به في الدّنيا والآخرة. وهذا دلّ على عموم رسالته صلّى اللّه عليه وسلّم.

---

(١) تفسير الرّازي : ١٨/ ٢٢٣

ج ١٣ ، ص : ٨١

و السّبب في أن أكثر النّاس لا يؤمنون أنهم في غفلة عن التّفكّر في الدّلائل الدّالّة على وجود الصانع وتوحيده ، فقال : وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ .. أي وكم من آية دالّة على توحيد اللّه وكمال علمه وقدرته في السّموات والأرض من كواكب ثابتة وسيّارة وجبال وبحار ، ونبات وشجر ، وحيوان وحي وميت ، وثمار متشابهة ومختلفة في الطّعوم والرّوائح والألوان والصّفات ، يمرّ على تلك الآيات ويشاهدها أكثرهم ، وهم غافلون عنها ، لا يتفكّرون بما فيها من عبر وعظات ، وكلّها تشهد على وجود اللّه تعالى ووحدانيته.

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنه واحد

و الآية هنا : الدّليل على وجود اللّه تعالى وتوحيده.

وأما علماء الفضاء والفلك فدأبهم الرّصد المادي كرصد الحركة أو الثّبات ، واستنباط القوانين العلمية ، لكنهم لا يفكرون غالبا في الخالق الموجد ، وفي عظمة المدبّر والمقدّر.

وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ .. أي وما يكاد يقرّ أكثر المشركين بوجود اللّه ، كما قال تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [لقمان ٣١/ ٢٥] إلا وتراهم يقعون في الشّرك ، لإشراكهم مع اللّه الأصنام والأوثان في العبادة.

فكلّ عبادة أو تقديس وتعظيم لغير اللّه شرك ،

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « يقول اللّه : أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه » .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « إذا جمع اللّه الأوّلين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، ينادي مناد : من

كان أشرك في عمل عمله للّه ، فليطلب ثوابه من عند غير اللّه ، فإن اللّه أغنى الشّركاء عن الشّرك » .

و

روى التّرمذي وحسّنه ابن عمر : « من حلف بغير اللّه فقد أشرك »

أي حلف بغير اللّه قاصدا تعظيمه مثل اللّه فقد أشرك.

و

روى أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر ، قالوا : وما الشّرك الأصغر يا رسول اللّه ؟ قال :

الرّياء ، يقول اللّه تعالى يوم القيامة : إذا جاز النّاس بأعمالهم ، اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدّنيا ، فانظروا ، هل تجدون عندهم جزاء ؟ » .

و

روى أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « يا أيها النّاس ، اتّقوا هذا الشّرك ، فإنه أخفى من دبيب النّمل » ثم بيّن للصحابة كيف يتّقى الشّرك الخفي ، فقال : « قولوا : اللّهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » .

ثم هدد اللّه تعالى المشركين بالعقاب فقال : أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ أي أفأمن هؤلاء المشركون باللّه أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتشملهم ، أو يأتيهم يوم القيامة فجأة ، وهم لا يحسون ولا هم يشعرون بذلك ،

وهذا كالتأكيد لقوله :

بَغْتَةً.

ونظير الآية قوله تعالى : أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ [النّحل ١٦/ ٤٥- ٤٧].

وقوله تعالى : أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ. أَوَ

أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ. أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ

[الأعراف ٧/ ٩٧- ٩٩].

و إبهام السّاعة مبعث الهيبة والخوف من اللّه دون وازع مشاهد أو قريب.

ثم أبان اللّه تعالى بعد كل تلك الأدلة هدف دعوة النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم وثقته بها ، فقال : قُلْ : هذِهِ سَبِيلِي .. أي قل يا محمد للثقلين : الإنس والجن : إن هذه الطريقة التّي أتبعها ، والدّعوة الّتي أدعو إليها وهي شهادة أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، أدعو إلى دين اللّه بها ، على يقين ، وحجة واضحة قاطعة ، وبرهان ، أدعو أنا ، ويدعو إليها كل من اتبعني أي آمن بي وصدّق برسالتي.

وسبحان اللّه أي وأنزه اللّه وأجلّه وأعظمه وأقدسه من أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والدّ أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتعالى وتقدس اللّه عن ذلك علوا كبيرا : تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ ، وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً [الإسراء ١٧/ ٤٤].

وبعد أن أثبت الوحدانية للّه نفى الشّرك نفيا قاطعا للرّد على المشركين الذين كانوا يقرون بوجوده ثم يشركون به في العبادة إلها آخر فقال : وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أي أنا بريء من جميع المشركين على مختلف أنواعهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- الإخبار بقصة يوسف وغيرها من قصص الأنبياء السّابقين مع أقوامهم من أنباء الغيب الدّالة على المعجزة : وهي كون القرآن كلام اللّه ، وصدق النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم في دعوته ، فذلك معجزة

لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم.

ج ١٣ ، ص : ٨٤

٢- نزلت آية وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ تسلية للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، أي حتى ولو أخبرتهم بقصة يوسف ، فلم يؤمنوا ، أي لست تقدر على هداية من أردت هدايته.

(٨١/١٣)

٣- مهمة كل نبي تبليغ الوحي المنزل عليه بإخلاص وقصد الثواب عند اللّه عز وجل ، دون تكليف النّاس بشيء من الأجر أو المقابل.

٤- القرآن والوحي عظة وتذكرة للعالمين قاطبة ، لا للعرب خاصة ، إنه تذكرة لهم في دلائل التّوحيد والعدل والنّبوة ، والمعاد والقصص ، والتّكاليف والعبادات ، ففيه منافع عظيمة.

٥- ما أكثر الآيات ، أي الدّلائل الدّالة على وجود اللّه تعالى ووحدانيته ، وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته ، في السّموات والأرضين من نجوم وكواكب وبحار وأنهار وجبال ونباتات وأشجار ، وصحار شاسعات ، وأحياء وأموات ، وحيوان وثمرات مختلفة الطعوم والرّوائح والألوان والصّفات. وهذه كلها أدلة محسوسة.

٦- إيمان المشركين مزيف باطل ، فهم يقرون بوجود اللّه خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان. قال ابن عباس : نزلت في تلبية مشركي العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. وعنه أيضا أنهم النّصارى. وعنه أيضا أنهم المشبّهة الذين يشبهون اللّه بخلقه ، آمنوا مجملا وأشركوا مفصّلا. وقيل : نزلت في المنافقين ، والأولى حملها على العموم ، والمعنى كما قال الحسن وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ أي باللسان إلا وهو كافر بقلبه.

٧- عذاب اللّه وعقابه ، وإتيان السّاعة (يوم القيامة) يأتيان فجأة ، من حيث لا يشعر النّاس بهما.

٨- طريقة النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم وسنته ومنهاجه ، ومنهاج أتباعه المؤمنين به الدّعوة

ج ١٣ ، ص : ٨٥

إلى ما يؤدي إلى الجنة ، على يقين وحق ، وشعار المؤمن دائما : سبحان اللّه وما أنا من المشركين ، أي أنزه اللّه عن أي شريك ، ولست من الذين يتخذون من دون اللّه أندادا أي نظراء للّه.

وسمي الدّين سبيلا ، لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب ، كما في قوله تعالى : ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ [النّحل ١٦/ ١٢٥].

(٨٢/١٣)

الفصل العشرون من قصّة يوسف العبرة من القصص القرآني [سورة يوسف (١٢) : الآيات ١٠٩ الى ١١١]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

الإعراب :

وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مبتدأ وخبر ، وهذا إضافة الصّفة بعد حذف الموصوف ، وتقديره :

ولدار السّاعة أو الحال الآخرة ، وهذه الإضافة في نيّة الانفصال ، ولهذا لا يستفيد المضاف التّعريف من المضاف إليه.

ج ١٣ ، ص : ٨٦

حَتَّى إِذَا متعلّقة بمحذوف ، دلّ عليه الكلام ، كأنه قيل : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فتراخى نصرهم حتى إذا استيأسوا عن النّصر.

وَلكِنْ تَصْدِيقَ خبر كان المقدرة ، أي ولكن كان ذلك تصديق الذي بين يديه وتفصيلا ، وهُدىً وَرَحْمَةً منصوبان بالعطف عليه.

المفردات اللغوية :

إِلَّا رِجالًا لا ملائكة. مِنْ أَهْلِ الْقُرى الأمصار لأنهم أعلم وأحلم ، بخلاف أهل البوادي لجفائهم وجهلهم. أَفَلَمْ يَسِيرُوا أهل مكة. عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي آخر أمرهم من إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم. وَلَدارُ الْآخِرَةِ أي ولدار الحال القادمة أو السّاعة الأخرى أو الحياة الآخرة وهي الجنة. اتَّقَوْا اللّه واتقوا الشّرك والمعاصي ، أي خافوا اللّه فلم يشركوا به ولم يعصوه. أَفَلا تَعْقِلُونَ أهل مكة ، فيؤمنوا.

حَتَّى غاية محذوف ، دلّ عليه الكلام ، أي وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ، فتراخى نصرهم. اسْتَيْأَسَ يئس ، أي لا يغررهم تمادي أيامهم ، فإن من قبلهم أمهلوا ، حتى أيس الرّسل من النّصر عليهم في الدّنيا أو من إيمانهم ، لانهماكهم في الكفر. وَظَنُّوا أيقنوا. كُذِبُوا أي ظنّ الأمم أنّ الرّسل أخلفوا ما وعدوا به من النّصر ، وعلى قراءة التّشديد ، أي وظنّ الرّسل أن القوم قد كذبوهم تكذيبا لا إيمان بعده فيما أو عدوهم. فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وهم النّبي والمؤمنون.

بَأْسُنا عذابنا. عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ المشركين. فِي قَصَصِهِمْ أي الرّسل. عِبْرَةٌ أي اعتبار من حال إلى حال. لِأُولِي الْأَلْبابِ أصحاب العقول. ما كانَ هذا القرآن.

يُفْتَرى يختلق. الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ قبله من الكتب. وَتَفْصِيلَ تبيين. كُلِّ شَيْءٍ يحتاج إليه في الدّين. وَهُدىً من الضّلالة. وَرَحْمَةً ينال بها خير الدّارين. لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ يصدّقونه ، خصّوا بالذّكر لانتفاعهم به دون غيرهم.

المناسبة :

(١٣/٨٤)

بعد أن أثبت القرآن الكريم نبوّة النّبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم بدليل إخباره عن المغيبات ، ردّ اللّه على منكري النّبوة ، فقد كان من شبه منكري نبوّته صلّى اللّه عليه وسلّم أن اللّه لو أراد إرسال رسول لبعث ملكا ، كما حكى القرآن عنهم : لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً [فصلت ٤١/ ١٤].

ج ١٣ ، ص : ٨٧

ثم أنذر اللّه كفار قريش وأمثالهم بالعقاب والعذاب إن لم يؤمنوا ، فإن سنّة للّه في عباده واحدة أنهم إن لم يؤمنوا ، حلّ بهم العذاب.

ثم ذكر تعالى أن قصة يوسف عليه السّلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوي العقول والأفكار.

التّفسير والبيان :

ختمت سورة يوسف بهذه الخاتمة الدّالّة على وجوب الاتّعاظ والاعتبار بقصته المؤثرة الحادثة بين كنعان ومصر ، وفي ألوان متعددة ، تبتدئ بإلقائه في الجبّ ، ثم صيرورته في بيت العزيز ، ثم في السّجن ، ثم في أعلى مناصب الحكم ، وصف فيها كيد الإخوة وحسدهم ، ومكر النّساء وكيدهنّ ، وصبر يوسف عليه السّلام وحكمته ومهارته في إدارة الحكم ، وأخلاقه وتسامحه مع إخوته ، وتعظيمه أبويه.

والمعنى : وما أرسلنا يا محمّد من قبلك رسلا إلا رجالا ، لا ملائكة ولا إناثا ، وكانوا من أهل المدن لا من البوادي ، وكنّا ننزل عليهم الوحي والتّشريع.

وهذا يدلّ على أن اللّه أرسل الرّسل من الرّجال ، لا من النّساء ، فلم تكن امرأة قط نبيّا ولا رسولا ، وعلى اختيار الرّسل من أهل المدينة ، فلم يبعث اللّه رسولا من أهل البادية ، لتتبعهم المدن الأخرى ، ولأن أهل البادية فيهم الجهل والجفاء ، وأن أهلا لمدن أرق طباعا وألطف من أهل البوادي ، ولهذا قال تعالى :

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً [التّوبة ٩/ ٩٧].

(١٣/٨٥)

قال ابن كثير : وزعم بعضهم أن سارّة امرأة الخليل ، وأم موسى ، ومريم بنت عمران أم عيسى نبيّات ، واحتجّوا بأن الملائكة بشّرت سارّة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وبقوله : وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ [القصص ٢٨/ ٧] وبأنّ الملك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى عليه السّلام ، وبقوله تعالى : وَإِذْ

ج ١٣ ، ص : ٨٨

قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ. يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ

[آل عمران ٣/ ٤٢- ٤٣] وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنّ نبيّات بذلك « ١ » .

ثم هدد اللّه المشركين على تكذيبهم بالرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم فقال متعجّبا : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ .. أي أفلم يسر هؤلاء المكذّبون لك يا محمّد في الأرض ، فينظروا ويروا كيف كان مصير الأمم المكذّبة للرّسل ، كيف دمّر اللّه عليهم ، كقوم نوح وهود وصالح ولوط ، وللكافرين أمثالها ، فإن عاقبة الكافرين الهلاك ، وعاقبة المؤمنين النّجاة.

ثم حضّ اللّه تعالى على العمل لدار الآخرة والاستعداد لها واتّقاء المهلكات فقال : وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أي إن الدّار الآخرة خير للذين خافوا اللّه فلم يشركوا به ولم يعصوه ، فهي أفضل من هذه الدّار للمشركين المكذّبين بالرّسل ، أي وكما نجّينا المؤمنين في الدّنيا ، كذلك كتبنا لهم النّجاة في الدّار الآخرة ، وهي خير لهم من الدّنيا بكثير فإن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدّنيا ، وأبقى وأخلد.

أَ فَلا تَعْقِلُونَ أي أجهلتم ؟ فلا تعقلون أيها المكذّبون بالآخرة ، فإنكم لو عقلتم ذلك لآمنتم.

(٨٦/١٣)

ثم بشر اللّه نبيّه بالنّصر بإخباره أن نصره تعالى ينزل على رسله عليهم السّلام عند ضيق الحال واشتداد الأزمة وانتظار الفرج من اللّه تعالى في أحرج الأوقات إليه ، فقال : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ .. فيه محذوف ، أي وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ، فبلغوا أقوامهم رسالتهم الدّاعية إلى توحيد اللّه وإخلاص العبادة له ، فكذّبوهم وتمادى أقوامهم في الطغيان والكفر والعناد ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٩٦

ج ١٣ ، ص : ٨٩

فتراخى نصرهم ، حتى أيس الرّسل من إيمانهم أو من النّصر عليهم ، لانهماكهم في الكفر ، وظنّت (أيقنت) الأمم أن الرّسل أخلفوا فيما وعدوهم به من النّصر ، وكذّبوهم فيما أخبروهم به عن اللّه من وعد النّصر ، فجاءهم نصرنا ، أي أتاهم نصر اللّه فجأة ، فنجّي من نشاء وهم النّبي والمؤمنون ، وحلّ العقاب بالمكذّبين الكافرين ، ولا يردّ بأسنا ، أي لا يمنع عقاب اللّه وبطشه عن القوم الذين أجرموا ، فكفروا باللّه وكذّبوا رسله.

والمعنى على قراءة كُذِبُوا بالتّشديد : وظنّ الرّسل أن القوم قد كذّبوهم تكذيبا لا إيمان بعده فيما أو عدوهم.

وهذا تهديد ووعيد لكفار قريش وأمثالهم لعدم إيمانهم بالنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

وللآية نظائر كثيرة في القرآن الكريم منها ما اشتمل على وعد اللّه الرّسل بالنّصر : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا [غافر ٤٠/ ٥١] ، وقوله تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة ٥٨/ ٢١] ، ومنها استنجاز النّصر : وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، مَتى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة ٢/ ٢١٤].

(٨٧/١٣)

و منها بيان سبب العقاب وهو الظّلم والكفر : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [التّوبة ٩/ ٧٠].

ومنها تقرير سنّة اللّه الواحدة في عباده وإلحاق النّظائر والأشباه بأمثالها ، وأنه لا ظلم فيها ولا محاباة ، فكفار قريش مثل الكفار السّابقين في استحقاقهم العذاب لارتكابهم سببه وهو الكفر : أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ ، أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ [القمر ٥٤/ ٤٣].

ونقل تفسير الآية على قراءة التّشديد : كُذِبُوا على النّحو السّابق عن

ج ١٣ ، ص : ٩٠

عائشة ، روى البخاري عن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت لابن أختها عروة بن الزّبير ، وهو يسألها عن قول اللّه تعالى : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ الآية :

« معاذ اللّه لم تكن الرّسل تظنّ ذلك بربّها ، هم أتباع الرّسل الذين آمنوا بربّهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النّصر ، حتى إذا استيأس الرّسل ممن كذّبهم من قومهم ، وظنّت الرّسل أنّ أتباعهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر اللّه عند ذلك » . وأنكرت عائشة المعنى على قراءة التّخفيف.

وقال الرّازي عن تأويل عائشة : وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية.

ونقل تفسير الآية على قراءة التّخفيف كُذِبُوا عن ابن عباس وابن مسعود ، قال ابن عباس : « لما أيست الرّسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظنّ قومهم أن الرّسل قد كذبوهم ، جاءهم النّصر على ذلك » ، وقال ابن مسعود في آية : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ : من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا ، بالتخفيف. وهذا هو المشهور عن الجمهور « ١ » .

(٨٨/١٣)

و الخلاصة : على قراءة التّخفيف ، الضمير في وَظَنُّوا عائد على المرسل إليهم ، لتقدّمهم في الذّكر في قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فيكون الضّمير عائدا إلى الذين من قبلهم من مكذّبي الرّسل ، والظّن هاهنا بمعنى التّوهم والحسبان. والمعنى : وظنّ المرسل إليهم أنهم قد كذبهم الرّسل فيما ادّعوه من النّبوة وفيما يوعدون به من لم يؤمن بهم من العذاب ، وهذا مشهور قول ابن عباس وتأويل عبد اللّه بن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد. ولا يجوز أن تكون الضّمائر في هذه القراءة على الرّسل لأنهم

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٩٧- ٤٩٨ ، تفسير القرطبي : ٩/ ٢٧٥

ج ١٣ ، ص : ٩١

معصومون ، فلا يمكن أن يظنّ أحد منهم أنه قد كذبه من جاءه بالوحي عن اللّه « ١ » .

وعلى قراءة التّشديد وجهان :

الأول- أنّ الظنّ بمعنى اليقين ، أي وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيبا لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك ، فحينئذ دعوا عليهم ، فهنالك أنزل اللّه سبحانه عليهم عذاب الاستئصال ، وورود الظنّ بمعنى العلم كثير في القرآن الكريم ، قال تعالى : الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ [البقرة ٢/ ٤٦] ، أي يتيقنون ذلك.

والثاني- أن يكون الظنّ بمعنى الحسبان ، والتّقدير : حتى إذا استيأس الرّسل من إيمان قومهم ، فظنّ الرّسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم ، وهذا التّأويل منقول عن عائشة رضي اللّه عنها ، قال الرّازي : وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية « ٢ » .

وقال الزّمخشري في قراءة التّخفيف : وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون ، أو وظنّوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم كقولهم :

(٨٩/١٣)

رجاء صادق ورجاء كاذب ، والمعنى أن مدّة التّكذيب والعداوة من الكفار ، وانتظار النّصر من اللّه وتأميله قد تطاولت عليهم ، وتمادت ، حتى استشعروا القنوط ، وتوهّموا أن لا نصر لهم في الدّنيا ، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب « ٣ » .

ثم ذكر اللّه تعالى الهدف العام من قصص القرآن ، فقال : لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ أي لقد كان في سرد أخبار الأنبياء المرسلين مع قومهم ، وكيف

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ٣٥٤

(٢) تفسير الرّازي : ١٨/ ٢٢٦ وما بعدها.

(٣) الكشّاف : ٢/ ١٥٧

نجّينا المؤمنين ، وأهلكنا الكافرين عبرة وعظة وذكرى لأولي العقول والأفكار الصّحيحة. والاعتبار والعبرة : الانتقال والعبور من جهة إلى جهة. أما المهملون عقولهم فلا ينظرون في الأحداث ولا يستفيدون من دروس التّاريخ ، فلا يفيدهم النّصح.

ثم ذكر اللّه تعالى مشتملات القرآن فقال : ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى أي ما كان هذا القرآن الشّامل للقصة وغيرها ، أو ما كان هذا القصص والحديث الذي اشتمل عليه القرآن حديثا يختلق ويكذب من دون اللّه ، لأنه كلام أعجز رواة الأخبار وحملة الحديث ، وإنما هو كلام اللّه من طريق الوحي والتّنزيل وتصديق ما تقدّمه من الكتب السّماوية كالتّوراة والإنجيل والزّبور ، أي تصديق ما جاء فيها من الصّحيح والحقّ ، ونفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، فهو مصدّق أصولها الصّحيحة ، لا كلّ ما جاء فيها بعد من حكايات وأساطير لا يتقبّلها العقل السّليم ، وهو أيضا مهيمن عليها وحارس لها.

والقرآن أيضا فيه تفصيل كلّ شيء من الحلال والحرام والمحبوب والمكروه ، والأمر والنّهي ، والوعد والوعيد ، وصفات اللّه الحسنى ، وقصص الأنبياء على النّحو الثابت الواقع الذي لا تحريف فيه ولا تزويق. ونظير الآية قوله تعالى :

ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ [الأنعام ٦/ ٣٨].

والقرآن أيضا هدى للعالمين ، ويهدي النّاس إلى طريق الاستقامة والسّداد ، فيخرجهم من الظّلمات إلى النّور ، وينقلهم من الغيّ إلى الرّشاد ، ومن الضّلال إلى السّداد ، ويرشدهم إلى الحقّ والخير والصّلاح في الدّنيا والدّين.

وهو كذلك رحمة عامّة من ربّ العالمين للمؤمنين في الدّنيا والآخرة.

فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ١٣ ، ص : ٩٣

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمّنت الآيات الأحكام التّالية :

١- الأنبياء دائما من الرّجال ، ولم يكن فيهم امرأة ولا جنّي ولا ملك. وهذا ردّ على ما يروى عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال في حديث غير ثابت : « إنّ في النّساء أربع نبيّات : حوّاء ، وآسية ، وأم موسى ، ومريم » .

٢- الأنبياء من أهل المدن ، ولم يبعث اللّه نبيّا من أهل البادية ، لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ، ولأن أهل الأمصار والقرى أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن البصري : لم يبعث اللّه نبيّا من أهل البادية قط ، ولا من النّساء ، ولا من الجنّ. وقال العلماء : من شرط الرّسول : أن يكون رجلا آدميا مدنيا وإنما قالوا : آدميا ، تحرّزا من قوله : يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ [الجن ٧٢/ ٦].

٣- على النّاس قاطبة أن ينظروا بمصارع الأمم المكذّبة لأنبيائهم ، فيعتبروا.

٤- آية حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا .. فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم. والمعنى أو الحكم على قراءة التّخفيف كُذِبُوا في رأي الجمهور : ظنّ القوم أنّ الرّسل كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ، ولم يصدقوا. أو ظنّ الأمم أن الرّسل قد كذبوا فيما وعدوا به من نصرهم.

(٩١/١٣)

و المعنى أو الحكم ، على قراءة التّشديد كُذِبُوا أيقنوا أن قومهم كذبوهم ، أو حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذّبوهم ، لا أن القوم كذّبوا ، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يكذّبونهم.

ج ١٣ ، ص : ٩٤

٥- في قصص الأمم الغابرة ومنها قصة يوسف عليه السّلام وأبيه وإخوته عبرة ، أي فكرة وتذكرة وعظة ، لأولي العقول.

٦- ما كان القرآن حديثا يفتري ويختلق ويكذب من دون اللّه ، فهو كلام معجز لا يستطيع بشر ولو كان نبيّا أن يأتي بمثله. وكذلك ما كانت قصّة يوسف حديثا يفتري من دون اللّه تعالى.

٧- القرآن الكريم مصدّق لما تقدّمه من الكتب السّماوية من التّوراة والإنجيل وسائر كتب اللّه تعالى ، ومهيمن عليها وحارس لها.

٨- القرآن الكريم فيه تفصيل كل شيء مما يحتاج إليه العباد من الحلال والحرام ، والشّرائع والأحكام. وهو أيضا هداية ورحمة من اللّه تعالى لعباده وللمؤمنين بالغيب ، وإنقاذ للبشرية من الضّلالة إلى النّور ،

ومن الفساد إلى النّظام والصّلاح : ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [البقرة ٢/ ٢].

٩- يمكن توجيه الكلام إلى قصّة يوسف عليه السّلام وحدها ، فيكون تعالى وصفها بصفات خمس هي :

أ- كونها عبرة لأولي الألباب.

ب- ما كان حديثا يفتري ، أي ليس لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم أن يفتري ، لأنه لم يقرأ الكتب ، ولم يتتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء ، وليس يكذب في نفسه لأنه لا يصحّ الكذب منه ، وأكّد تعالى كونه غير مفترى فقال : وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أي أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التّوراة وسائر الكتب الإلهية.

ج- وتفصيل كلّ شيء من واقعة يوسف عليه السّلام مع أبيه وإخوته.

ج ١٣ ، ص : ٩٥

د- كونها هدى في الدّنيا.

هـ- كونها سببا لحصول الرّحمة في القيامة لقوم يؤمنون. خصّهم بالذّكر لأنهم هم الذين انتفعوا به ، كما في قوله تعالى : هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [البقرة ٢/ ٢].

(٩٢/١٣)

ج ١٣ ، ص : ٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرعد

مدنية وهي ثلاث وأربعون آية.

تسميتها :

سمّيت سورة الرّعد ، للكلام فيها عن الرّعد والبرق والصّواعق وإنزال المطر من السّحاب : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ [الرّعد ١٣/ ١٢- ١٣] والمطر أو الماء سبب للحياة : حياة الأنفس البشريّة والحيوان والنّبات ، والصّواعق قد تكون سببا للإفناء ، وذلك مناقض للماء الذي هو رحمة ، والجمع بين النّقيضين من العجائب.

ناسبتها لما قبلها :

هناك تناسب بين سورة الرّعد وسورة يوسف في الموضوع والمقاصد ووصف القرآن ، أما الموضوع فكلاهما تضمّنتا الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وكيف نجّى اللّه المؤمنين المتّقين وأهلك

الكافرين ، وأما المقاصد فكلّ من السّورتين لإثبات توحيد الإله ووجوده ، ففي سورة يوسف : أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ. وفي سورة الرّعد : اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها .. [٢- ٤]. قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ : اللَّهُ [١٦] ، وفيهما من الأدلّة على وجود الصّانع الحكيم وكمال قدرته وعلمه ووحدانيته الشيء الكثير ، ففي سورة يوسف : وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها ، وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ. وفي سورة الرّعد آيات دالّة على

ج ١٣ ، ص : ٩٧

(٩٣/١٣)

قدرة اللّه تعالى وألوهيّته مثل الآيات [٢- ٤] ، والآيات [٨- ١١] ، والآيات [١٢- ١٦] ، والآيتان [٣٠ و٣٣].

وأما وصف القرآن فختمت به سورة يوسف : ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

وبدئت سورة الرّعد بقوله سبحانه : تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ ، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ.

ما اشتملت عليه السّورة :

تحدثت سورة الرّعد عن مقاصد السّور المدنية التّي تشبه مقاصد السّور المكيّة ، وهي التّوحيد وإثبات الرّسالة النّبوية ، والبعث والجزاء ، والرّد على شبهات المشركين. وأهم ما اشتملت عليه هو ما يأتي :

١- بدئت السّورة بإقامة الأدلّة على وجود اللّه تعالى ووحدانيته ، من خلق السّموات والأرض ، والشّمس والقمر ، والليل والنّهار ، والجبال والأنهار ، والزّروع والثّمار المختلفة الطّعوم والرّوائح والألوان ، وأن اللّه تعالى منفرد بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والنّفع والضّر.

٢- إثبات البعث والجزاء في عالم القيامة ، وتقرير إيقاع العذاب بالكفار في الدّنيا.

٣- الإخبار عن وجود ملائكة تحفظ الإنسان وتحرسه بأمر اللّه تعالى.

٤- إيراد الأمثال للحقّ والباطل ، ولمن يعبد اللّه وحده ولمن يعبد الأصنام ، بالسّيل والزّبد الذي لا فائدة فيه ، وبالمعدن المذاب ، فيبقي النّقي الصّافي ويطرح الخبث الذي يطفو.

٥- تشبيه حال المتّقين أهل السّعادة الصّابرين المقيمي الصّلاة بالبصير ،

ج ١٣ ، ص : ٩٨

حال العصاة الذين ينقضون العهد والميثاق ، ويفسدون في الأرض بالأعمى.

٦- البشارة بجنان عدن للمتّقين ، والإنذار بالنّار لناقضي العهد المفسدين في الأرض.

٧- بيان مهمّة الرّسول وهي الدّعوة إلى عبادة اللّه وحده ، وعدم الشّرك به ، وتحذيره من مجاملة المشركين في دعوتهم.

٨- الرّسل بشر كغيرهم من النّاس ، لهم أزواج وذريّة ، وليست المعجزات رهن مشيئتهم ، وإنما هي بإذن اللّه تعالى ، ومهمّتهم مقصورة على التّبليغ ، أما الجزاء فإلى اللّه تعالى.

٩- إثبات ظاهرة التّغير في الدّنيا ، مع ثبوت الأصل العام لمقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

١٠- الاعلام بأن الأرض ليست كاملة التّكوير ، وإنما هي بيضاوية ناقصة في أحد جوانبها : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها.

١١- إحباط مكر الكافرين بأنبيائهم في كلّ زمان.

١٢- ختمت السّورة بشهادة اللّه لرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم بالنّبوة والرّسالة ، وكذا شهادة المؤمنين من أهل الكتاب بوجود أمارات النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم في كتبهم. وكان في السّورة بيان مدى فرح هؤلاء بما ينزل من القرآن مصدّقا لما عرفوه من اكتب الإلهية.

القرآن حق [سورة الرعد (١٣) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١)

ج ١٣ ، ص : ٩٩

الإعراب :

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ مبتدأ وخبر.

وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ الْحَقُّ : مبتدأ مؤخّر ، وَالَّذِي أُنْزِلَ خبر مقدّم ، ويجوز أن يكون الَّذِي مبتدا وخبره الْحَقُّ. ويجوز أن يكون وَالَّذِي في موضع جر عطفا على الْكِتابِ أو وصفا للكتاب ، والواو زائدة.

البلاغة :

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ إشارة بالبعيد عن القريب ، للدّلالة على علوّ شأن الكتاب. وأل في الْكِتابِ للتّفخيم والتّعظيم ، أي الكتاب الكامل في بيانه ، السّامي في إعجازه.

المفردات اللغوية :

المر البدء بهذه الحروف الهجائية المقطّعة للتّنبيه على إعجاز القرآن الكريم وبيان أن نزوله من عند اللّه حق لا شكّ فيه ، بالرّغم من كونه بلغة العرب ويتكون من حروف الكلمات التّي ينطقون بها.

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ أي هذه الآيات آيات القرآن ، والإضافة بمعنى من ، أو أن الكتاب بمعنى السّورة ، وتلك إشارة إلى آياتها ، أي تلك الآيات آيات السّورة الكاملة. وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ أي القرآن المنزل إليك من ربّك عطف عام على خاص ، أو عطف صفة على صفة ، أو مبتدأ ، وخبره الْحَقُّ. الْحَقُّ لا شكّ فيه ، والجملة كالحجّة على الجملة الأولى ، وتعريف الْحَقُّ أعمّ من أن يكون المنزل صريحا أو ضمنا كالمثبت بالقياس وغيره مما أقرّ القرآن بحسن اتّباعه.

وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إما أهل مكّة ، أو على العموم. لا يُؤْمِنُونَ بأنه من عند اللّه لإخلالهم بالنّظر والتّأمل فيه.

المناسبة :

بعد أن وصف اللّه تعالى القرآن في آخر سورة يوسف بخمس صفات ، أصاف هنا صفة أخرى وهي كونه حقّا من عند اللّه تعالى.

التّفسير والبيان :

آيات هذه السّورة آيات القرآن البالغ حدّ الكمال ، أو تلك الآيات العظام القدر والشّأن آيات الكتاب وهو القرآن الكريم.

ج ١٣ ، ص : ١٠٠

و كلّ القرآن الذي أنزل إليك يا محمد من ربّك حقّ لا شكّ فيه ، وهو على التّفسير الأول بأن الآيات هي السّورة إجمال بعد تفصيل ، أو عموم بعد خصوص ، فبعد أن أثبت تعالى لهذه السّورة وصف الكمال والرّفعة ، عمم هذا الحكم على القرآن جميعه.

ولكن أكثر النّاس لا يصدقون بالمنزل إليك من ربّك ، ولا يقدرون ما في القرآن من سمو التّشريع والأحكام ورعاية المصالح المناسبة لكلّ عصر وزمان.

و هذا كقوله تعالى في سورة يوسف : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَلَوْ حَرَصْتَ ، بِمُؤْمِنِينَ [١٠٣] ، أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشّقاق والنّفاق والعناد.

وإذا كان واقع البشريّة اليوم أن أكثر سكان العالم لا يؤمنون بالقرآن الكريم ، وأن المسلمين بالنسبة لغيرهم هم الخمس ، فيكون ذلك معجزة للقرآن الكريم الذي أخبر عن حال أكثر النّاس في الماضي كأهل مكة ، وفي مسيرة التّاريخ ، وفي الوقت الحاضر والمستقبل.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآية على أنّ آيات القرآن بالغة حدّ الكمال في الإعجاز والبيان ، وأن القرآن الكريم حقّ منزل من عند اللّه تعالى لا شكّ فيه ولا ريب ، باق على وجه الدهر ، ولكن مع الأسف حجب العناد والكفر كثيرا من النّاس عن الإيمان بما جاء فيه من حكم بالغة ، وأحكام رصينة ، وتشريعات محكمة. وهذا ليس إقرارا لهم ، وإنما هو على سبيل الزّجر والتّهديد.

وقد تمسّك نفاة القياس بهذه الآية ، وقالوا : الحكم المستنبط بالقياس غير نازل من عند اللّه تعالى ، فهو ليس حقّا ، لأنه لا حقّ إلا ما أنزله اللّه تعالى.

ج ١٣ ، ص : ١٠١

و مثبتو القياس أجابوا عن ذلك بأن الحكم الثابت بالقياس نازل أيضا من عند اللّه تعالى ، لأنه تعالى لما أمر بالعمل بالقياس ، كان الحكم الذي دلّ عليه القياس نازلا من عند اللّه تعالى. وقد بيّنا أن تعريف كلمة الْحَقُّ وإن دلّ على اختصاص المنزل بكونه حقّا ، فهو أعمّ من المنزل صريحا أو ضمنا ، كالمثبت بالقياس وغيره ، مما نطق المنزل بحسن اتّباعه.

بعض مظاهر قدرة اللّه في السّموات والأرض [سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢ الى ٤]

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

الإعراب :

بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها الباء متعلّقة برفع ، أو ب تَرَوْنَها. وتَرَوْنَها جملة فعلية في موضع نصب على الحال من السَّماواتِ ، أي أنه ليس ثم عمد البتة ، ويجوز أن تكون في موضع جر لأنها صفة ل عَمَدٍ أي أن ثمّ عمدا ، ولكن لا ترى.

وَزَرْعٌ معطوف على جَنَّاتٌ ، وتقديره : وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات

ج ١٣ ، ص : ١٠٢

و زرع ونخيل صنوان مجتمعة من أصل واحد ، وَغَيْرُ صِنْوانٍ غير مجتمعة من أصل واحد ، وعلى قراءة الجرّ. وَزَرْعٌ معطوف على أَعْنابٍ ، فتجعل الجنّات من الزّرع ، وهو قليل.

البلاغة :

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ شبّه إزالة نور النّهار بظلمة الليل بالغطاء الكثيف ، واستعار لفظ يُغْشِي من الغطاء الحسي للأمور المعنوية.

المفردات اللغوية :

عَمَدٍ جمع عماد ، وهو الأسطوانة ، والآية تحتمل ألا عمد أصلا ، أو هناك عمد غير مرئية.

(٩٨/١٣)

اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ استواء يليق به ، أو المراد منه المجاز ، أي بالحفظ والتّدبير. وَسَخَّرَ ذلّل بالحركة المستمرة والسّرعة المعينة ونحو ذلك. كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى كل منهما يسير في فلكه إلى يوم القيامة. يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يصرف الأمر على وجه الحكمة. يُفَصِّلُ الْآياتِ يبين دلالات قدرته ، وهي الأدلة التّي تقدم ذكرها من الشّمس والقمر. لَعَلَّكُمْ يا أهل مكة وأمثالكم.

بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ أي لتوقنوا وتتحققوا كمال قدرته بالبعث ، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء. واليقين : العلم الثابت الذي لا شكّ فيه.

مَدَّ الْأَرْضَ بسطها طولا وعرضا ليتمكّن الإنسان والحيوان من السّير عليها والانتفاع بمنافعها. وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وخلق فيها جبالا ثوابت. وَأَنْهاراً عطفها على الجبال مباشرة لأنها أسباب تولدها ونبعها. وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ متعلّق بقوله تعالى : جَعَلَ فِيها. زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أي جعل فيها من جميع أنواع الثّمرات صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والذكر والأنثى.

يُغْشِي يغطي الليل بظلمته ضوء النّهار فيطمسه ، ويصير الجو مظلما بعد ما كان مضيئا. إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور. لَآياتٍ دلالات على وحدانية اللّه تعالى. لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ في تلك الآيات وفي صنع اللّه تعالى ، فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم ، دبّر أمرها ، وهيأ أسبابها.

قِطَعٌ أي بقاع مختلفة. مُتَجاوِراتٌ متلاصقات ، فمنها طيب ومنها سبخ ، ومنها رخو ومنها صلب ، وبعضها صالح للزّرع دون الشّجر وبعضها بالعكس ، وذلك التّخصيص مع التّجاور والطّبيعة الأرضيّة من دلائل قدرة اللّه تعالى. وَجَنَّاتٌ بساتين.

(٩٩/١٣)

صِنْوانٌ جمع صنو ، أي ونخلات يجمعها أصل واحد ، وتتشعّب فروعها. وَغَيْرُ صِنْوانٍ آي ومتفرّقات مختلفة الأصول ، و

في الحديث الذي أخرجه التّرمذي « عمّ الرّجل صنو
ج ١٣ ، ص : ١٠٣
أبيه » .
يُسْقى أي الجنّات وما فيها. الْأُكُلِ ما يؤكل ، فمنها الحلو ومنها الحامض ، ومنها التّمر ومنها الحبّ ، وغير ذلك من الاختلاف شكلا وقدرا ورائحة وطعما ، وهو من دلائل قدرته تعالى إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور لَآياتٍ لدلالات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يتدبّرون ويستعملون عقولهم بالتفكّر.
المناسبة :
بعد أن ذكر اللّه تعالى أن أكثر النّاس لا يؤمنون ، أعقبه ببيان ما يدلّ على التّوحيد والمعاد ، بالاستدلال بأحوال السّموات وأحوال الشّمس والقمر ، وبأحوال الأرض : جبالها وأنهارها ، وبأحوال النّبات من زروع وثمار وأشجار مختلفة الطّعوم والرّوائح والألوان.
وبعد أن بيّن اللّه تعالى أن القرآن حقّ ، بيّن أن من أنزله قادر على الكمال ، فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته.
التّفسير والبيان :
يخبر اللّه تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه : أنه الذي خلق السّموات بغير أعمدة ، لا نشاهدها بالعين ، فهي لا عمد لها أصلا ، وقوله : تَرَوْنَها مؤكد معنى كونها بغير عمد ، لأنالمراد إثبات وجود اللّه تعالى وقدرته ، فلو كان لها أعمدة ، فلا يكون في الآية دلالة على وجود اللّه تعالى ، فهي تقوم بقدرة اللّه تعالى وحفظه وتدبيره ، وتقوم في الفضاء بإبقائه تعالى ، حتى ولو قيل بتوازن قانون الجاذبية بين النّجوم والكواكب ، فإن ذلك بخلق اللّه تعالى.
ثم استوى اللّه تعالى على عرشه استواء يليق به ، والعرش شيء مخلوق ، نؤمن به كما أخبر القرآن ، وهو أعظم من السّموات والأرض ،

(١٠٠/١٣)

جاء في الحديث : « ما السّموات السّبع وما فيهنّ وما بينهنّ في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة »
، و
في رواية : « و العرش لا يقدر قدره إلا اللّه عزّ وجلّ » .
ج ١٣ ، ص : ١٠٤
و سخّر الشّمس والقمر ، أي ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع خلقه ، من دوران وضياء ،

وظهور واختفاء ، جاء في آيات أخرى ما يبيّن دورة الشّمس حول نفسها ، وحركة القمر حول الأرض ، فقال تعالى : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس ٣٦/ ٣٨- ٤٠].

وكلّ من الشّمس والقمر وغيرهما من الكواكب السّيارة يجري لأجل مسمّى ، أي لمدة معيّنة هي نهاية الدّنيا ومجيء القيامة ، أو لمدة محددة يتمّ فيها دورانه ، فالشّمس تتمّ دورتها في سنة ، والقمر يتمّ دورته في شهر.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أي إنّ اللّه تعالى يدبّر أمر الكون ويصرفه على وفق إرادته ومقتضى حكمته ، فيحيي ويميت ، ويعزّ ويذلّ ، ويغني ويفقر ، ويهيء الأسباب للنّتائج والمسببات ، ويسيّر الأفلاك في نظام دقيق ثابت لا يخطئ ولا يتغيّر.

يُفَصِّلُ الْآياتِ أي يبيّن الدّلائل الدّالّة على وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته.

(١٠١/١٣)

لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ أي يوضح الآيات والدّلالات الدّالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه قادر على أن يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه أولّ مرة ، رجاء أن تتيقّنوا وتتحقّقوا ، أو لتعلموا علم اليقين القاطع الذي لا شكّ فيه أنّ اللّه قادر على البعث والإعادة ، والحساب والجزاء ، وإحياء الموتى من القبور في أي مكان دفنوا في البرّ أو البحر أو في أجواف الحيوان.

فالذي قدر على خلق السّموات والأرض وما بينهما وما فيهما ، ودبّر نظام الكون والحياة وأمور الخلق بدقة فائقة ، لا يبعد عليه ولا يعجزه البعث الجديد ، وإعادة الأرواح إلى أجسادها ، ثم حساب أصحابها على ما قدّموا في دار الدّنيا.

ج ١٣ ، ص : ١٠٥

هذه هي الأدلّة السّماوية على وحدانية اللّه تعالى وكمال قدرته ، أتبعها بالأدلّة الأرضيّة ، وهي : وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ أي واللّه تعالى هو الذي جعل الأرض متّسعة ، منبسطة للحياة ، ممتدة في الطول والعرض ، ليتمكّن الإنسان والحيوان من التّنقل فيها بسهولة ، والانتفاع بخيراتها النّباتية والمعدنية كقوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً [النّبأ ٧٨/ ٦]. ولا يمنع انبساط الأرض للحياة في أجزائها أنها غير كروية أو مسطّحة في حجمها الكلي ، فقد أشار القرآن الكريم لكرويتها في آيات أخرى منها : يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ [الزّمر ٣٩/ ٥] والتّكوير : اللف على الجسم المستدير ، فهي مبسوطة ممدودة في نظرنا لنعيش عليها.

وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ، لسقاية ما فيها من الثّمرات المختلفة الألوان والأشكال والطّعوم والرّوائح.

(١٠٢/١٣)

و جعل فيها من كلّ صنف من أصناف الثّمار زوجين اثنين أي ذكرا وأنثى ، فالشّجر والزّرع لا ينتجان الثّمر والحبّ إلا من عضوين : ذكر وأنثى ، وجعل أيضا من كلّ ثمر صنفين ، إما من حيث الطّعم كالحلو والحامض ، أو من حيث اللون كالأسود والأبيض ، أو الطّبيعة كالحار والبارد.
ونظير الآية قوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً ، وَالْجِبالَ أَوْتاداً ، وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً [النّبأ ٧٨/ ٦- ٨].
يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أي يغطي اللّه ضوء النّهار بظلمة الليل ، ويطرد ظلام الليل بنور النّهار ، كما قال تعالى : وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً ، وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً [النّبأ ٧٨/ ٩- ١١] ، وقال تعالى : أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً [النّمل ٢٧/ ٨٦] ، وقال تعالى : وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ [الرّوم ٣٠/ ٢٣].
ج ١٣ ، ص : ١٠٦
ثم نبّه اللّه تعالى في ختام الآية إلى وجوب التّفكّر في تلك الآيات السّماوية والأرضية ، فقال : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أي إن في مخلوقات اللّه وعجائب خلقه وآلائه وحكمه لدلائل وبراهين لمن يتفكّر فيها ويعتبر بعظمتها ، فيستدلّ بها على وجود اللّه تعالى ، وقدرته ، وكمال علمه ، وإرادته ، مما لا يوجد له مثيل في الكون ، وذلك يستوجب تخصيصه بالعبادة ، والخضوع لسلطانه ، والتّزام أوامره.

(١٠٣/١٣)

و من الآيات الأرضية اختلاف أجزاء الأرض بالطبيعة والماهية ، وهي مع ذلك متجاورة فقال تعالى : وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ .. ، أي وفي الأرض أجزاء يجاور بعضها بعضا ، ويقرب بعضها من بعض ، وهي مع تجاورها مختلفة متغايرة الخواص ، فمنها طيب ينبت ما ينفع النّاس ، ومنها سبخة مالحة لا تنبت شيئا ، ومنها صالح للزّرع دون الشّجر وبالعكس ، ومنها الرّخوة ومنها الصّلبة ، وتختلف ألوان بقاع الأرض ، فهذه تربة حمراء ، وهذه صفراء ، وهذه بيضاء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكلّ متجاورات ، وهي مختلفة الصّفات ، مما يدلّ على وجود الخالق المختار ، الذي لا إله إلا هو ، ولا ربّ سواه.

وفيها بساتين من أعناب ، وزروع متفاوتة من حبوب مختلفة لتوفير غذاء الإنسان والحيوان ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، والصّنوان : ذو الأصول أو الجذوع المجتمعة في منبت واحد كالرّمان والتّين وبعض النّخيل ، وغير الصّنوان :

ما كان على أصل أو جذع واحد كسائر الأشجار.

جاء في الحديث الصّحيح الذي أخرجه التّرمذي أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال لعمر : « أما شعرت أن عمّ الرّجل صنو أبيه » .

وقال البراء رضي اللّه عنه : الصّنوان هي النّخلات في أصل واحد ، وغير لصّنوان : المتفرّقات.

ويظهر التّفاوت العجيب في بقاع الأرض وأصناف النّبات في أن الأرض

ج ١٣ ، ص : ١٠٧

المنبتة لها واحدة ، وتسقى من ماء واحد ، وتتفاوت طعومها ، وتتفاضل مآكلها.

(١٠٤/١٣)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أي إن في هذا التّفاوت مع وجود مصادر التّشابه لأدلّة باهرة على وجود اللّه ووحدانيته ، لقوم يتدبّرون ويفكّرون فيها ، فهذا الاختلاف في أجناس الثّمرات والزّروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها ، حلاوة وحموضة ومرارة وعذوبة وتلوّنا ، وهذا الاختلاف في الأزهار في ألوانها وروائحها وإبداع ورقاتها وزهرها ، مع أنها كلّها تستمد من طبيعة واحدة ، وهو الماء والأرض ، في كلّ ما ذكر آيات لمن كان واعيا ، ومن أعظم الأدلّة على وجود الخالق الفاعل المختار القادر على كلّ شيء ، ومن قدر على الإيجاد والخلق أول مرّة فهو قادر على الإعادة والتّكوين مرّة ثانية ، بل هو أهون عليه.

وختم الآيات الثلاث بما ذكر : لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ دليل على وجوب استخدام النّظر والعقل والفكر ، للتّوصل إلى الاقتناع الذّاتي الحرّ بوجود الخالق ووحدانيته ، وهذا الإعمال للعقل من مقاصد الإسلام ، وفرائض القرآن ، وأصول الدّين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- من لطف اللّه بعباده ورحمته بهم وإرشاده لهم أنه أوضح لهم الأدلّة ، ولفت نظرهم إلى ما يدلّ على وجوده وكمال قدرته ، وعلمه ، وإرادته ، فتخصيص كلّ واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس إلا من اللّه تعالى.

٢- الأدلّة متنوعة : سماوية وأرضية ، فالسّماوية ثلاثة : رفع السّموات بغير أعمدة ، والاستواء على العرش ، وتسخير الشّمس والقمر وتذليلهما وتطويعهما
ج ١٣ ، ص : ١٠٨

(١٠٥/١٣)

لغايات معينة في مدّة معينة لمنافع الخلق ومصالح العباد ما داموا في الدّنيا وحتى تقوم السّاعة ، يدبّر اللّه فيها الأمر ، أي يصرفه على ما يريد بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار ، وإنزال الوحي وبعثة الرّسل وتكليف العباد ، ويبيّن الآيات ، فمن قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة ، لذا قال :
لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وهذا إثبات للألوهيّة والرّبوبية والمعاد يوم القيامة ، فمن كان يمكنه تدبير من فوق العرش إلى ما تحت الثّرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن ، فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن.
وأمّا الأدلة الأرضية فهي ستّة : بسط الأرض بالنّسبة للنّاظر ليمكن العيش عليها ، وتثبيتها بالجبال الرّاسيات الشّامخات ، وإجراء الأنهار وتفجير الينابيع ، وجعل الثّمار ذات وجهين اثنين ، أي من صنفين متعارضين كالذّكر والأنثى ، والحلو والحامض ، والحار والبارد ، والأبيض والأسود ، وتغطية الليل النّهار ، وتبديد ظلمة الليل بضوء النّهار ، وتفاوت ما تنتجه الأرض من حبوب وزروع وثمار وأشجار ، مجتمعة ذات جذوع متعددة من منبت واحد ، ومتفرّقة ذات جذع مستقلّ بكلّ واحدة منها.
فكلّ ما ذكر يدلّ دلالة قطعيّة على أنّ الكلّ بتدبير اللّه الفاعل المؤثر المختار ، لا بالطّبيعة ولا بالصّدفة.
٣- لا يفهم من آية : وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ، وآية : وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها [النّازعات ٧٩/ ٣٠] أنّ الأرض غير كروية ، فقد ثبتت كرويتها بالأدلّة العلمية العقلية والحسيّة ، ودلّت أقمار الفضاء الدّائرة حول الأرض بما لا يقبل أي شكّ أو جدل على أن الأرض كروية ، وقد صرح بكرويتها علماؤنا كالرّازي « ١ » ، فإن المقصود أن كل قطعة من الأرض تشاهد كالسّطح ، وأما مجموعها

---

(١) تفسير الرّازي : ١٩/ ٢- ٣

(١٠٦/١٣)

ج ١٣ ، ص : ١٠٩

و حجمها العظيم فهو كرة بدليل تثبيتها في الآية هنا بالجبال الرّواسي ، وكذلك في آية أخرى : وَالْجِبالَ أَوْتاداً [النّبأ ٧٨/ ٧]. وبدليل تكوير الليل على النّهار ، والنّهار على الليل ، والتّكوير : اللف على الجسم المستدير.

٤- قال القرطبي عن آية وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ : في هذا أدلّ دليل على وحدانيته تعالى وعظم صمديته ، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته فإنه سبحانه نبّه بقوله : يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ على أن ذلك كلّه ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ، وهذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطّبع (الطّبيعة) إذ لو كان ذلك بالماء والتّراب والفاعل له الطّبيعة ، لما وقع الاختلاف « ١ » .

٥- الدّعوة القويّة ، بل الفريضة والإيجاب لإعمال الفكر والعقل ، والاسترشاد بما في الكون من دلائل وعلامات واضحة على وجود اللّه تعالى ، وكمال قدرته ، وعلمه ، ووحدانيته.

٦- قال الحسن البصري في آية : وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ :

المراد بهذه الآية المثل ضربه اللّه تعالى لبني آدم ، أصلهم واحد ، وهم مختلفون في الخير والشّرّ والإيمان والكفر ، كاختلاف الثّمار التي تسقى بماء واحد.

إنكار المشركين البعث واستعجالهم العذاب ومطالبتهم بإنزال آية مادية على النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٥ الى ٧]

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (٧)

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ٢٨١

ج ١٣ ، ص : ١١٠

الإعراب :

فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ خبر مقدم ومبتدأ مؤخر ، ولا بد فيه من تقدير صفة لتمكن المعنى أي فعجب أي عجب أو فعجب غريب.

أَ إِذا عامل « إذا » : فعل مقدر دلّ عليه معنى الكلام ، أي : أنبعث إذا كنا ترابا لأن في قوله : لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ دليلا عليه ، ولا يجوز أن يعمل فيه : كُنَّا لأن « إذا » مضافة إليها ، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف ، ولأنهم لم ينكروا كونهم ترابا ، وإنما أنكروا البعث بعد كونهم ترابا.

وقوله أَإِذا كُنَّا إلى آخر قولهم : إما بدل مرفوع من قَوْلُهُمْ وإما منصوب بالقول.

والاستفهامان : أَإِذا وأَ إِنَّا للتأكيد وشدة الحرص على البيان.

عَلى ظُلْمِهِمْ محله النّصب على الحال.

إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ أَنْتَ : مبتدأ ، وخبره : مُنْذِرٌ.

وهادٍ : معطوف على مُنْذِرٌ ، فتكون اللام في لِكُلِّ متعلقة بمنذر أو بهاد ، وقد فصل بين الواو والمعطوف بالجار والمجرور ، وتقديره : إنما أنت منذر وهاد لكل قوم. ويجوز أن يكون هادٍ مبتدأ ، ولِكُلِّ قَوْمٍ : الخبر ، واللام متعلقة باستقر.

البلاغة :

(١٠٨/١٣)

بين بِالسَّيِّئَةِ والْحَسَنَةِ وبين مُنْذِرٌ وهادٍ طباق.

المفردات اللغوية :

وَإِنْ تَعْجَبْ يا محمد من تكذيب الكفار لك وعبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان.

فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أي فأعجب منه ، أو فعجب غريب أو فحقيق بالعجب تكذيبهم

ج ١٣ ، ص : ١١١

بالبعث وإنكارهم له. والعجب : تغير النّفس واندهاشها حين رؤية ما يستبعد في العادة. أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ هذا استفهام إنكاري ، ينكرون فيه إمكان إعادة الخلق بالبعث ، وفاتهم أن القادر على إنشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على إعادتهم.

الْأَغْلالُ جمع غل : وهو طوق حديدي تشد به اليدان إلى العنق. بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ بالعذاب قبل السّلامة. الْمَثُلاتُ جمع مثلة بوزن سمرة : وهي العقوبة ، أي مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لم يعتبروا بها ، فلا يستهزءوا. وسميت مثلة لما بين العقاب والجريمة من المماثلة ، كما قال تعالى : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها [الشّورى ٤٢/ ٤٠] ومنه سمي عقاب القاتل قصاصا ، لما فيه من المماثلة. مَغْفِرَةٍ الغفر والمغفرة : السّتر ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة. عَلى ظُلْمِهِمْ أي مع ظلمهم ، وإلا لم يترك على ظهرها دابة. لَشَدِيدُ الْعِقابِ لمن عصاه.

لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ هلا أنزل على محمد. آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ آية حسية كقلب عصا موسى حية ، وجعل يده بيضاء

مشعة كالشمس ، وناقة صالح. مُنْذِرٌ مخوف الكافرين ، وليس عليك إتيان الآيات ، والإنذار : التخويف. وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ الهادي : الذي يرشد النّاس إلى الخير والحق والصواب كالأنبياء والحكماء والعلماء ، أي لكل قوم نبي يدعوهم إلى ربهم بما يعطيه إياهم من الآيات ، لا بما يقترحون ، وهو مدعم عادة بمعجزة من جنس ما هو الغالب عليهم.

المناسبة :

أقام اللّه تعالى في الآيات السّابقة الأدلة السّماوية والأرضية على قدرته ، ليثبت للناس أن من كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة ، كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته ، لأن القادر على الأقوى الأكمل ، فإنه قادر بالأولى على الأقل الأضعف : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى [الأحقاف ٤٦/ ٣٣].

ثم حكى هنا إنكار المشركين للبعث والقيامة ، وأتبعه بحكاية حماقة أخرى وهي استعجالهم العذاب ، وأردفه بطلباتهم إنزال آيات حسية للتعجيز.

التفسير والبيان :

وإن تعجب أيها الرّسول من تكذيب هؤلاء المشركين لك ، وعبادتهم

ج ١٣ ، ص : ١١٢

ما لا يضر وما لا ينفع من الأصنام ، مع ما يشاهدونه من آيات اللّه تعالى ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع اعترافهم من أنه ابتدأ خلق الأشياء ، فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ، إن تعجب من ذلك ، فالأعجب منه والأغرب تكذيبهم بالبعث والقيامة ، وقولهم : هل تمكن الإعادة بعد الفناء والبلى والصيرورة ترابا ؟ وقد تكرر منهم هذا الاستفهام الإنكاري في أحد عشر موضعا ، في تسع سور من القرآن : في الرعد ، والإسراء ، والمؤمنون ، والنّحل ، والعنكبوت ، والسّجدة ، والصافات ، والواقعة ، والنّازعات.

مع أن كل عالم وعاقل يعلم أن خلق السّموات والأرض أكبر من خلق النّاس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل ، كما قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ، بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الأحقاف ٤٦/ ٣٣].

ثم حكم اللّه تعالى حكمه عليهم بأحكام ثلاثة بقوله : أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أي أولئك الكافرون الذين جحدوا بربهم ، وكذبوا رسوله ، وتمادوا في عنادهم وضلالهم لأن إنكار قدرة اللّه تعالى إنكار له. وهذا يدل على أن كل من أنكر البعث والقيامة ، فهو كافر.

وأولئك المقيدون بالسلاسل والأغلال يسحبون بها ، قال أبو حيان :

والظاهر أن الأغلال تكون حقيقية في أعناقهم كالأغلال « ١ » ، كما قال : إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ ، وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ [غافر ٤٠/ ٧١] وهذا حقيقة ، وحمل الكلام على الحقيقة أولى.

وهم أصحاب النّار الخالدون فيها في الآخرة بقوله : وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ ..

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ٣٦٦

ج ١٣ ، ص : ١١٣

أي وأولئك أهل النّار الملازمون لها ، المستحقون دخولها ، الماكثون فيها أبدا لا يحولون عنها ولا يزولون بسبب كفرهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول : كَلَّا ، بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ [المطففين ٨٣/ ١٤] والمراد بذلك التهديد بالعذاب المخلد المؤبد. وهذا يدل على أن العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية.

ولم يقتصر تكذيبهم الرسول على إنكار عذاب الآخرة ، وإنما أنكروا أيضا عذاب الدّنيا ، فقال تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ أي ويستعجلك هؤلاء المكذبون بالعقوبة قبل السّلامة منها والعافية من بلائها ، كما قال تعالى : سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ [المعارج ٧٠/ ١] وقال : وَإِذْ قالُوا : اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ [الأنفال ٨/ ٣٢] وقال :

وَقالُوا : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ [ص ٣٨/ ١٦] أي عجّل لنا عقابنا وحسابنا.

وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ، وبعبارة أخرى : ويستعجلونك بالعقاب مستهزئين بإنذارك ، والحال أنه قد مضت العقوبات النّازلة على أمثالهم من المكذبين ، كالرجفة والخسف والطوفان ونحوها.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ .. أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس على ذنوبهم ، مع أنهم يظلمون ، ويخطئون باللّيل والنّهار ، ولولا حلمه وعفوه لعجل لهم العذاب فور ارتكاب الذنب ، كما قال : وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ، ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ [فاطر ٣٥/ ٤٥] وقال : وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا ، لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا [الكهف

.[٥٨ /١٨

ج ١٣ ، ص : ١١٤

و الخلاصة : إن اللّه يغفر للنّاس مع ظلمهم أنفسهم باكتساب الذنوب ، أي ظالمين أنفسهم ، قال ابن عباس : ليس في القرآن آية أرجى من هذه.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ أي وإنه تعالى شديد العقاب للعصاة.

ويلاحظ أنه تعالى قرن حكم المغفرة والرحمة بأنه شديد العقاب ، كما هو شأن القرآن كثيرا ، ليعتدل الرجاء والخوف ، وليكون الإنسان بين الأمل والحذر ، كما قال تعالى : فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ [الأنعام ٦/ ١٤٧] وقال : نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ [الحجر ١٥/ ٤٩- ٥٠] وقال : إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [الأعراف ٧/ ١٦٧] ونحو ذلك من الآيات التي تجمع بين الرجاء والخوف.

(١١٢/١٣)

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيّب قال : لما نزلت هذه الآية : وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ الآية ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لولا عفو اللّه ورحمته وتجاوزه ، ما هنأ أحدا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتّكل كل أحد » .

ثم ذكر اللّه تعالى ما طالب به المشركون النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم من معجزة حسية كالأنبياء السّابقين بقصد التعجيز والإصرار على الكفر والطعن في النّبوة والتشكيك في صحتها فقال : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. أي يقول المشركون كفرا وعنادا :

لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون ، مثل عصا موسى ، وناقة صالح ، ومائدة عيسى ، فيجعل لنا الصفا ذهبا ، وأن يزيح عنا الجبال ، ويجعل مكانها مروجا وأنهارا.

فرد اللّه عليهم الشّبهة بآية أخرى : وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ [الإسراء ١٧/ ٥٩] أي نخشى تطبيق العقاب على المكذبين ، فإن

ج ١٣ ، ص : ١١٥

سنتنا أن من لم يؤمن بالآيات المنزلة بعد طلبها ، أهلكناهم ودمرناهم بذنوبهم.

وهنا أعرض البيان عن الجواب عن قول المشركين ، إلى توضيح مهمة الرسول التي أرسل بها وهي الهداية والإنذار ، لا تلبية الطلبات ، فقال تعالى : إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ أي إنما أنت رسول عليك أن تبلغ رسالة اللّه التي أمرك بها ، وأما الآيات فأمرها إلى اللّه ، كما قال تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ [البقرة ٢/ ٢٧٢].

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ أي ولكل أمة أو قوم داع من الأنبياء ، يدعوهم إلى اللّه عز وجل وإلى الدّين الحق ، وسبيل الخير والرشاد ، كما في آية أخرى :
وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ [فاطر ٣٥/ ٢٤].

(١١٣/١٣)

و يصح أن يكون هادٍ معطوفا على مُنْذِرٌ وفصل بينهما بقوله لِكُلِّ قَوْمٍ أي أنت منذر وهاد لكل قوم ، وبه قال عكرمة وأبو الضحى.
والخلاصة : إن الآية نزلت في المشركين والكفار الذين لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر ، وانقياد الشّجر ، وانقلاب العصا سيفا ، ونبع الماء من بين الأصابع ، وأمثال هذه ، فاقترحوا عنادا آيات ، كالمذكورة في الإسراء والفرقان كتفجير الينبوع والرقي في السّماء والملك والكنز ، فقال اللّه لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم :
إنما أنت منذر تخوفهم من سوء العاقبة ، وناصح كغيرك من الرسل ، ليس لك الإتيان بما اقترحوا ، فالاقتراح إنما هو عناد ، ولم ينزل الآيات إلا إذا تحتم العذاب والاستئصال « ١ » .
فقه الحياة أو الأحكام :
يفهم من الآيات ما يأتي :
١- إنكار البعث والقيامة مدعاة للعجب الشّديد ، واللّه تعالى لا يتعجب ،

---

(١) البحر المحيط : ٥/ ٣٦٧
ج ١٣ ، ص : ١١٦
و لا يجوز عليه التعجب لأنه تغير في النّفس بما تخفى أسبابه ، وإنما ذكر تعالى ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون.
٢- من أنكر البعث والقيامة ، فهو كافر ، لإنكاره القدرة الإلهية والعلم والصدق في الخبر ، ويساق إلى جهنم بالأغلال والسّلاسل ، وهو خالد في النّار.
فهذه أوصاف ثلاثة لمنكري البعث : أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ ، وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.
٣- العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية : هُمْ فِيها خالِدُونَ أي هم الموصوفون بالخلود لا غيرهم ، أما أهل الكبائر من المسلمين الذين يرتكبون الجرائم العظام ، كالقتل وشهادة الزور وعقوق الوالدين ، فلا يخلدون في النّار.

٤- طلب المشركين إنزال العقوبة لفرط إنكارهم وتكذيبهم نوع من الطيش والحماقة ، وكفاهم الاعتبار بعقوبات أمثالهم المكذبين ، فالمثلات أي العقوبات كثيرة. وقد تبين من هذه الآية : أن عذاب الاستئصال لا ينزل بهم إلا بالإصرار على الكفر والمعاصي.

٥- حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة.

٦- إن اللّه تعالى لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المذنبين إذا تابوا ، وقد يعفو تعالى عن صاحب الكبيرة قبل التوبة في رأي أهل السّنة ، لأن قوله تعالى عَلى ظُلْمِهِمْ أي حال اشتغالهم بالظلم ، وحال الاشتغال بالظلم لا يكون المرء فيها تائبا.

قال ابن عباس : أرجى آية في كتاب اللّه تعالى : وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ.

٧- وإن اللّه أيضا شديد العقاب للكافرين إذا أصروا على الكفر.

ج ١٣ ، ص : ١١٧

٨- ليست مهمة النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم تلبية طلبات المشركين واقتراحاتهم ، إنما مهمته الإنذار ، أي التعليم ، فهو منذر لقومه مبين لهم ، ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع.

٩- لكل قوم هاد ، أي نبي يدعوهم إلى اللّه. وقيل : الهادي اللّه أي عليك الإنذار ، واللّه هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

١٠- اجتمع من المشركين كما تحكي هذه الآية ثلاثة طعون : وهي أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنّشر ، ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة.

وسبب كل هذه الطعون : أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات ، وقالوا : هذا كتاب مثل سائر الكتب. والإتيان بكتاب معين ، لا يكون معجزا البتة ، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السّلام ، كفلق البحر بالعصا ، وقلب العصا ثعبانا.

و لا تعني هذه الآية أنه لم تظهر معجزة تصدق النّبي عليه الصلاة والسّلام سوى القرآن ، ولعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات ، أو أنهم طلبوا منه معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها منه صلّى اللّه عليه وسلّم كحنين الجذع ، وانشقاق القمر ، ونبوع الماء من بين أصابعه ، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل.

ويظل القرآن هو المعجزة الكبرى للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فهو المناسب لزمنه ، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السّلام هو السّحر ، جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم ، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السّلام الطب ، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة ، وهو إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه (الأعمى الذي ولد فاقد البصر) والأبرص ، ولما كان الغالب في أيام الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم الفصاحة

ج ١٣ ، ص : ١١٨

و البلاغة ، جعل معجزته ما كان لائقا بذلك الزمان ، وهو فصاحة القرآن.

فإذا لم يؤمن العرب بهذه المعجزة ، مع كونها أليق بطباعهم ، فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى.

بعض مظاهر علم اللّه المحيط بكل شيء [سورة الرعد (١(٣) : الآيات ٨ الى ١١]

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (٨) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (٩) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (١١)

الإعراب :

اللَّهُ يَعْلَمُ ما ما هنا وفي بقية الآية : اسم موصول ، مفعول يَعْلَمُ والجمل الفعلية التي بعدها هي الصلات ، والعائد منها كلها محذوف. ويجوز أن تكون ما استفهامية منصوبة بيعلم. ويجوز أن تكون ما مصدرية.

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ من : مبتدأ مرفوع ، وسَواءٌ : خبر مقدم ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ، فهو مستو.

وَإِذا أَرادَ اللَّهُ العامل في إذا ما دل عليه الجواب.

ج ١٣ ، ص : ١١٩

البلاغة :

يوجد طباق في تَغِيضُ وتَزْدادُ وفي الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وفي أَسَرَّ وجَهَرَ وفي بِاللَّيْلِ وبِالنَّهارِ وفي مُسْتَخْفٍ وسارِبٌ أي ظاهر.

المفردات اللغوية

ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى أي حملها أو ما تحمله من كون الجنين ذكرا أو أنثى ، واحدا أو متعددا ، وصفات

كل ، وغير ذلك تَغِيضُ تنقص من زمن أو جسم. وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ أي وما تنقصه وما تزداده من الجثة والمدة والعدد. بِمِقْدارٍ بقدر واحد لا يتجاوزه ولا ينقص عنه ، كقوله تعالى : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ [القمر ٥٤/ ٤٩] فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين ، وهيأ له أسبابا مسوقة إليه ، تقتضي ذلك.

عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ ما غاب ، وما حضر أو شوهد. والغائب : ما غاب عن الحس ، والشّاهد : الحاضر المشاهد. الْكَبِيرُ العظيم الشّأن. الْمُتَعالِ المستعلي على كل شيء بالقهر أو بقدرته. سَواءٌ مِنْكُمْ أي في علمه تعالى. مُسْتَخْفٍ مستتر. بِاللَّيْلِ بظلامه.

وَسارِبٌ ظاهر بارز بالنهار ، بذهابه في سربه أي طريقه.

(١١٧/١٣)

لَهُ مُعَقِّباتٌ له ملائكة تعتقب في حفظه ورعايته ، أو تتعاقب على كتابة أقو اله وأفعاله ، جمع معقّبة ، من عقّبه : جاء عقبه ، والتاء للمبالغة ، لا للتأنيث ، والمراد : ملائكة يتعاقبون على الإنسان بالليل والنّهار. مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ قدامه. وَمِنْ خَلْفِهِ ورائه أي من جوانبه. مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أي بأمره وإعانته ، أو يحفظونه من بأس اللّه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له ، أو يحفظونه من المضار. لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ من العافية والنّعمة أي لا يسلبهم نعمته. حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة والمعاصي. سَواءٌ عذابا. فَلا مَرَدَّ لَهُ من المعقبات ولا غيرها. وَما لَهُمْ لمن أراد اللّه بهم سوءا. مِنْ دُونِهِ أي غير اللّه. مِنْ والٍ ناصر يمنعه عنهم ، ومِنْ : زائدة ، وهذا دليل على أن خلاف مراده محال.

المناسبة :

بعد أن حكى اللّه سبحانه إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له ، أورد الأدلة على قدرته على ذلك بعلمه المحيط بكل شيء ، فهو يعلم ما في الأجنّة التي في البطون ، ويعلم الغائب عنا والمشاهد لنا ، ويعلم السّر وأخفى ، ويعلم جميع أجزاء الإنسان

ج ١٣ ، ص : ١٢٠

المتناثرة ومواضعها في البر والبحر وأجواف الحيوان ، فيعيدها مرة أخرى.

وبعد أن حكى عن المشركين أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، بيّن أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، فيعلم من حالهم أنهم : هل طلبوا الآية الأخرى للاسترشاد ، أو لأجل التعنت والعناد ؟ وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات ، أو يزداد إصرارهم على الكفر واستكبارهم ؟

.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، فهو يعلم بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، أهو ذكر أو أنثى ، واحد أو متعدد ، حسن أو قبيح ، ذو خصائص وأوصاف ، طويل العمر أو قصيره ، كما قال تعالى : وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ [لقمان ٣١/ ٣٤] وقال : هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ [النجم ٥٣/ ٣٢] وقال : يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ [الزمر ٣٩/ ٦].

وإذا أمكن معرفة نوع الجنين علميا بالتحليل مثلا من كونه ذكرا أو أنثى ، فلا يكون ذلك معارضا الآية ، لأن علم اللّه لا ينحصر به ، وإنما علمه واسع محيط بكل شيء من الخواص والصفات الأخرى.

وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ أي واللّه يعلم ما تنقصه الأرحام وما تزداده من الجثة (سقطا أو تماما) والمدة (أقل من تسعة أشهر أو تسعة أو أكثر إلى عشرة) والعدد (واحدا أو متعددا) والدم (إراقة حتى يخسّ الولد ، وعدم إراقة حتى يتم الولد ويعظم).

والإحصاء العلمي دل على أن الجنين لا يزيد بقاؤه في بطن أمه عن ٣٠٥ أو ٣٠٨ أيام ، وهناك رأي في المذهب المالكي أن عدة المطلقة سنة قمرية (٣٥٤ يوما).

ج ١٣ ، ص : ١٢١

و أما ما يذكر في المذاهب لأقصى مدة الحمل (أربع سنين عند الشافعية والحنابلة ، وخمس سنين عند المالكية ، وسنتان عند أبي حنيفة) فمستنده الاستقراء وأخبار الناس ، والناس قد يخطئون أو يتوهمون وجود الحمل في فترة زمنية ما ، وليس في ذلك أي نص شرعي ثابت.

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ أي وكل شيء عنده تعالى بأجل معين ، أو بقدر واحد ، لا يزيد عنه ولا ينقص ، كقوله : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ [القمر ٥٤/ ٤٩]. و

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الجماعة عن أسامة بن زيد : أن إحدى بنات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعثت إليه أن ابنا لها في الموت ، وأنها تحب أن يحضره ، فبعث إليها يقول : « إن للّه ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمروها فلتصبر ولتحتسب » .

عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي يعلم كل شيء غائب عن العباد لا تدركه أبصارهم ، ومشاهد لهم مرئي ، ولا يخفى عليه منه شيء ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، المتعال على كل شيء ، قد أحاط بكل شيء علما ، أي شمل علمه كل شيء ، وقهر كل شيء ، فخضعت له الرقاب ، ودان له العباد طوعا

وكرها.

ويلاحظ أن هذه الآية استوفت بيان كمال علم اللّه تعالى ، ففي مطلع الآية الذي هو كلام مستأنف أوضح تعالى أنه عالم بالجزئيات والمفردات ، ثم ذكر أنه عالم بمقادير الأشياء وحدودها لا تتجاوزها ولا تقتصر عليها ، وخصص كل حادث بوقته بعينه وبحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية ، ثم أضاف أنه عالم بأشياء خفية لا يعلمها إلا هو ، وهي أشياء جزئية من خفايا علمه ، فهو يعلم الباطن والظاهر ، والغائب : وهو ما غاب عن الحس ، والشاهد : وهو ما حضر للحس ، ثم ذكر أن علمه محيط بجميع الأشياء ، لا فرق فيه بين الخفي السرّ أو الظاهر المعلن فقال : سَواءٌ مِنْكُمْ .. أي أنه تعالى محيط علمه بجميع خلقه ، وأنه سواء منهم من أسرّ قوله وأخفاه أو جهر به وأعلنه ، فإنه يسمعه لا يخفى عليه

ج ١٣ ، ص : ١٢٢

شيء ، كما قال : وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى [طه ٢٠/ ٧] وقال : وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ [النمل ٢٧/ ٢٥].

(١٢٠/١٣)

و قالت عائشة رضي اللّه عنها : سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، واللّه لقد جاءت المجادلة ، تشتكي زوجها إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنا في جنب البيت ، وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها ، فأنزل اللّه : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها ، وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ [المجادلة ٥٨/ ١].

وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ أي يعلم أيضا ما هو مختف في قعر بيته في ظلام الليل ، والتنصيص على هذه الحالة تنبيه على رقابة اللّه في كل مكان قد يظن صاحبه أنه بتواريه عن أنظار الناس ، لا يطلع عليه أحد.

وَسارِبٌ بِالنَّهارِ أي ظاهر ماش في ضوء النهار ، فإن كلاهما في علم اللّه على السواء ، كقوله تعالى : وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ ، وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ، وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ ، وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ ، وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ [يونس ١٠/ ٦١].

ثم ذكر اللّه تعالى وسيلة إثبات المعلومات وخزائن المعارف والوقائع لمواجهة أصحابها بها مع علمه تعالى بكل شيء ، وهي : لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أي للإنسان ملائكة حفظة ، ملائكة في الليل تعقب ملائكة النهار ، وبالعكس فهم يتعاقبون يتعاقبون على حراسته وحفظه من المضار ومراقبة

أحواله ، ويتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والتدوين أو الكتابة ، سواء خيرا أو شرا. فالضمير عائد إلى مِنْ في قوله : سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وقيل : الضمير يعود على اسم اللّه في عالم الغيب والشهادة.

ج ١٣ ، ص : ١٢٣

(١٢١/١٣)

فلهؤلاء الملائكة الحفظة وظائف ، منها : حفظ الإنسان في الليل والنهار من المضارّ والحوادث بإذن اللّه وأمره ورعايته ، ويقوم به ملائكة معينون وعددهم اثنان يحرسه أحدهما من ورائه والآخر من قدامه ، ومنها حفظ الأعمال من خير أو شر ، ويقوم به ملائكة آخرون ، وهما اثنان عن اليمين والشمال ، يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، كما قال تعالى : عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ. ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق ٥٠/ ١٧- ١٨] فصار مجموع ملائكة كل إنسان أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، وهم حافظان وكاتبان ، كما جاء في الحديث الصحيح عند البخاري : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون »

و

في الحديث الآخر : « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء ، وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكرموهم » .

قال ابن عباس : يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر اللّه خلوا عنه.

ومن علم أن الملائكة الحفظة ترصد عليه أعماله وتحصي أقواله وأفعاله ، تهيّب من مخالفة أوامر ربه ، وكان حذرا من المعاصي ، حتى لا تسجل عليه ، ويفاجأ بها يوم القيامة ، كأنه شريط مسجل من وقت التكليف (البلوغ والعقل) إلى الوفاة.

وقوله يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أي يحفظونه بأمر اللّه وبإذنه ، فحفظهم إياه متسبب عن أمر اللّه لهم بذلك. أو يحفظونه من بأس اللّه ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ، وسؤالهم ربه أن يمهله ، رجاء أن يتوب وينيب ، كقوله : قُلْ : مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ [الأنبياء ٢١/ ٤٢].

(١٢٢/١٣)

ثم بيّن اللّه تعالى مزيد فضله وعدله بأنه لا عقاب بدون جريمة ، فقال :

ج ١٣ ، ص : ١٢٤

إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ .. أي إن اللّه لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية فيزيلها عنهم وينتقم منهم إلا بتغيير ما بأنفسهم بأن يكون منهم الظلم والمعاصي والفساد وارتكاب الشرور والآثام التي تهدم بنية المجتمع وتدمر كيان الأمم.

أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه ، يوشك أن يعمهم اللّه بعقاب » .

وهذا مؤكد للآية : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال ٨/ ٢٥].

وواقع التاريخ الإسلامي في القرون الماضية يدل دلالة واضحة على أن اللّه تعالى لم يغيّر ما كان عليه حال الأمة الإسلامية من عزة ومنعة ، ورفاه واستقلال ، وعلم وتفوق في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، إلا بعد أن غيروا ما بأنفسهم ، فحكموا بغير القرآن ، وأهملوا دينهم ، وتركوا سنة نبيهم ، وقلدوا غيرهم ، وضعفت روابط التعاون بينهم ، وساءت أخلاقهم ، وانتشرت الموبقات بينهم ، وقد وعد اللّه الأرض من يصلحها بقوله : أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ [الأنبياء ٢١/ ١٠٥] أي الصالحون لعمارتها ، وقوله : إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ ، يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [الأعراف ٧/ ١٢٨].

(١٢٣/١٣)

ثم وصف تعالى قدرته المطلقة على العذاب فقال : وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً .. أي وإذا أراد اللّه بقوم سوءا من فقر أو مرض أو احتلال ونحوها من أنواع البلاء ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم ، وما لهم من غير اللّه تعالى ناصر يلي أمورهم ، ويدفع عنهم ، أي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر ، فتلك الآلهة المزعومة لا تستحق الألوهية لعجزها عن فعل شيء نافع أو دفع أذى ضار.

ج ١٣ ، ص : ١٢٥

و هذا يدل على أن اللّه قادر في أي وقت على إيقاع العذاب بالناس ، فليس من العقل والحكمة في شيء استعجالهم ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- إن اللّه تعالى عالم بالجزئيات وبالكليات ، وبالماضي والحاضر والمستقبل ، وبالباطن والظاهر أو السر المخفي والمعلن المجاهر به ، وبالغائب عن مسامعنا وأبصارنا والشاهد الحاضر.

٢- استدل مالك والشافعي بآية : وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ على أن الحامل تحيض ، قال ابن عباس

في تأويلها : إنه حيض الحبالى ، وهو قول عائشة ، وأنها كانت تفتي النساء ، الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة. وقال عطاء والشعبي وغيرهما ، وأبو حنيفة : لا تحيض ، لأنه لو كانت الحامل تحيض ، وكان ما تراه من الدم حيضا ، لما صح استبراء الأمة بحيض ، وهو إجماع ، فتماسك الحيض علامة على شغل الرحم ، واسترساله علامة على براءة الرحم ، فمحال أن يجتمع مع الشغل ، لأنه لا يكون دليلا على البراءة لو اجتمعا.

٣- وفي هذه الآية دليل أيضا على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر ، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر ، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر ، وله أمثال كثيرون. وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة.

(١٢٤/١٣)

و اختلف العلماء في أكثر الحمل ، فقال مالك في المشهور عنه ، خمس سنين ، وقال الشافعي وأحمد : أربع سنين ، وقال أبو حنيفة : سنتان. ولا أصل لهذه المسألة إلا الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أحوال النساء.

ج ١٣ ، ص : ١٢٦

قال ابن العربي : نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر مدة الحمل تسعة أشهر « ١ » .

٤- تخصيص الممكنات بخواص وأوصاف معينة دليل على كمال القدرة الإلهية ، والدليل : وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ أي بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، فكلمة بمقدار تعني عدم النقصان والزيادة ، وقال قتادة : في الرزق والأجل ، والمقدار : القدر ، ويقال : بِمِقْدارٍ : قدر خروج الولد من بطن أمه ، وقدر مكثه في بطنها إلى خروجه. قال القرطبي : وعموم الآية يتناول كل ذلك.

٥- اللّه عالم الغيب والشهادة ، أي هو عالم بما غاب عن الخلق وبما شاهدوه ، فالغيب : مصدر بمعنى الغائب ، والشهادة : مصدر بمعنى الشاهد. وهذا تنبيه على انفراده تعالى بعلم الغيب ، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق ، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد.

واللّه سبحانه الكبير أي الذي كل شيء دونه ، المتعال عما يقول المشركون ، المستعلي على كل شيء بقدرته وقهره.

واللّه تعالى يعلم ما أسرّه الإنسان من خير وشر ، كما يعلم ما جهر به من خير وشر ، ويستوي في علم اللّه المستخفي بالليل والسارب بالنهار ، أي يستوي في علم اللّه السرّ والجهر ، والظاهر في الطرقات ، والمستخفي في الظلمات.

٦- للإنسان بتخصيص اللّه ملائكة أربعة في الليل ، وأربعة في النهار ، حافظان وكاتبان ، وهي تتعاقب

عليه ليلا ونهارا ، وتتعقب أعماله وتتبعها

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٠٩٧

ج ١٣ ، ص : ١٢٧

بالحفظ والكتابة. قال الحسن البصري : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة.

الفجر.

والمراد من قوله مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أي بأمر اللّه وبإذنه ، وتكون مِنْ بمعنى الباء ، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقال الفرّاء : في الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : له معقبات من أمر اللّه ، من بين يديه ومن خلفه يحفظونه.

وفائدة جعل الملائكة موكلين علينا بالحفظ : أنها تدعونا إلى الخيرات والطاعات ، وليكون الإنسان حذرا من المعاصي.

وفائدة كتابة أعمال العباد : قال المتكلمون : الفائدة في تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان إحدى الكفتين على الأخرى ، فإنه إذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق أنه من أهل الجنة ، وإن كان بالضد فبالضد.

٧- لا يغير اللّه ما بقوم حتى يقع منهم تغيير ، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو ممن هو منهم بسبب ، كما غيّر اللّه بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم.

والمراد بالآية عند المفسرين : أنه تعالى لا يغير ما بالناس من النعم بإنزال الانتقال إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد « ١ » .

وهذا المعنى موجّه للجماعة ، أما الفرد فقد يتعرض للمصائب بذنوب الغير ، ولا يشترط أن يتقدم منه ذنب ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد سئل : أنهلك وفينا الصالحون ؟

قال فيما رواه البخاري في المناقب : « نعم إذا كثر الخبث »

أي الفسق والفجور. وقال تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال ٨/ ٢٥].

---

(١) تفسير الرازي : ١٩/ ٢٢

ج ١٣ ، ص : ١٢٨

٨- إذا أراد اللّه بالناس بلاء من أمراض وأسقام ، فلا مرد لبلائه وقيل : إن معنى الآية : إذا أراد اللّه بقوم سوءا ، أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ولا ملجأ ولا ناصر لأحد من مراد اللّه وعذابه.

والأولى تفسير الآية بأنه ليس للبشرية من يلي أمورها غير اللّه ، الذي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر ، أما الآلهة المزعومة من أصنام وأوثان ونحوها فلا تستطيع أو تفعل شيئا ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ [الحج ٢٢/ ٧٣].

مظاهر ألوهية اللّه وربوبيته وقدرته [سورة الرعد (١٣) : الآيات ١٢ الى ١٥]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (١٥)

ج ١٣ ، ص : ١٢٩

الإعراب :

خَوْفاً وَطَمَعاً مفعولان لأجله بتقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع ، أو حال من البرق أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين.

(١٢٧/١٣)

وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الَّذِينَ : اسم موصول ، ويَدْعُونَ : صلته ، وعائده محذوف أي يدعونهم ، كما حذف من قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ [الأعراف ٧/ ١٩٤] أي تدعونهم. كَباسِطِ كَفَّيْهِ الكاف : متعلقة بصفة مصدر محذوف ، أي الاستجابة كاستجابة باسط كفيه ، ويكون على هذا التقدير حرفا فيه ضمير انتقل إليه من : كائنة. ويجوز أن يجعل الكاف اسما ، أي الاستجابة مثل استجابة باسط كفّيه ، ولا يكون في الكاف ضمير. ويجوز الاستثناء من الفعل المصدر والظرف والحال. ولام لِيَبْلُغَ فاهُ متعلقة بباسط.

البلاغة :

يوجد طباق بين خَوْفاً وَطَمَعاً وبين طَوْعاً وَكَرْهاً.

إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ .. تشبيه تمثيلي ، شبه حال الكافرين في دعاء الأصنام بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه بكف مبسوط. أو شبه عدم استجابة الأصنام لمن يدعونها بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بعيد.

المفردات اللغوية :

الْبَرْقَ شرارة ضوئية تظهر في السماء بسبب تصادم الأجرام السماوية خَوْفاً وَطَمَعاً أي من أجل الإخافة من الصواعق ، والطمع في المطر ، وفيها مضاف محذوف ، أي إرادة خوف وطمع ، أو إخافة وإطماعا ، أو حال أي خائفين طامعين ، وإطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. ومعنى الخوف والطمع : أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ، ويطمع في الغيث.

السَّحابَ الغيم المنسحب في الهواء الثِّقالَ بالمطر ، وهو جمع ثقيلة ، وإنما وصف به السحاب ، لأنه اسم جنس في معنى الجمع الرَّعْدُ الصوت المسموع خلال السحاب بسبب احتكاك الأجرام السماوية ، أي أنه ينشأ عن احتراق الهواء بالشرارة ظهور البرق ، الذي يحدث من تصادم سحابتين مختلفتي الشحنة الكهربائية ، ثم ينشأ عن تفريغ جزء من الهواء الذي يحدثه البرق احتكاك الهواء الذي يطرده البرق وظهور الرعد.

(١٢٨/١٣)

الصَّواعِقَ جمع صاعقة وهي التي تحدث بسبب الاحتكاك الكهربائي بين كهربة السحب

ج ١٣ ، ص : ١٣٠

و كهربة الأرض عند تقارب السحب من الأرض ، فتنشأ عنه صاعقة تحرق ما تقع عليه وَهُمْ يُجادِلُونَ أي الكفار يخاصمون النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في اللّه تعالى ، والجدل : شدة الخصومة الْمِحالِ القوة أو الأخذ للأعداء.

لَهُ تعالى دَعْوَةُ الْحَقِّ أي كلمته وهي لا إله إلا اللّه أو الدعاء الحق ، فإنه الذي يحق أن يعبد وَالَّذِينَ يَدْعُونَ يعبدون مِنْ دُونِهِ من غيره وهم الأصنام لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ مما يطلبونه إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ أي إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء على حافة البئر ، يطلب منه أن يبلغه ، ليبلغ فاه بارتفاعه من البئر إليه وَما هُوَ بِبالِغِهِ أي بالغ فاه أبدا ، فكذلك ما هم بمستجيبين لهم وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ أي عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء إِلَّا فِي ضَلالٍ ضياع وخسار وبطلان.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً يحتمل أن يكون السجود على حقيقته ، فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين (الإنس والجن) طوعا حالتي الشدة والرخاء ، ويسجد له الكفار كرها

حالة الشدة والضرورة. والمنافقون من الكفار ، إذ يسجدون كرها. ويحتمل أن يكون المراد : ينقادون لإحداث ما أراده اللّه فيهم من أفعاله ، شاؤوا أو أبوا ، لا يقدرون أن يمتنعوا عليه.
وَظِلالُهُمْ جمع ظل وهو الخيال المقابل للشمس الذي يظهر للشيء المادي القائم أي ويسجد ظلالهم ، أو تنقاد أيضا حيث تخضع لمشيئة اللّه في الامتداد والتقلص والفيء والزوال بِالْغُدُوِّ جمع غداة : وهي أول النهار وَالْآصالِ جمع أصيل : وهو ما بعد العصر إلى المغرب.
سبب النزول : نزول الآية (١(٣) :

(١٢٩/١٣)

وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ : ذكر الرواة سببين لنزول هذه الآية ، أخرج
الطبراني وغيره عن ابن عباس : أن أربد بن قيس وعامر بن الطّفيل قدما المدينة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال عامر : يا محمد : ما تجعل إليّ إن أسلمت ؟ قال : لك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم ، قال : أتجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال : ليس ذلك لك ولا لقومك ، فخرجا ، فقال عامر : إني أشغل عنك وجه محمد بالحديث ، فاضربه بالسيف ، فرجعا ، فقال عامر : يا محمد ، قم معي أكلمك ، فقام معه ، ووقف يكلمه ، وسلّ (أربد) السيف ، فلما وضع يده على قائم
ج ١٣ ، ص : ١٣١
السيف ، يبست ، والتفت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فرآه ، فانصرف عنهما ، فخرجا ، حتى إذا كانا بالرّقم (موضع) أرسل اللّه على أربد صاعقة ، فقتلته ، فأنزل اللّه :
اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى إلى قوله شَدِيدُ الْمِحالِ.
وأما عامر فأرسل الطاعون عليه ، فخرجت فيه غدّة كغدة الجمل ، ومات في بيت سلولية.
و

(١٣٠/١٣)

ذكر الواحدي ما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده والنسائي والبزار عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعث رجلا مرّة إلى رجل من فراعنة العرب ، فقال : اذهب فادعه لي ، فقال : يا رسول اللّه ، إنه أعتى من ذلك ، قال : اذهب فادعه لي ، قال : فذهب إليه ، فقال : يدعوك رسول اللّه ، قال : وما اللّه ، أمن ذهب هو ، أو من فضة أو من نحاس ؟ فرجع إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فأخبره ، وقال : وقد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، فقال : ارجع إليه الثانية فادعه ،

فرجع إليه ، فعاد عليه مثل الكلام الأول ، فرجع إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فأخبره ، فقال : ارجع إليه ، فرجع الثالثة ، فأعاد عليه ذلك الكلام ، فبينا هو يكلمني ، إذ بعثت إليه سحابة حيال رأسه ، فرعدت ، فوقعت منها صاعقة ، فذهبت بقحف رأسه ، فأنزل اللّه تعالى : وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ ، فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ ، وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ « ١ » .

المناسبة :

بعد أن خوّف اللّه تعالى عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا مردّ له ، أتبعه بهذه الآيات المشتملة على أمور ثلاثة ، فهي دلائل على قدرة اللّه تعالى وحكمته ، وتشبه النعم والإحسان حينا ، وتشبه العذاب والقهر والنقمة حينا آخر.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ١٥٦ ، تفسير ابن كثير : ٢/ ٥٠٥ ، تفسير القرطبي : ٩/ ٢٩٦- ٢٩٨ الكشاف : ٢/ ١٦٢

التفسير والبيان :

اللّه تعالى هو الذي يسخر البرق : وهو ما يرى من النور اللامع ساطعا من خلال السحاب ، بسبب تقارب سحابتين مختلفتين في الشحنة الكهربائية ، ويريكم إياه تخويفا ، فيخاف منه المسافر والمزارع الذي جمع حبوبه في البيدر (الجرين) ويحذر عواقبه كل إنسان من خطف البصر ، أو مجيء السيول الجارفة ، وطمعا ، أي يرجو نفع المطر من كان بحاجة إليه لسقي زرعه وشجره وغسل الجو من الأتربة والرمال والدخان والميكروبات. فالناس في الظواهر العامة قسمان : إما فرح طامع بالخير بالنسبة إليه ، وإما متشائم متبرم عابس لما يصيبه من شر أو ضر بالنسبة إليه.

وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ أي واللّه سبحانه هو الذي يوجد السحب المحملة المترعة بالماء ، وهي لكثرة مائها ثقلية قريبة إلى الأرض. قال مجاهد :

السحاب الثقال : الذي فيه الماء.

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ أي أن الرعد بلسان الحال لا بلسان المقال ينزه الخالق عن الشريك والعجز ، ويعلن خضوعه له ، وانقياده لقدرته وحكمته ، كما قال تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [الإسراء ١٧/ ٤٤].

وتسبح الملائكة ربهم وتنزهه عن الصاحبة والولد ، من هيبته وإجلاله.

ويرسل اللّه الصواعق نقمة ، ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر في آخر الزمان ،
روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ، حتى يأتي الرجل القوم ، فيقول : من صعق قبلكم الغداة ، فيقولون : صعق فلان وفلان وفلان » .
ج ١٣ ، ص : ١٣٣
و كل من الرعد والبرق إما بشير خير أو نذير شر ، لذا أمرنا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالدعاء حين رؤيتهما ،

(١٣٢/١٣)

روى البخاري وأحمد عن سالم عن أبيه قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .
ويسن عند رؤية البرق والرعد أن يقول : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ روى مالك في موطئه عن عبد اللّه بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ، ترك الحديث ، وقال : « سبحان الذي يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته » .
وروى أحمد عن أبي هريرة أنه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » . و
روى أبان عن أنس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا تأخذ الصاعقة ذاكرا اللّه عز وجل » .
و
قال أبو هريرة رضي اللّه عنه : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذا سمع صوت الرعد يقول : « سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة ، فعليّ ديته » .
وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وبالرغم من هذه الأدلة الدالة على قدرة اللّه وألوهيته ، يجادل الكفار ويشكون في عظمة اللّه تعالى وأنه لا إله إلا هو ، قال مجاهد : جادل يهودي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وسأله عن اللّه تعالى : من أي شيء هو ؟
وهو سبحانه شديد المحال أي شديد القوة والأخذ ، والمماحلة : وهي شدة المماكرة والمكايدة لأعدائه ، فيدبر لهم الحيلة لإنزال العقاب الشديد بهم من حيث لا يشعرون ، يقال : تمحل لكذا : إذا تكلف استعمال الحيلة ، واجتهد فيه.

(١٣٣/١٣)

و هو القادر على إنزال العذاب من فوقكم ومن تحت أرجلكم : فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [النمل ٢٧/ ٥١] وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود ١١/ ١٠٢].

ج ١٣ ، ص : ١٣٤

و في هذا تسلية للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإنهم لم يقتصروا على إنكار نبوته ، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار الألوهية.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ أي للّه تعالى دعوة الصدق والدعاء والتضرع ، لا لغيره من الأصنام والأوثان والملائكة والبشر الذين اتخذوا آلهة. وقال ابن عباس وقتادة وغيرهما : دعوة الحق : كلمة التوحيد : لا إله إلا اللّه ، أي للّه من خلقه أن يوحّدوه ويخلصوا له.

وذكر في الكشاف وجهان للآية : الأول- إضافة الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل ، أي أن دعوة الإسلام دعوة الحق المختصة به. والثاني- إضافة الدعوة إلى الحق الذي هو اللّه عز وعلا أي أن الدعاء للّه الحق الذي يسمع فيجيب « ١ » .

وهذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في شأن الوعيد بالعقاب الذي هددهم به. قال أبو حيان عن لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ : والذي يظهر أن هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، كقوله : وَلَدارُ الْآخِرَةِ والتقدير : للّه الدعوة الحق ، بخلاف غيره ، فإن دعوتهم باطلة ، والمعنى أن اللّه تعالى ، الدعوة له هي الدعوة الحق ، وهو رد على الكفار في إثبات آلهة مع اللّه ، فمن يدعو اللّه فدعوته هي الحق ، بخلاف أصنامهم التي جادلوا في اللّه لأجلها ، فإن دعاءها باطل لا يتحصل منه شيء ، فقال : وَالَّذِينَ يَدْعُونَ.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ .. أي إن الذين يدعون من دون اللّه الأصنام

)

---

(١) الكشاف : ٢/ ١٦٢ قال أبو حيان : وهذا الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشري لا يظهر لأن مآله إلى تقدير : اللّه دعوة اللّه وهذا التركيب لا يصح.

البحر المحيط : ٥/ ٣٧٦ [.....]

ج ١٣ ، ص : ١٣٥

و الأوثان والمعبودات الباطلة وهم المشركون ، لا يجيبونهم إطلاقا ، ولا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء ، ولا يحققون لهم نفعا ولا يدفعون عنهم ضرا ، وما استجابتهم إلا كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد ، طالبا وصوله إلى فمه ، وهو عطشان ، والماء جماد لا يعقل دعاء ، ولا يلبي نداء ، ولا يشعر به.

ويلاحظ ما عليه هذا التشبيه من واقعية ومن بسط الكفين كما يبسطها الداعي إلى اللّه.

فهذا مثل ضربه اللّه ليأس عبدة غير اللّه من الإجابة لدعائهم ، لتنبيه عقولهم وحواسهم ، والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد. قال الشاعر :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها من الودّ مثل القابض الماء باليد وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في خسار وضياع وبطلان ، فإن دعاءهم لهم غير مجاب ، كما أن دعاءهم اللّه غير مجاب أيضا.

ثم بين اللّه تعالى كمال قدرته وعظمته وسلطانه فقال : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ .. أي وللّه يخضع وينقاد كل شيء طوعا من المؤمنين والملائكة في حالي الشدة والرخاء ، وكرها من الكافرين في حال الشدة ، بل كل شيء من مخلوقات الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد خاضع منقاد للخالق الذي خلقهم وأوجدهم. وكذلك تسجد للّه وتخضع ظلال كل من له ظل مما ذكر في الصباح الباكر وفي آخر النهار ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص ، أو لإرادة الدوام ، كما هو الشأن في استعمالات العرب. والسجود للّه دال على الربوبية ، فلا يستحق العبادة سوى اللّه تعالى.

ج ١٣ ، ص : ١٣٦

(١٣٥/١٣)

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدتنا الآيات إلى ما يلي :

١- بيان كمال قدرة اللّه تعالى ، وأن تأخير العقوبة عن العصاة ليس عن عجز ، وكل ما ذكر في الآية من البرق والسحاب والرعد والصواعق دلائل ملموسة على قدرة اللّه عز وجل ، وأنه شديد القوة والأخذ ، والمحال أو المماحلة : وهي المماكرة والمغالبة.

فحدوث البرق مثلا دليل عجيب على قدرة اللّه تعالى : لأن السحاب مركب من أجزاء رطبة مائية ، ومن أجزاء هوائية ونارية ، والغالب عليه الأجزاء المائية ، والماء جسم بارد رطب ، والنار جسم حار يابس ، فتغليب النار على الماء المتضادين ، لا بد له من صانع مختار ، يظهر الضد من الضد.

والأجزاء المائية من السحاب ، سواء قيل : إنها حدثت في جو الهواء أو تصاعدت من أبخرة البحار ،

لا بد أن يكون حدوثها بإحداث حكيم قادر محدث.

وصوت الرعد المرعب بسبب تصادم كتل الهواء نتيجة تفريع جزء منه بالبرق دليل آخر على القدرة الإلهية.

والصواعق المخيفة المدمرة المتولدة من السحاب والتي تحدث بسبب احتكاك كهربة السحب بكهربة الأرض برهان واضح على الألوهية ، ووجود موجود متعال عن النقص والإمكان.

٢- كل شيء في الوجود من إنسان وحيوان ونبات وجماد وجنّ وملائكة يسبح بحمده ، فالرعد يسبح بحمد اللّه ، والملائكة تسبح أيضا بحمد اللّه من هيبته وإجلاله ، والتسبيح : التنزيه عن الشريك والوالد والولد والصاحبة ، والتقديس للّه تعالى ، ولكن الناس لا يفقهون تسبيح من سواهم.

ج ١٣ ، ص : ١٣٧

٣- هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل الدالة على كمال قدرة اللّه ، يجادلون في اللّه ، ويشككون في وجوده وألوهيته ، واللّه شديد القوة والأخذ ، والعقاب ، ومغالبة هؤلاء المشككين المجادلين بالباطل.

٤- للّه الدعوة الحق ، فمن يدعوه فدعوته هي الحق ، أما دعاء الأصنام وأمثالها من الآلهة المزعومة دون اللّه فهو باطل لا يفيد شيئا.

(١٣٦/١٣)

٥- الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون اللّه لا يحققون لأحد مطلبا ، وما استجابتهم إلا كاستجابة الماء لباسط كفيه إلى الماء ، والماء جماد لا يشعر بأحد ولا بحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاء داعيه ، فكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ، ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم.

٦- دل قوله : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ .. على أنه يجب على كل من في السموات والأرض أن يسجد للّه إما طوعا أو كرها ، فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول ، أو أن كل من السموات والأرض يعترفون بعبودية اللّه تعالى ، على ما قال :

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ [لقمان ٣١/ ٢٥].

وقيل : إن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع ، وكل من في السموات والأرض ساجد للّه بهذا المعنى لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل.

٧- دل قوله : وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ على أن كل شخص ، سواء كان مؤمنا أو كافرا ، فإن ظله يسجد للّه. قال مجاهد : ظل المؤمن يسجد للّه طوعا ، وهو طائع ، وظل الكافر يسجد للّه كرها ، وهو كاره. وقيل : إن المراد من سجود الظلال أي ظلال الخلق : ميلانها من جانب إلى جانب ، وتختلف طولا وقصرا بسبب انحطاط الشمس وارتفاعها ، فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها

وميلها من جانب إلى جانب. وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين.

ج ١٣ ، ص : ١٣٨

وحدانية اللّه ومثل المؤمن والمشرك تجاه الوحدانية [سورة الرعد (١٣) : آية ١٦]

(١٣٧/١٣)

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)

لبلاغة :

قُلِ : اللَّهُ فيه إيجاز بالحذف ، أي اللّه خالق السموات والأرض.

الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ والظُّلُماتُ وَالنُّورُ فيهما طباق.

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ فيهما استعارتان ، استعار لفظ الأعمى للمشرك ، والبصير للمؤمن ، واستعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان.

أَمْ جَعَلُوا الهمزة للإنكار ، أي بل جعلوا.

المفردات اللغوية :

قُلْ يا محمد لقومك مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي خالقهما ومتولي أمرهما قُلِ : اللَّهُ إن لم يجيبوا فلا جواب غير أن تقول : اللّه الخالق إذ لا جواب لهم سواه ، ولأنه الجواب البين الذي لا يمكن المراء فيه ، أو أنه لقنهم الجواب أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ أي كيف اتخذتم من غيره أصناما تعبدونها ؟ والمراد أنه ألزمهم بذلك أن اتخاذهم منكر بعيد على مقتضى العقل ، والاستفهام للتوبيخ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا لا يقدرون على جلب نفع إليها أو دفع ضر عنها ، فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه ؟ وكيف تركتم مالك السموات والأرض ؟ وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء ، رجاء أن يشفعوا لهم.

ج ١٣ ، ص : ١٣٩

(١٣٨/١٣)

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ الكافر الجاهل ، والمؤمن العالم العاقل أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ الكفر والإيمان ؟ لا.

أَمْ جَعَلُوا بل أجعلوا ، والهمزة للإنكار خَلَقُوا كَخَلْقِهِ صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ أي خلق اللّه بخلق الشركاء ، أي ما اتخذوا للّه شركاء خالقين مثله ، حق يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا : هؤلاء خلقوا كما خلق اللّه ، فاستحقوا العبادة كما استحقها ، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الناس ، فضلا عما يقدر عليه الخالق.

وهو استفهام إنكاري ، أي ليس الأمر كذلك ، ولا يستحق العبادة إلا الخالق قُلِ : اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ أي لا خالق غيره ، فيشاركه في العبادة ، فهو لا شريك له في الخلق ، فلا شريك له في العبادة ، أي أنه جعل الخلق يستوجب العبادة ويلزم منه ذلك ، ثم نفاه عما سواه ليتوصل إلى الآتي وهو قوله : وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ أي هو المتوحد بالألوهية ، الغالب على كل شي ء.

المناسبة :

بعد أن بيَّن اللّه تعالى أن كل من في السموات والأرض ساجد له ، خاضع لقدرته وعظمته ، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام ، لإثبات الوحدانية ، وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ، حتى لا يجدوا مناصا من الاعتراف بها.

التفسير والبيان :

قل للمشركين أيها الرسول : من خالق السموات والأرض ؟ ثم أجب عنهم الجواب المتعين الذي لا مناص منه ، وهو الذي يقرون به لأنهم كانوا يقرون بأن اللّه هو الخالق كما قال تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [لقمان ٣١/ ٢٥] وقل لهم إذن : اللّه خالقهما وربهما ومدبرهما.

قال الزمخشري : وقوله : قُلِ : اللَّهُ حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم لأنه إذا قال لهم : من رب السموات والأرض ؟ لم يكن لهم بد من أن يقولوا : اللّه.

(١٣٩/١٣)

ثم قل لهم بعد أن ثبت هذا لديكم : فلم اتخذتم لأنفسكم من دون اللّه معبودات

ج ١٣ ، ص : ١٤٠

هي جمادات ، وإذا كنتم مقرين بوجود اللّه ، فما بالكم اتخذتم من دونه نصراء عاجزين وأولياء تعبدونهم ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ ! وإذا كانت تلك الآلهة لا تملك لنفسها النفع والضر ، فهي لا تملك لعابديها بطريق الأولى نفعا ولا ضرا. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع اللّه ، ومن عبد

اللّه وحده لا شريك له ، فهو على نور من ربه ؟ لهذا قال : قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ... أي قل لهم مبينا لهم سوء اعتقادهم : هل يتساوى الأعمى الذي لا يبصر شيئا ، والبصير الذي يدرك الحق ويهدي الأعمى إليه ؟ أم هل تتساوى الظلمات والنور ؟ جمع الظلمات وأفرد النور لأن طريق الحق واحدة ، وطرق الباطل والكفر متعددة.

والمراد : هل يمكن لأحد الحكم بتساوي الكافر والمؤمن ، وتساوي الكفر والإيمان ، فالكافر كالأعمى ، والكفر كالظلمات ، والمؤمن كالبصير ، والإيمان كالنور ؟

أَمْ جَعَلُوا بل جعلوا أي جعل هؤلاء المشركون مع اللّه آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق ، وحينئذ تشابه خلق الشركاء بخلق اللّه عندهم ، فحينما جعلوا للّه شركاء موصوفين بالخلق مثل خلق اللّه ، تشابه ذلك عليهم ، فيعبدونهم ، مع أنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، فكيف يشركون في العبادة ، أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ ! وهذا بمعنى قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ [الحج ٢٢/ ٧٣].

والمراد : ليس الأمر على هذا النحو ، فإنه تعالى لا يشابهه شيء ، ولا يماثله شيء ، ولا ندّ له ، ولا وزير له ، ولا ولد له ولا صاحبة ، وهؤلاء المشركون عبدوا آلهة ، وهم معترفون أنها مخلوقة للّه ، وهم عبيد له ، كما صرحوا في تلبيتهم :

ج ١٣ ، ص : ١٤١

»

(١٤٠/١٣)

لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » وكما أخبر القرآن عنهم : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى [الزّمر ٣٩/ ٣]. وتضمن هذا الاستفهام التعجب منهم والإنكار عليهم والتهكم بهم.

وبعد أن ناقشهم تعالى في فساد اعتقادهم ، وأبان عدم وجود المسوغات لاتخاذ غير اللّه إلها معه ، لعجزه وضعفه ، قرر الحكم النهائي بقوله : قُلِ : اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ .. أي قل لهم يا محمد مبينا وجه الحق : اللّه خالق كل شيء ، خالقكم وخالق أصنامكم وخالق جميع المخلوقات ، فإذا فكرتم تفكيرا سويا وجدتم أن اللّه هو المتفرد بالخلق والإيجاد وهو المتوحد بالألوهية ، المستحق للعبادة وحده ، الغالب على كل شيء ، فكيف تعبدون أصناما لا تنفع ولا تضر ؟ !

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

١- تثبيت الحقيقة الأبدية الخالدة وهي أن اللّه تعالى وحده هو خالق السموات والأرض وجميع مخلوقات الكون.

ومن له صفة الخلق والإيجاد هو المستحق للعبادة والتقديس.

٢- دل قوله : قُلْ : أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ على اعترافهم بأن اللّه هو الخالق ، وهو معنى آية أخرى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ [العنكبوت ٢٩/ ٦١] أي فإذا اعترفتم بأن اللّه هو الخالق فلم تعبدون غيره ؟ وذلك الغير لا ينفع ولا يضر ، وهو إلزام صحيح بالحجة القاطعة التي لا مجال لردها أو الطعن فيها.

٣- ضرب اللّه مثلا للمشركين بالأعمى للكافر والبصير للمؤمن ، وإذا كان مسلّما لدى كل البشر ألا يستوي الأعمى والبصير ، فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق والمشرك الذي لا يبصر الحق.

ج ١٣ ، ص : ١٤٢

ثم ضرب اللّه تعالى مثلا للشرك والإيمان بالظلمات والنور.

(١٤١/١٣)

٤- طمس اللّه على عقول المشركين ، فلم يقتنعوا بما سبق ، بل جعلوا للّه شركاء فاقدة أهم مقومات الألوهية وهو الخلق والإبداع ، فهي عاجزة عن خلق أي شيء ، فلا يمكن بعدئذ أن تنافس مخلوقات اللّه ، ولو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق ، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك ، فبم يعلم أن الفعل من اثنين ؟ ! والمشركون حينما اتخذوا آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها اللّه ، التبس الأمر عليهم ، فلا يدرون خلق اللّه من خلق آلهتهم. وهو تهكم بهم ، فإنهم في الحقيقة يرون كل شيء من خلق اللّه ، وأن هذه الآلهة لم تخلق شيئا ، ومع هذا فإنهم يعبدونها من دون اللّه.

٥- اللّه خالق كل شيء ، فلزم لذلك أن يعبده كل شي ء. والآية رد على المشركين والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق اللّه. واللّه تعالى هو الواحد قبل كل شيء ، والقهار الغالب لكل شيء ، الذي يغلب في مراده كل مريد ، فكيف يصح بعد هذا القول بشريك للّه ؟ ! ٦- استدل أهل السنة بهذه الآية على خلق الأفعال ، أي أن أفعال العباد مخلوقة للّه تعالى ، وأن العبد لا يخلق فعل نفسه لأن فعله شيء واللّه خالق كل شيء ، وإنما يحصل منه الكسب والتوجيه واختيار ما خلق اللّه له.

أما المعتزلة فقالوا : إن العبد يفعل ويحدث ، ولا نقول : إنه يخلق كخلق اللّه تعالى ، وإنما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة ، واللّه تعالى منزه عن ذلك كله ، فلا يلزمهم أنهم جعلوا للّه شركاء خلقوا كخلقه.

وقال المجبرة : عين ما هو خلق اللّه تعالى هو كسب العبد وفعل له. وهذا عين الشرك لأن الإله والعبد في خلق تلك الأفعال بمنزلة الشريكين ، وكل شريك له حق في فعل الآخر.

(١٤٢/١٣)

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٩)

الإعراب :

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ جار ومجرور ، في موضع نصب على الحال من الضمير المجرور في عَلَيْهِ وتقديره : ومما يوقدون عليه كائنا أو مستقرا في النار.

ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ منصوب على المصدر في موضع الحال من ضمير يُوقِدُونَ. ولا يجوز أن يكون فِي النَّارِ متعلقا بيوقدون لأنهم لا يوقدون في النار ، وإنما يوقدون على الذهب ، كائنا في النار.

زَبَدٌ مِثْلُهُ مبتدأ ، ومِثْلُهُ : صفة له ، وخبره إما يُوقِدُونَ أو فِي النَّارِ.

جُفاءً حال من ضمير فَيَذْهَبُ عائد على الزبد لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى مبتدأ مؤخر وخبر مقدم وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا مبتدأ ، خبره : لَوْ أَنَّ ...

ج ١٣ ، ص : ١٤٤

البلاغة :

(١٤٣/١٣)

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً .. تشبيه تمثيلي ، وجه الشبه منتزع من متعدد ، شبّه فيه الحق بالماء المستقر على الأرض ، وبالجوهر الصافي من المعادن ، وشبّه الباطل برغوة الماء وخبث المعدن الطافي عليه لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل.

فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها أي فسالت مياه الأودية ، فهو مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه.

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فيه إيجاز بالحذف ، أي أمثال الحق وأمثال الباطل.

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا .. وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بينهما طباق السلب.

كَمَنْ هُوَ أَعْمى شبه الكافر الجاهل بالأعمى على سبيل الاستعارة.

المفردات اللغوية :

مِنَ السَّماءِ ماءً مطرا من السحاب أو من جانب السماء أَوْدِيَةٌ أنهار ، جمع واد : وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة ، ثم استعمل للماء الجاري فيه ، وتنكيرها لإتيان المطر على التناوب بين البقاع بِقَدَرِها بمقدارها الذي علم اللّه تعالى أنه نافع ، أو بمقدار مثلها في الصغر والكبر فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رفعه ، والزبد : ما يعلو وجه الماء من رغوة وقذر ونحوه رابِياً عاليا عليه مرتفعا فوقه وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ من جواهر الأرض وفلزاتها كالذهب والفضة والنحاس والحديد ومن : للابتداء ، أو للتبعيض ، والضمير للناس ، وإضماره للعلم به ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ طلب زينة أَوْ مَتاعٍ ينتفع به كالأواني إذا أذيبت ، وآلات الحرب والحرث ، والمقصود من ذلك بيان منافعها زَبَدٌ مِثْلُهُ أي مثل زبد السيل ، وهو خبثه وهو الذي ينفيه الكير كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ أي المذكور مثل الحق والباطل وأهل كل.

(١٤٤/١٣)

فَأَمَّا الزَّبَدُ من السيل وما أوقد عليه من المعادن فَيَذْهَبُ جُفاءً يزول باطلا مرميا به ، فالجفاء : ما يرميه الوادي من الزبد إلى جوانبه وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ من الماء والمعادن فَيَمْكُثُ يبقى وينتفع به أهلها فِي الْأَرْضِ زمانا ، كذلك الباطل يضمحل وينمحق ، وإن علا على الحق في بعض الأوقات ، والحق ثابت باق ، أي أن الحق في إفادته وثباته كالماء النافع الذي يستقر في الأرض ، وكالمعدن الذي ينتفع به في صوغ الحلي واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة ، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله كزبد الماء أو غثائه ورغوته ، وخبث المعدن وشوائبه كَذلِكَ المذكور يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ يبين ، لإيضاح المشتبهات.

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ أطاعوه ، أي للمؤمنين الذين استجابوا بالطاعة للّه ، واللام متعلقة

ج ١٣ ، ص : ١٤٥

بيضرب الْحُسْنى الجنة وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ وهم الكفار لَافْتَدَوْا بِهِ من العذاب أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ المؤاخذ بكل ما عملوه ، لا يغفر منه شيء ، أو المناقشة في الحساب ، بأن يحاسب الإنسان بذنبه ، لا يغفر منه شيء وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ مرجعهم النار وَبِئْسَ الْمِهادُ المستقر والفراش هي ، والمخصوص بالذم محذوف.

أَ فَمَنْ يَعْلَمُ .. الهمزة للإنكار ، أي فيؤمن ويستجيب كالحمزة كَمَنْ هُوَ أَعْمى عمى القلب لا يؤمن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم كأبي جهل ، والمراد لا يستويان ، ولا يتشابهان يَتَذَكَّرُ يتعظ أُولُوا الْأَلْبابِ

أصحاب العقول.

المناسبة :

(١٤٥/١٣)

بعد أن ذكر اللّه تعالى وجود دعوتين : دعوة الحق ، ودعوة الباطل ، وأن دعوة اللّه هي دعوة الحق ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل ، ولما شبه تعالى المؤمن والكافر والإيمان والكفر ، بالبصير والأعمى ، والنور والظلمات ، ذكر مثلا آخر للإيمان والكفر ، وأبان مثلا للحق وأهله ، والباطل وحزبه ، فجعل مثل الحق وأهله في ثباته وبقائه بالماء النازل من السماء فينفع الأرض والناس ، وبالمعدن الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه ، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، وجعل مثل الباطل في اضمحلاله وفنائه وسرعة زواله وانعدام منفعته بزبد السيل الذي يرمي به ، وزبد المعدن الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

التفسير والبيان :

اشتملت الآية الأولى على مثلين للحق وهو القرآن أو الإيمان في ثباته وبقائه ونفعه ، والباطل وهو الكفر في اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ...

أي أنزل اللّه تعالى من السحاب مطرا ، فأخذ كل واد بحسبه صغرا وكبرا ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها في استيعاب الإيمان سعة وضيقا ، فحمل السيل

ج ١٣ ، ص : ١٤٦

المتجمع من ذلك المطر زبدا عاليا طافيا فوقه ، وهذا هو المثل الأول للحق والباطل أو الإيمان والكفر.

ثم ذكر تعالى المثل الثاني : وَمِمَّا يُوقِدُونَ .. أي ومثل الحق أو الإيمان كالمعدن النافع من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس ونحوها الذي يستخلص من التراب والشوائب ، بواسطة السبك في النار ، ليجعل حلية أو آنية أو سلاحا أو متاعا ينتفع به ، ويعلوه الخبث والشوائب الطافية عند الانصهار ، وهو مثل الباطل.

(١٤٦/١٣)

كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ أي المذكور مثل الحق والباطل إذا اجتمعا ، فالحق في استقراره ونفعه كالماء المستقر النافع والمعدن النقي الصافي ، والباطل في زواله وعدم نفعه كالرغوة التي يقذفها السيل على جوانبه ، وخبث المعدن عند انصهاره ، فالباطل لا دوام له أمام الحق.

ثم ذكر اللّه تعالى اضمحلال الباطل وذهابه بقوله : فَأَمَّا الزَّبَدُ .. أي أن الزبد الطافي فوق الماء يتبدد ويزول ويذهب في جانبي السيل ، ويعلق على حافتيه ، فتنسفه الرياح ، وأما النافع من الماء والمعدن فيبقى مستقرا في الأرض ، أما الماء فنشربه ونسقي به الزرع ، وأما المعدن فنستفيد منه إما بالحلي أو بصناعة الأواني والأسلحة والأمتعة ، كما قال تعالى عن الحديد : وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ [الحديد ٥٧/ ٢٥].

كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ أي أنه تعالى كما بيّن لكم هذه الأمثال ، فكذلك يضربها بيّنات ، لإيضاح الفوارق بين أصول الاعتقاد الجوهرية من الإيمان والكفر ، والحق والباطل.

والخلاصة : إن القرآن الكريم الذي تجسد فيه الحق ونور الإيمان مثله في إحياء القلوب به مثل الماء الذي يحيي الأرض بعد موتها ، ومثل المعدن النقي

ج ١٣ ، ص : ١٤٧

الصافي الذي يحقق منافع كثيرة للناس. وأما الكفر وضلالات الشرك وباطل اعتقاد المشركين ، فهو عديم النفع سريع الزوال ، يتبدد فورا ، فهو كرغوة الماء وغثاء السيل الذي يضمحل وتعصف به الرياح ، وخبث المعدن الذي يستبعد ويلقى جانبا.

وما ضرب هذا المثل الرائع إلا لخير الإنسان ، الذي عليه أن يقدر مآل أمره ، وما ينتظره من سعادة وشقاوة في المعاد ، فإذا كان يوم القيامة وعرض الناس وأعمالهم على ربهم ، فيزيغ الباطل ويتلاشى ، وينتفع أهل الحق بالحق.

(١٤٧/١٣)

و قد ضرب اللّه تعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين من النار والماء ، فقال تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً ، فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ..

[١٧] ثم قال : أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ [١٩].

وضرب سبحانه للكافرين في سورة النور مثلين ، فقال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ [٣٩] والسراب يكون في شدة الحر ، ثم قال :

أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ .. [٤٠].

وجاء في السنة أمثال مشابهة ، فشبّه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أحوال المنتفعين بسنته بأحوال أراض ثلاث سقط عليها الماء ،

ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن مثل ما بعثني اللّه به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة قبلت الماء ، فأنبتت

الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع اللّه بها الناس ، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان ، لأتمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين اللّه ونفعه اللّه بما بعثني ونفع به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به »

وهذا مثل مائي يشبه المثل الذي ضربه اللّه تعالى للمنافقين.

ج ١٣ ، ص : ١٤٨

و

روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلّم عن النار ، فتغلبوني ، فتقتحمون فيها »

(١٤٨/١٣)

و هذا مثل ناري أبان فيه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حرصه على إبعاد أمته من النار ، وتساقط بعضهم فيها كتساقط الفراش ، وهو كالمثل الذي ضربه اللّه للمنافقين.

ثم أبان اللّه تعالى مستأنفا الكلام مصير أهل الحق وأهل الباطل ، ومآل السعداء والأشقياء ، ترغيبا وترهيبا ، فقال : لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا .. أي الجنة للذين أطاعوا اللّه ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم الجزاء الحسن ونعيم الجنة والثواب العظيم ، كما قال تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ [يونس ١٠/ ٢٦] وقال : وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً [الكهف ١٨/ ٨٨].

وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا .. أي والذين لم يطيعوا اللّه ورسوله ، لا ينفعهم في الآخرة الفداء بجميع ما في الدنيا وضعف ما فيها ، أي لا يمكنهم في الدار الآخرة أن يفتدوا من عذاب اللّه بملء الأرض ذهبا ، ومثله معه. ولو كان لهم ذلك لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل اللّه منهم لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا ، أي فداء وتوبة.

أولئك الذين لم يطيعوا اللّه لهم سوء العذاب في الدار الآخرة ، ويناقشون على كل ما قدموه ، لا يغفر منه شيء ، ومن نوقش الحساب عذب ، ومرجعهم إلى النار وبئس المستقر مستقرهم. وفي هذا تهويل شديد ، وتخويف عظيم ، لغفلتهم من اتباع أوامر ربهم ، وتقربهم إليه ، وانغماسهم في شهواتهم.

ج ١٣ ، ص : ١٤٩

ثم نزل في حمزة رضي اللّه عنه وأبي جهل ، كما ذكر ابن عباس قوله تعالى :

(١٤٩/١٣)

أَ فَمَنْ يَعْلَمُ .. أي لا يستوي من يعلم من الناس أن المنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق الذي لا شك فيه ولا لبس فيه ، بل هو كله حق ، فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى : وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا [الأنعام ٦/ ١١٥] أي صدقا في الإخبار ، وعدلا في الطلب ، لا يستوي من صدّق بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومن لم يصدق به ، وكان أعمى لا يستبصر ، ولا يهتدي إلى خير ، ولا يفهمه ، ولو فهمه ، ما انقاد له ولا صدقه ، ولا اتبعه.

إنما الذي ينتفع بهذه الأمثال ويعتبر بها ويتعظ ويعقل هم أولو العقول السليمة ، والأفكار الصحيحة ، والآراء الرشيدة.

ونظير الآية : لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ ، وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ [الحشر ٥٩/ ٢٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

أبانت الآيات أمورا ثلاثة :

١- تشبيه الحق والإيمان بالماء المستقر والمعدن النقي الصافي ، وتشبيه الباطل والكفر بالزبد الذي يعلو الماء ، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية ، وتنسفه الرياح ، أو تشبيهه بالطافي فوق المعدن المذاب فكذلك الكفر وشبهاته وخيالاته تذهب وتضمحل ، ويبقى الجوهر الصافي من الماء ، والمعدن النقي.

وهذان المثلان اللذان ضربهما اللّه للحق في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، يلفتان النظر إلى عواقب الأمور.

وقيل وهو ما يروى عن ابن عباس : المراد تشبيه القرآن وما يدخل منه

ج ١٣ ، ص : ١٥٠

القلوب بالمطر ، لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشبّه القلوب بالأودية ، يدخل فيها من القرآن مثلما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها.

٢- للطائعين أهل السعادة الذين أجابوا إلى ما دعا اللّه من التوحيد والنبوات الجزاء الحسن ، وهو النصر في الدنيا ، والنعيم المقيم غدا في الآخرة.

(١٥٠/١٣)

و للعصاة أهل الشقاوة الذين لم يجيبوا إلى الإيمان بنبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، لا يتمكنون من فداء أنفسهم في الآخرة بملء الأرض ذهبا ، ومثله معه ، ولهم سوء العذاب ، فلا يقبل لهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة ، ومسكنهم ومقامهم النار ، وبئس الفراش الذي مهدوا لأنفسهم ، فهذه أربعة أنواع من العذاب والعقوبة : عدم قبول الفداء ، والتعرض لسوء الحساب ، ومأواهم جهنم ، وبئس المهاد مهادهم أي بئس المستقر هي.

٣- مثل آخر للمؤمن والكافر ، روي أنه نزل في حمزة بن عبد المطلب رضي اللّه عنه ، وأبي جهل خزاه اللّه ، فالمؤمن بالمنزل من اللّه على نبيه ، المتحقق بصدقه ، العامل بما بلغه إليه منه هو المستبصر الواعي العاقل ، والكافر هو الجاهل بالدين أعمى القلب ، وأولو العقول هم المتعظون المعتبرون بذلك.

أوصاف أولي الألباب السعداء وجزاؤهم [سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢٠ الى ٢٤]

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)

ج ١٣ ، ص : ١٥١

الإعراب :

الَّذِينَ يُوفُونَ إما صفة لأولي الألباب ، وإما مبتدأ ، خبره : أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ.

(١٥١/١٣)

وَ مَنْ صَلَحَ مرفوع بالعطف على ضمير يَدْخُلُونَها المرفوع ، وحسن العطف لوجود الفصل بضمير المفعول. ويجوز نصبه على أنه مفعول معه. ولا يجوز عطفه بالجر على لَهُمْ عُقْبَى لأن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة حرف الجر. وأجاز الكوفيون ذلك من غير إعادة حرف الخفض.

جَنَّاتُ عَدْنٍ بدل من عُقْبَى الدَّارِ ، أو مبتدأ ، خبره : يَدْخُلُونَها.

بِما صَبَرْتُمْ متعلق بعليكم ، أو بمحذوف ، أي هذا بما صبرتم ، ولا يتعلق بسلام فإن الخبر فاصل ، والباء : للسببية أو البدلية.

البلاغة :

سِرًّا وعَلانِيَةً وبِالْحَسَنَةِ والسَّيِّئَةَ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ المأخوذ عليهم ، وهم في عالم الذر أو كل عهد ، وهو ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا : بلى ، أو ما عهده اللّه تعالى عليهم في كتبه. وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين اللّه تعالى وبين العباد ، والنقض : الفك بترك الإيمان أو الفرائض ، وهو تعميم بعد تخصيص. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ من الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام ، والرحم وموالاة المؤمنين ، ويندرج في ذلك مراعاة جميع حقوق الناس. وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ تمتلئ قلوبهم مهابة منه وجلالا له. والخشية : الخوف مع العلم بمن تخشاه.

وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ويخشون خطر الحساب.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا على الطاعة والبلاء وعن المعصية. ابْتِغاءَ طلب. وَجْهِ رَبِّهِمْ أي طلب رضاه ، لا غيره من أغراض الدنيا ، كالفخر أو السمعة ونحوهما. وَأَقامُوا الصَّلاةَ المفروضة. وَأَنْفَقُوا .. في الطاعة بعض ما رزقهم اللّه. وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ويدفعون

ج ١٣ ، ص : ١٥٢

(١٥٢/١٣)

السيئة بالحسنة ، فيجازون الإساءة بالإحسان كالأذى بالصبر ، والجهل بالحلم ، أو يتبعون السيئة الحسنة ، فتمحوها. عُقْبَى الدَّارِ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ، وهي جَنَّاتُ عَدْنٍ إقامة يقيمون فيها. وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ أي ومن صلح ، وإن لم يعملوا بعملهم ، يكونون في درجاتهم تكرمة لهم ، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة ، والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع. مِنْ كُلِّ بابٍ من أبواب الجنة أو من أبواب المنازل ، أول دخولهم للتهنئة. سَلامٌ قائلين : سلام عليكم ، بشارة بدوام السلامة. بِما صَبَرْتُمْ بصبركم في الدنيا. فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ عقباكم.

المناسبة :

هذه الآية متعلقة بما قبلها ، فهي تذكر الصفات الحميدة لأولي الألباب ، أو الصفات المذكورة في قوله تعالى : أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ومن اتصف بهذه الصفات لهم سعادة الدنيا والآخرة.

التفسير والبيان :

يصف اللّه تعالى أولي الألباب من المؤمنين الذين تحققوا من نبوة النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم واعتقدوا أن ما أنزل إليه هو الحق ، يصفهم بالصفات التالية :

١- الوفاء بالعهد :

الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبية اللّه تعالى ، وبالمواثيق بينهم وبين ربهم ، وبينهم وبين العباد. وعهد اللّه : كل ما قام الدليل على صحته من الأدلة العقلية والسمعية ، والعهد : اسم للجنس ، أي بجميع فروض اللّه ، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده ، ويدخل فيه التزام جميع الفروض ، وتجنب جميع المعاصي.

٢- عدم نقض الميثاق :

أي لا يخلّون بواجبات العهد والتزاماته ، ولا ينقضون عهد الإيمان مع ربهم ، ولا بالعقود التي يبرمونها مع الناس من بيع وشراء وسائر المعاملات ، حتى لا يكونوا

كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان ، روى الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »

و

في رواية أربع ومنها : « و إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

فعدم نقض الميثاق في رأي الأكثرين قريب من الوفاء بالعهد ، وهما مفهومان متلازمان ، وإن كانا متغايرين ، ونص على منع النقض تأكيدا عليه. أو أنه تعميم بعد تخصيص. قال قتادة : إن اللّه ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين موضعا في القرآن ، عناية بأمره ، واهتماما بشأنه.

٣- صلة الرحم ورعاية جميع الحقوق الواجبة للّه وللعباد :

الذين يصلون كل ما أمر اللّه بصلته ونهى عن قطعه من حقوق اللّه ، ومنها مؤازرة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ونصرته في الجهاد ، وحقوق العباد ، ومنها صلة الرحم.

جاء في الصحيحين عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من أحبّ أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه »

ومنها الإحسان إلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف. ونص على هذا الوصف مع دخوله في الوصفين السابقين للتأكيد ، ولئلا يظن ظان أن الوفاء بالعهد مقصور على ما بين الإنسان وبين اللّه تعالى.

٤- الخوف من اللّه :

ويخشون ربهم فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون اللّه في ذلك.

والخشية : خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن يخشاه ، لذا خص اللّه العلماء بمزيد الخشية ، فقال :

إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ [فاطر ٣٥/ ٢٨].

ج ١٣ ، ص : ١٥٤

٥- الخوف من العذاب :

و يحذرون سوء الحساب في الدار الآخرة ، فيخافون المناقشة في الحساب لأن من نوقش الحساب عذّب ، ويحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا لأن الحساب يشمل كل صغير وكبير ، ومن خاف الحساب أقبل على الطاعة ، وتجنب المعصية.

ويلاحظ أن الوصف الرابع إشارة إلى الخشية من اللّه ، وهذا يقتضي خوف الجلال والمهابة والعظمة ، وهذا الوصف إشارة إلى الخوف من سوء الحساب.

٦- الصبر :

وهو حبس النفس على ما تكره : والذين صبروا على الطاعة وعن المعصية ، وحال البلاء ، ففعلوا الطاعات والتكاليف ، وامتنعوا من المعاصي والسيئات أو المنكرات ، ورضوا بالقضاء والقدر عند التعرض للمصائب ، وكان صبرهم بقصد مرضاة اللّه عز وجل ونيل ثوابه ، لا رياء ولا سمعة.

٧- إقامة الصلاة :

والذين أقاموا الصلاة أي أدّوها مستكملة أركانها وشروطها التامة ، مع خشوع القلب للّه تعالى على الوجه المرضي.

٨- الإنفاق في وجوه الخير :

وأنفقوا بعض ما رزقناهم في السر والجهر بحسب مقتضى الحال ، فيسرّون النفقة بينهم وبين ربهم حتى لا يكون قصدهم الرياء والسمعة ، ويعلنونها أحيانا للناس إذا كانت بقصد التشجيع والتعليم والقدوة ، سواء كان إنفاقا واجبا كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء ، أو مندوبا كالإنفاق على الفقراء والمساكين الأباعد.

ج ١٣ ، ص : ١٥٥

٩- مقابلة السيئة بالإحسان :

ويدفعون الإساءة بالإحسان كالجهل بالحلم ، والأذى بالصبر ، كما قال تعالى :

وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا : سَلاماً [الفرقان ٢٥/ ٦٣] وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً [الفرقان ٢٥/ ٧٢] ، ويتبعون السيئة بالحسنة لمحوها ،

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما يرويه أحمد عن أبي ذر : « إذا عملت سيئة ، فاعمل بجنبها حسنة

تمحها »

و

في رواية أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر : « و أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

(١٥٥/١٣)

و الثابت أن المعاملة الكريمة مع المسيء وغيره أفضل وأجدى وأوقع أثرا لأنها تهوّن الأمر ، وتستل الأحقاد ، وتكون عاقبتها أسلم.

وبعد أن وصف اللّه المؤمنين العقلاء بتلك الصفات الحميدة ، ذكر جزاءهم بقوله : أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم العقبى الحسنة والسعادة في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فهو النصر على الأعداء ، وأما في الآخرة فهو الجنة.

ثم أوضح هذه العقبى فقال : جَنَّاتُ عَدْنٍ .. أي تلك العقبى هي الجنات التي يقيمون فيها إقامة دائمة. يدخلونها هم والصالحون المؤمنون من أزواجهم وأصولهم وفروعهم ، وهو دليل على أن سمو الدرجة يكون بالشفاعة ، وأن التقييد بالصلاح يدل على أن مجرد الأنساب لا تنفع ، فلا تفيد الأنساب شيئا إذا لم تقرن بالعمل الصالح ، وكما قال تعالى : فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ [المؤمنون ٢٣/ ١٠١] وقال سبحانه : يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [الشعراء ٢٦/ ٨٨- ٨٩] و

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لفاطمة في مرض موته فيما رواه الترمذي : « يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من اللّه شيئا » .

ج ١٣ ، ص : ١٥٦

و تأتيهم الملائكة عند دخولهم الجنة من أبواب مختلفة قائلين لهم : سلام عليكم بصبركم ، أي أمن دائم عليكم ، ورحمة من ربكم ، فنعم عقبى الدنيا الجنة. فقوله سَلامٌ مشتمل على محذوف تقديره : ويقولون : سلام عليكم.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول ، فيقول لهم : سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ

و كذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١- وجوب الوفاء بالعهد : وهو يشمل كل حقوق اللّه وفرائضه وحقوق العباد.

٢- تحريم نقض المواثيق الإلهية والبشرية : فإذا عقد الإنسان عهدا في طاعة اللّه ، أو مع الناس ، لم يجز نقضه.

٣- وجوب صلة الأرحام ورعاية جميع حقوق اللّه وحقوق العباد ، وذلك يتناول جميع الطاعات والإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم.

٤- الخوف من سوء الحساب : وهو الاستقصاء فيه والمناقشة ، ومن نوقش الحساب عذّب ، كما روى الشيخان عن عائشة.

٥- الصبر بإخلاص للّه تعالى على الطاعة ، وعن المعصية ، وعلى الرزايا والمصائب ، والحوادث والنوائب.

٦- إقامة الصلاة : وهو أداؤها بفروضها وخشوعها في مواقيتها.

ج ١٣ ، ص : ١٥٧

٧- الإنفاق من بعض المال سرا وجهرا ، بأداء الزكاة المفروضة والتطوع بالصدقات المندوبة في سبيل اللّه تعالى.

٨- درء السيئة بالحسنة ، أي الدفع بالعمل الصالح السيء من الأعمال ، كالتخلق بالأخلاق الطيبة في مواجهة أذى الناس ، كالحلم في وجه الجهل ، والصبر في وجه الأذى ، ودفع الشر بالخير ، والمنكر بالمعروف ، واتباع السيئة بالحسنة لمحو أثرها لقوله تعالى : إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ [هود ١١/ ١١٤] و

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر : « و أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

٩- للسعداء الطائعين عاقبة الآخرة : وهي الجنة بدل النار ، والدار غدا داران : الجنة للمطيع ، والنار للعاصي.

وجنان عدن : وسط الجنة ، وسقفها عرش الرحمن ،

جاء في صحيح البخاري « إذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجّر أنهار الجنة » .

١٠- يدخل الجنة مع المؤمن الصالح آباؤه وأزواجه وأبناؤه إن صدقوا وصلحت أعمالهم ، وإن لم يعملوا مثل أعمالهم ، واشتراط العمل الصالح كاشتراط الإيمان ، ولكن من فضل اللّه تعالى وإكرام المؤمن وثواب المطيع : سروره واجتماعه مع قراباته في الجنة ، وحضور أهله معه فيها ، وان دخلها كل إنسان بعمل نفسه من زاوية العدل ، وبرحمة اللّه تعالى من ناحية الفضل.

١١- التقييد بالصلاح بقوله : وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ .. دليل على أن مجرد الأنساب لا تنفع ، فلا تفيد الأنساب شيئا إذا لم تقرن بالعمل الصالح.

١٢- تدخل أفواج الملائكة من مختلف أبواب الجنة مهنئة المؤمنين ، ومبشرة لهم بالسلامة ، قائلين لهم : سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ أي قد

سلمتم من الآفات والمحن ، أو هو خبر بمعنى الدعاء ، أي ندعو لكم بدوام السلامة ، سلمكم اللّه ، وهذا يتضمن الاعتراف بالعبودية. والسلام عليكم كان بصبركم على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ، فنعم عاقبة الدار التي كنتم فيها ، عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه ، فالعقبى على هذا اسم ، وهو قول ابن سلام. أو فنعم عقبى الجنة عن النار أو عن الدنيا ، وهو قول أبي عمران الجوني.

١٣- استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر فقال :

إنه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والإكرام والتعظيم ، فكانوا به أجل مرتبة من البشر ، ولو كانوا أقل مرتبة من البشر ، لما كان دخولهم عليهم لأجل السلام والتحية موجبا علو درجاتهم وشرف مراتبهم « ١ » .

صفات الأشقياء وجزاؤهم [سورة الرعد (١٣) : آية ٢٥]

(١٥٨/١٣)

وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

المفردات اللغوية :

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ذكر في مقابلة الأولين الذين يوفون بعهد اللّه. وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالكفر والظلم والمعاصي وإثارة الفتن. لَهُمُ اللَّعْنَةُ الطرد أو البعد من رحمة اللّه.

وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ العاقبة السيئة في الدار الآخرة ، وهي جهنم ، أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار للسعداء.

(١) تفسير الرازي : ١٩/ ٤٥- ٤٦

ج ١٣ ، ص : ١٥٩

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى صفات السعداء وجزاءهم الذي أعده لهم في دار الكرامة ، ذكر حال الأشقياء وما هيأه لهم من عذاب النار ، وأتبع الوعد بالوعيد ، والثواب بالعقاب ، على ما هي عليه عادة القرآن للموازنة والمقابلة ، وليكون البيان كاملا فيكون أدعى للامتثال والزجر ، فقال : وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ.

التفسير والبيان :

وصف اللّه تعالى الأشقياء بصفات ثلاث هي :

١- نقض العهد : والذين ينقضون عهد اللّه الذي ألزمه عباده وأمر به.

سواء ما يتعلق به سبحانه من الإيمان بوحدانيته وقدرته وإرادته ، والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وما أوحى لهم به ، أو ما يتعلق بحقوق الناس.

ونقض العهد : بألا ينظر في الأدلة الدالة على وجود اللّه وتوحيده أصلا ، أو بأن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند ، فلا يعمل بعلمه ، أو بأن ينظر في الشبهة ، فيعتقد خلاف الحق.

وقوله : مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ أي من بعد الإقرار بصحته والالتزام به.

(١٥٩/١٣)

٢- قطع ما أمر اللّه به أن يوصل ، أي قطع كل ما أوجب اللّه وصله ، من لإيمان به وبرسله ، وقطع الرحم والقرابات ، وعدم صلة المؤمنين وسائر أصحاب الحقوق وعدم التعاون معهم.

٣- الإفساد في الأرض ، أي ويفسدون في الأرض بأعمالهم الخبيثة ، يظلمون أنفسهم وغيرهم ، ويدعون إلى غير دين اللّه ، ويلحقون الظلم بالنفوس

ج ١٣ ، ص : ١٦٠

و الأموال ، ويرتكبون كل ما يؤدي إلى تخريب البلاد ، وإثارة الفتن ، وتأجيج نار الحرب والدمار.

ثم أبان تعالى ما يستحق هؤلاء من عقاب ، فقال : أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ أي أولئك الموصوفون بما ذكر يستحقون اللعنة ، أي الطرد من رحمة اللّه والإبعاد من خيري الدنيا والآخرة.

وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ

أي ولهم سوء العاقبة والمآل ، وهو عذاب جهنم ، وليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها ، كما قال سبحانه سابقا : وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ [الآية : ١٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى الأحكام التالية :

١- تحريم نقض العهد الإلهي بالإيمان وإيتاء الحقوق ، الذي أقام عليه تعالى لأدلة العقلية والسمعية ، وأوجب الوفاء به في قرآنه وكتبه المنزلة على أنبيائه.

٢- تحريم قطع ما أمر اللّه بوصله من صلة الأرحام والإيمان بجميع الأنبياء ، والتعاون مع المؤمنين.

٣- تحريم الإفساد في الأرض بالكفر وارتكاب المعاصي والظلم وإثارة الفتن ، وارتكاب كل ما يؤدي إلى دمار البلاد وتخريبها ، وإتلاف الأموال والحقوق واغتصابها والاعتداء عليها.

٤- المرتكبون لهذه المنكرات والفواحش لهم اللعنة ، أي الطرد والإبعاد من لرحمة ، ولهم سوء الدار ، أي سوء المنقلب ، وهو جهنم.

ج ١٣ ، ص : ١٦١

الرزق على اللّه والآيات بيد اللّه والهداية من اللّه لمن آمن باللّه [سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢٦ الى ٢٩]

(١٣/١٦٠)

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)

الإعراب :

الَّذِينَ آمَنُوا بدل من قوله : مَنْ أَنابَ أو خبر مبتدأ محذوف.

وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا معطوف على وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وفي الآية تقديم وتأخير ، وما سبق ذلك اعتراض.

طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ طُوبى مبتدأ ، وخبره لَهُمْ ، والجملة خبر المبتدأ :

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ. وَحُسْنُ مَآبٍ : معطوف مرفوع على طُوبى . وقرئ :

وَحُسْنَ مَآبٍ بالنصب ، على أنه منادى مضاف ، حذف منه حرف النداء ، أي يا حسن مآب ، ويجوز أن يكون طُوبى منصوبا بفعل مقدر ، أي أعطاهم طوبى لهم ، وأعطاهم حسن مآب ، فهذا معطوف بالنصب على ما سبقه.

البلاغة :

يَبْسُطُ ويَقْدِرُ ويُضِلُّ ويَهْدِي بينهما طباق.
إِلَّا مَتاعٌ تشبيه بليغ ، حذف منه أداة الشبه ووجه التشبيه ، أي ما الحياة الدنيا إلا مثل الذي يتمتع به الإنسان في منزله كالقصعة ونحوها ، في حقارته وسرعة زواله.
ج ١٣ ، ص : ١٦٢
المفردات اللغوية :

(١٦١/١٣)

يَبْسُطُ الرِّزْقَ يوسعه وَيَقْدِرُ يضيقه أو يعطي بقدر الكفاية فقط وَفَرِحُوا أي أهل مكة فرح بطر بِالْحَياةِ الدُّنْيا بما بسط لهم في الدنيا وما نالوه فيها وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا في جنب الآخرة إِلَّا مَتاعٌ إلا متعة لا تدوم ، وشيء قليل يتمتع به ويذهب ، والمعنى : أن الكفار بطروا بما نالوا من الدنيا ، ولم يستخدموه فيما يوصلهم إلى نعيم الآخرة ، واغتروا بما هو قليل النفع سريع الزوال.
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة لَوْ لا هلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ على محمد آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ كعصا موسى ويده ، وناقة صالح يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ إضلاله ، فلا تغني عنه الآيات شيئا لأنه عاند وأعرض عن الحق وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ يرشد إلى دينه من رجع عن العناد وأقبل إلى الحق. والمعنى : هذا جواب فيه تعجب من قولهم ، كأنه قال لهم : ما أعظم عنادكم ، إن اللّه يضل من يشاء ممن كان على صفتكم ، فلا سبيل إلى اهتدائهم ، وإن أنزلت كل آية ويهدي إليه من أناب ، أي من رجع عن العناد.
وَتَطْمَئِنُّ تسكن بِذِكْرِ اللَّهِ أي بتوحيده ووعده تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ قلوب المؤمنين ، والمعنى أن قلوب المؤمنين تسكن وتستأنس بتوحيد اللّه وتذكر وعده ، وتعتمد عليه وترجو منه ، فتطمئن.
طُوبى مصدر من الطيب ، أي لهم العيش الطيب والنعمة والخير والسرور ، والحسنى والكرامة. وقيل : هي شجرة في الجنة ، يسير الراكب في ظلها مائة عام. مَآبٍ مرجع ومنقلب.
المناسبة :
بعد أن ذكر اللّه تعالى عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك ، بيّن أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا لأنها دار امتحان ، فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته ، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم ، فلا تعلق للرزق بالكفر والإيمان ، فربما وسع على الكافر دون المؤمن استدراجا له ، وضيق على المؤمن دون الكافر زيادة في أجره وثوابه.

(١٦٢/١٣)

ثم ذكر تعالى مقالة للمشركين ، كثر في القرآن حكايتها وهي طلب آية

ج ١٣ ، ص : ١٦٣

مادية حسية تدل على نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم لإنكار هم أن القرآن آية دالة على النبوة ، فرد اللّه عليهم أن اقتراح الآيات على الرسل جهل.

ثم ذكر سبحانه حال المؤمنين المتقين وثوابهم عند اللّه تعالى. والتحدث عن المشركين والمؤمنين هنا مناسب لما ذكر سابقا من بيان عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك.

التفسير والبيان :

لما ذكر اللّه تعالى أن للمشركين سوء الدار ، ناسب ذكر حكم الرزق في الدنيا ، وأنه لا تعلق له بالإيمان والكفر ، فقال تعالى : اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ..

أي أن اللّه تعالى هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتر على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، بصرف النظر عن كون الإنسان مؤمنا أو كافرا ، فقد يضيق اللّه الرزق على المؤمن ابتلاء واختبارا ، وزيادة في أجره ، وقد يوسع اللّه الرزق على الكافر استدراجا له وحرمانا منه في الآخرة ، عدالة ، فليست سعة الرزق للكافر دليلا على الكرامة والرضا ، وليس التقتير على المؤمن دليلا على الإهانة والسخط. كما قال تعالى في شأن رزق الكافر : أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ ، نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ [المؤمنون ٢٣/ ٥٦] وقال : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ [الأعراف ٧/ ١٨٢].

ثم ذكر اللّه تعالى حال المشركين في حال الغنى فقال : وَفَرِحُوا .. أي وفرح مشركو مكة بالدنيا فرح بطر ، ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا ما عند اللّه. لكن ما نعيم الدنيا بالنسبة للآخرة إلا متاع زائل ، وشيء قليل ذاهب ، يزول بسرعة.

أخرج أحمد ومسلم والترمذي عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول اللّه

ج ١٣ ، ص : ١٦٤

(١٦٣/١٣)

صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم ، فلينظر بم ترجع » وأشار بالسبابة.

و

أخرج الترمذي عن ابن مسعود قال : « نام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على حصير ، فقام وقد أثّر في جنبه ، فقلنا : يا رسول اللّه ، لو اتخذنا لك ، فقال : ما لي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب

استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » .
ولما أوضح تعالى أن المشركين اغتروا بمتاع الحياة الدنيا ، وطمست المادة على مشاعرهم وقلوبهم ، ذكر ما ترتب على الغرور والتأثر بالمادة ، فطلبوا من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم آية واحدة مادية تدل على صدق نبوته ، لعدم إيمانهم بكون القرآن معجزة مصدقة ، وبرهانا قاطعا على ذلك لأنهم قوم ماديون ، لا مجال لمخاطبة العقل لديهم ، والقائل : عبد اللّه بن أبي أمية وأصحابه ، فقال تعالى حاكيا اقتراحهم :
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ...
أي ويطلب أهل مكة المشركون قائلين : هلا أنزل على محمد آية أو معجزة قاهرة ظاهرة مادية مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام ، كقولهم :
فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ [الأنبياء ٢١/ ٥].
واللّه قادر على إجابة ما سألوا ، لكن
جاء في الحديث : « إن اللّه أوحى إلى رسوله ، لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهبا ، وأن يجري لهم ينبوعا ، وأن يزيح الجبال من حول مكة ، فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا أعذبهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة ، فقال : بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة » .
ورد اللّه عليهم بأن إنزال الآيات لا يؤثر في هداية ولا ضلال ، بل الأمر كله بيد اللّه : قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ .. أي ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم ، فلا فائدة لكم في نزول الآيات ، إن لم يرد اللّه هدايتكم ، فمن كان على

صفتكم من التصميم والعناد في الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائكم ، وإن أنزلت كل آية ، فإن الضلال والهداية بيد اللّه ، واللّه يضل من يشاء ، أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات ، وحرمكم الاستدلال بها ، يضلكم عند نزول غيرها ، ويهدي إليه من أناب ، أي رجع عن العناد وأقبل على الحق أو الإسلام أو اللّه عز وجل ، فهاء إِلَيْهِ عائد إلى واحد من المذكورات على تقدير : ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه.
وللآية نظائر كثيرة منها : وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى ، وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ، ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ [الأنعام ٦/ ١١١] وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ

عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ [يونس ١٠/ ١٠١] إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ [يونس ١٠/ ٩٦- ٩٧].

(١٦٥/١٣)

ثم ذكر اللّه تعالى من يستحقون الهداية : الَّذِينَ آمَنُوا .. أي يهدي اللّه الذين صدقوا باللّه ورسله ، وسكنت قلوبهم إلى توحيد اللّه ووعده ، أنسا به ، واعتمادا عليه ، ورجاء منه ، ألا بتذكر اللّه ، وتأمل آياته ، ومعرفة كمال قدرته عن بصيرة ، تطمئن قلوب المؤمنين ، ويذهب القلق والاضطراب عنهم ، بما وقر في تلك القلوب من نور الإيمان ، كما قال تعالى : ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ [الزمر ٣٩/ ٢٣] والمؤمن إذا تذكر عقاب اللّه ، خاف ، كما قال : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [الأنفال ٨/ ٢] وإذا تذكر المؤمن وعده تعالى بالثواب والرحمة ، اطمأن قلبه وهدأت نفسه : وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ ، زادَتْهُمْ إِيماناً ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [الأنفال ٨/ ٢].

ثم أبان اللّه تعالى جزاء المؤمنين فقال : الَّذِينَ آمَنُوا .. أي للذين آمنوا وعملوا الصالحات العيش الطيب والنعمة والخير وحسن الثواب ، وحسن المرجع.

ج ١٣ ، ص : ١٦٦

و الطوبى في رأي ابن عباس : الجنة ، وروي عنه أنها شجرة في الجنة ، ورجح القرطبي أنها شجرة في الجنة ، فقال : والصحيح أنها شجرة « ١ »

للحديث المرفوع عن عتبة بن عبد السّلمي وهو صحيح على ما ذكره السهيلي : « نعم شجرة تدعى طوبى » .

و

للحديث المرفوع أيضا عن أبي سعيد الخدري فيما رواه الإمام أحمد : « طوبى : شجرة في الجنة ، مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها »

و

روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ، لا يقطعها »

ولا حرج على فضل اللّه ولا على قدرته ، ففي الجنة كما ثبت في الحديث الذي أخرجه الجماعة إلا النسائي عن أبي هريرة : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(١٦٦/١٣)

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الآتي :

١- اللّه تعالى مصدر الرزق ، يوسع فيه على من يشاء ، ويقتره على من يشاء ، على وفق حكمته وعدله.

٢- الكفار وكل أصحاب النزعات المادية يفرحون في الدنيا ، ولا يعرفون غيرها ، ويجهلون ما عند اللّه من أفضال ونعم وخيرات كثيرة.

٣- ليست الدنيا في جانب الآخرة إلا متاع من الأمتعة ، وشيء قليل سريع الزوال.

٤- اقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تغني عن كل آية ، هي القرآن ، تدل على الصدق ، وصحة النبوة والوحي ، وكونه كلام اللّه.

---

(١) تفسير القرطبي : ٩/ ٣١٧ ، تفسير ابن كثير : ٢/ ٥١٢

ج ١٣ ، ص : ١٦٧

٥- لا تعلق للرزق بالإيمان والكفر ، فقد يرزق اللّه الكافر ، ويحرم المؤمن ، استدراجا للأول ، وابتلاء واختبارا للثاني.

٦- الإضلال والهداية من اللّه ، وللإنسان دور فيهما ، فالكافر هو الذي عاند وعارض ولم يؤمن ، فلم يهده اللّه ، والمؤمن هو الذي آمن وعمل الصالحات ، فزاده اللّه هدى.

٧- للمؤمنين الذين يعملون الصالحات الجنة والخير والنعمة والفرح وحسن المرجع ، وفي هذا ترغيب في الطاعة ، وتحذير من المعصية ، ومن سوء العقاب والمصير.

محمد صاحب الرسالة والرسول وبيان عظمة القرآن وقدرة اللّه الشاملة [سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣٠ الى ٣٤]

(١٦٧/١٣)

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٣(١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٣(٢) أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا

يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣(٣) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٣٤)

ج ١٣ ، ص : ١٦٨

الإعراب :

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً : جواب لَوْ محذوف ، أي لكان هذا القرآن. وما بعده جمل فعلية في موضع نصب لأنها صفة قرآن. وجاء سُيِّرَتْ وقُطِّعَتْ بلفظ التأنيث لتأنيث الجبال والأرض ، وجاء كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى على التذكير ، لوجود الفصل الذي يتنزل منزلة إلحاق التأنيث.

(١٦٨/١٣)

أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ تَحُلُّ : إما للتأنيث ، أي قارعة تحل قريبا من دارهم ، وهي جملة فعلية في موضع رفع صفة : قارعة ، وتقديره : قارعة حالة ، وإما للخطاب ، أي أو تحل أنت قريبا من دارهم ، وهو معطوف على خبر وَلا يَزالُ أي : ولا يزال الكافرون تصيبهم بصنيعهم قارعة ، أو حالا أنت قريبا من دارهم.

البلاغة :

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ : تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية :

كَذلِكَ أي مثل ذلك وهو إرسال الرسل ، أي كما أرسلنا الأنبياء قبلك أرسلناك قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها مضت وتقدمتها أمم لِتَتْلُوَا تقرأ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أي القرآن وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ حيث قالوا لما أمروا بالسجود له : وما الرحمن ؟ أي وهم يجحدون ببليغ الرحمة ، فلم يشكروا نعمه قُلْ لهم يا محمد لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لا مستحق للعبادة سواه عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ في نصرتي عليكم وَإِلَيْهِ مَتابِ مرجعي ومرجعكم.

سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أي نقلت عن أماكنها أَوْ قُطِّعَتْ شققت فجعلت عيونا وأنهارا ، أو تصدعت من خشية اللّه عند قراءته أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بأن يحيوا لما آمنوا بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ

ج ١٣ ، ص : ١٦٩

جَمِيعاً

أي للّه القدرة على كل شيء ، لا لغيره ، فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه دون غيره ، إن أوتوا ما اقترحوا ، وهو إضراب عما تضمنته لَوْ من معنى النفي ، أي بل اللّه قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات ، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك ، لعلمه بأن قلوبهم لا تلين له.

يَيْأَسِ المراد يعلم ، وهو لغة هوازن ، وهو رأي الأكثر ، وقيل : هو يأس على الحقيقة ، أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمانهم ، مع ما رأوا من أحوالهم ، علما منهم أن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا.

(١٦٩/١٣)